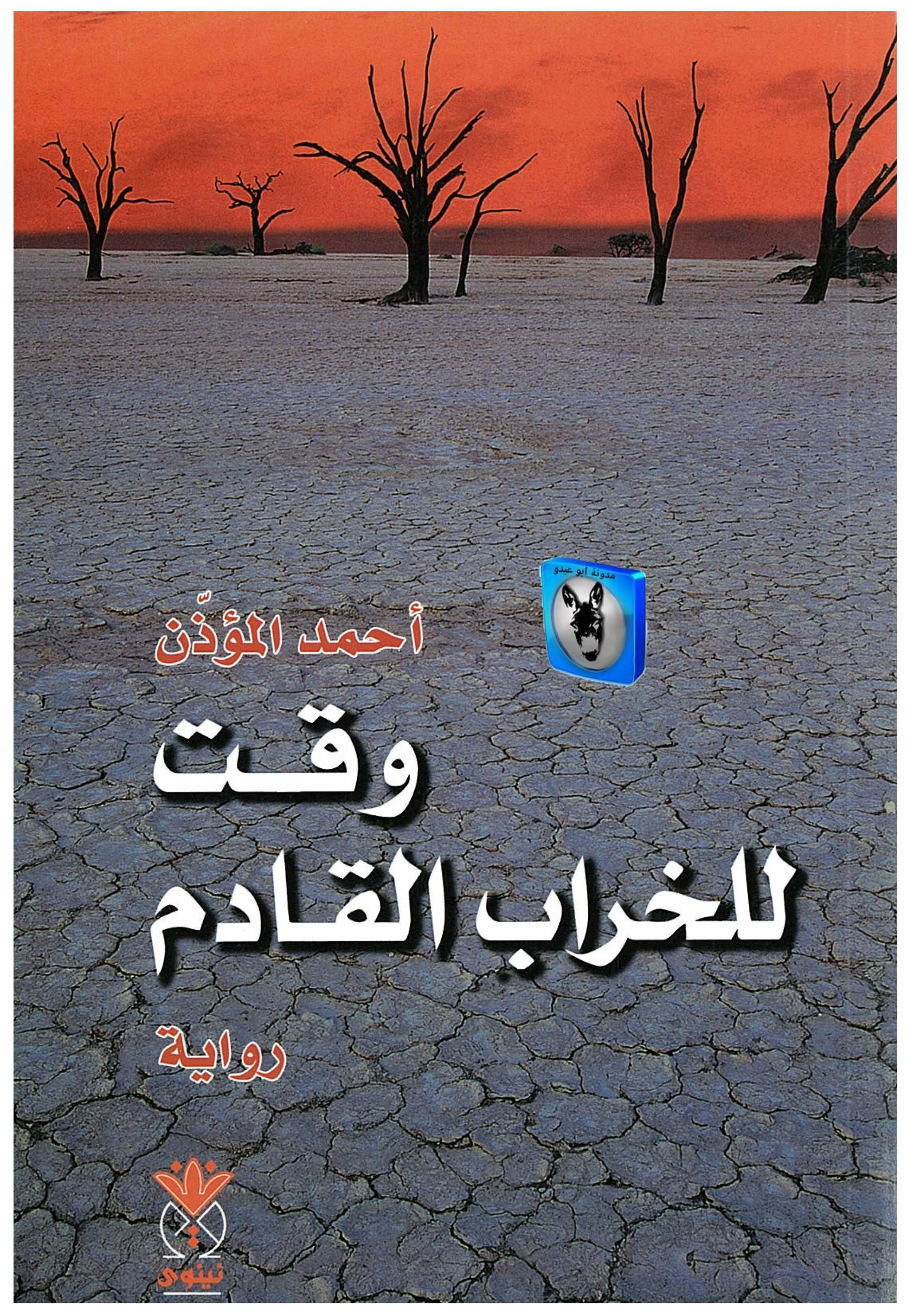

مدونة أبو عبدو
أحمد المؤذّن
وقت
للخراب القادم
رواية
نينوى

وقت للخراب القادم

أحمد المؤذن

رواية

أحمد المؤذن :

- أحمد محمد محسن حسن المؤذن – قاص من البحرين وصحافي متعاون يكتب في صحيفة (أخبار الخليج) – مواليد المحرق ١٩٧٣م – خريج ثانوية عامة – القسم الأدبي .. من المحافظة الشمالية، قرية كرزكان.
- يكتب في الصحافة المحلية وله العديد من المساهمات في الدوريات الخليجية
- حائز على جائزة المقال السياحي من إذاعة الصين الدولية – مارس ١٩٩٨م .
- حائز على المركز الثالث في مسابقة (نادي العروبة) للقصة القصيرة ٢٠٠١م – البحرين.
- حائز على المركز الرابع، جائزة مجلة الصدى الإماراتية – المبدعون / الدورة الرابعة ٢٠٠٥/٢٠٠٦م عن مخطوطة (رجل للبيع) – قصص.
- حائز على جائزة التميز للكتاب، وزارة الإعلام – إدارة الثقافة والفنون ، عن كتاب (من غابات الإسمنت) قصص، المركز الثالث / ٢ يوليو ٢٠٠٧م / البحرين.

صدر له:

- أنثى لا تحب المطر – قصص .. إدارة الثقافة والفنون – وزارة الإعلام – مملكة البحرين ٢٠٠٣م.
- من غابات الإسمنت – قصص – "إصدار خاص" فراديس للنشر والتوزيع ٢٠٠٦م – البحرين.
- رجل للبيع – قصص – دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع – دمشق – ٢٠٠٩م .

للتواصل مع المؤلف

البريد الإلكتروني

AhmmoAz@gawab.com

sofn@maktoob.com

جوّال : ٠٠٩٧٣٣٩٢٥١٤١٢

إهـداء

إليكم يا أصحاب الهامات المرفوعة

أكفانكم تصلي عنكم أسف التـراب...

والحرية ترفرف فوق رؤوسنا تؤدي...

حـج الكرامـة الإنسـانية ، مهمـا تجـبرت نـار الجـلاد

فصوتكم يختـرق صمتهم الأسود وينتصر...

لأرواحكم الطاهرة أهدي كتابي

احمد المؤذن

2003/2/4م

الفصل الأول

كل الأقدام والوجوه التي ازدحم بها الجامع تتنفس من إطلالته المرتقبة هواء حريتها وصوتها الهادر مفتشاً عن الإباء والكرامة، كل الأعين تغرق في لهفة اللقاء، كل القلوب تُسبّح آيات حبها الذائب، كل الأعناق مشرئبةً نحو البشائر المباركة منتظرة دواء آلامها لتغسل أحزانها.

للانتظار طعم ولفضاء كلماته طعم ولنحنحته الخفيفة أمام مايكرفون المنبر طعم ولدخوله الجامع تتصدع له الصفوف البشرية طعم، حيث يتعكز عصا شيخوخته وئيد الخطوات، حنون الالتفاتات يهب الجميع ملكوت الفرح والأمل في كل بيت وشارع وما بين أبواب الكآبة يبدد قنوط الوجوه المتعبة.

الآن... ما بين ركوعٍ وسجود وتسبيحٍ وخشوع، ترافقه ملائكة الله وحناجر المصلين تتحد في الدعاء المرفوع يطاول عنان السماء ولا يستطيع المندسون تفتيش ما يمضي نحو أكوان الله، ولا قوات الشرطة التي تتصور أنها تحاصر الصلاة في قرية «الجمرانية».

فشلوا في قطع الطرقات وها هي الجموع تبلغ ضفاف حبها، لا يمنعها حائل عن هدفها.

«الشيخ» صلّى بالجموع، والعبودية لله خالصة لا لطواغيت الأرض، والمجد للشهداء الذين سقطوا في الاعتصامات الجماهيرية، يهتف هذا الشيخ الوقور ويدعو الناس لجمع التبرعات لعوائل المعتقلين والشهداء.

كالشوكة في حلق السلطة الديكتاتورية، برهانه ساطع في وجوه المنتفعين والسماسرة. الصمت يشمل الجميع ما عداه، يتحدث أمام المايكرفون وهو يحمل أعباء الناس المساكين.

عجبت لأمره وأنا أحاول رؤيته في حُلة وقاره متشامخاً بصبره، ما استسلم لهم وما باع، حقاً، العظماء يحلقون والتافهون يتقزمون في الحضيض الموحل ويقتاتون من موائد العار ومزابل التاريخ.

الرجل بعزيمته الحديدية يبارك ضريبة الدم، يفتح النار على الفساد والتلاعب بمقدّرات الشعب، يحارب القمع واللصوصية.. الكلمات تتسرب من إيماءاته في هدوء المطمئن غير الهيّاب والمستعد للتضحية.

توقفتُ قليلاً ألتقطُ أنفاسي، فعاجلتني لهفةُ صديقي «عباس الصيري» تسألني عمّا بعد..

ـ ماذا بعد؟! «الشيخ» لا يزيّن كلامه أو يطلبُ مستعطفاً، فقد سمّى الأشياء بمسمياتها وعرّى رموز السلطة وما جلبه حزبها المجنون من مصائب على مستقبل البلد.

ولكن.. أدهشني أن أعرفَ للمرة الأولى أن كبارَ الساسة في الجمهورية تُصرف لأولادهم الرواتبَ الخياليةُ وهم لا يزالون أجنةً في بطون أمهاتهم، وطبعاً لا حق لنا أن نسألَ أو نستنكر، لأن كلَّ ما يفعلونه يصبُّ في أهداف التنمية الاقتصادية المستدامة ومواجهة التحديات المستقبلية!

ـ الشعارات المكررة التي يرقصون على ضجيجها يا أخي أحمد.

ـ ديكتاتورنا المبجل سقطت كل أقنعته التنكرية التي يلجأ إليها في المناسبات العامة، بات سطحياً ومكرراً في خطاباته الرنانة الفارغة التي يقدس فيها «أناه» الأبوية الحنونة، ما هذا؟ أينصبّون أنفسهم المريضة آلهةً تنوب عن الخالق؟!

نهض عباس من مكانه وحمل حصاة صغيرة وقذفها بعيداً في موج البحر ثم أتبعها بأخرى وكأنه مسافر مع رقص الحصاة الأخيرة فوق سطح الموج قبل

التلاشي في العمق الأزرق تتهادى فوقه قوارب الصيادين، مدَّ بصره يراقبهم ثم بعد برهة خرج عن صمته وقال:

- لو أن هذا الحصى يتراكم في وسط البحر وتتشكل منه جزيرة يعيش فيها الناس الطيبون فقط حاملين تسامحهم وخيرهم وكرامتهم وعدالتهم ونظافتهم وكل ما هو نبيل وجميل.

- مدينة فاضلة على وجه الأرض!! أترك عنك هذا الحلم الأفلاطوني قبل أن تحاسب عليه.

- نُحاسب؟! نُحاسب على أحلامنا ومن..؟

- كل حلم بالخير والعدالة والحرية قابل للمصادرة بأمر القانون في جمهوريتنا وتصدر بحق مرتكبه أشدُّ العقوبات لأنه يهدِّد الأمن الوطني والمصلحة العامة.

- المصلحة العامة أصلاً رهن الاعتقال لدى السلطة، هل ترى هذه الفيلا على البحر؟

- نعم.. أكبر دليل على ترجمة المصلحة العامة، توزيع مقدّرات الشعب على الحزبيين ومناصري وحشية السلطة. لم يتبقَ شيء والوضع المحموم لا يهدأ، «الشيخ» شجاع وابن أصل إنه.. إنه فارس يعبر الصحارى القاحلة ويحدّث واحات الأمل.

تطلع «عباس» في وجهي برهة ثم قال:

- في كل مرة تتحدث عن «الشيخ» يصيبني الفرح وأتمناه حيث يجب أن يكون هناك في جزيرة الخير والحب والعدالة، أتعلم... الطغاة عبء على الحضارة البشرية فهم يوقعون مراسيم الحروب ويستثمرون الفتن ويتاجرون بالمفاهيم الشريرة وحتى بعد زوالهم، تضج من قاذوراتهم المترسبة في العقول المريضة التي لا تفهم لغة الخير والصلاح، أحياء أو أموات سواء، إشكالياتهم قائمة كضرائب كريهة واجبة الدفع! أحمد... أنا خائف.

- الأوضاع ستتحسن بعون الله ثم إن المعارضة..

ـ كابوس البارحة كان فظيعاً.

ـ هذا طبيعي عباس، الحكومة حوّلت البلد إلى ثكنة عسكرية وتفتيش ومداهمات واعتقالات عشوائية، لم تحترم صغيراً ولا كبيراً، أكيد بعد هذا الجو المحتقن تترسب في النفس مخاوف شتى تباغتنا في المنام.. ماذا رأيت؟

ـ رعباً، رعباً متفجرَ الشظايا يلف المكان، ما وعيت إلا وأنا أتجول غريباً في قرية.. لا أعرف هذه القرية تماماً وتاهت مني الاتجاهات والأماكن ثم أهرول خائفاً فوق شوارع من غبار بدت خالية من العابرين، أنعطف نحو صفوف البيوت وتعبت من الركض، بحثت عن شربة ماء لكن الأبواب مغلقة!

عطشي يتفاقم وأكاد أسقط من فرط الإعياء، باب واحد فُتح أمامي، اتجهت إليه في لهفة المشتاق، ظهر لي رجل يبتسم وطلبت منه الماء، غاب عني بعض الوقت، وبينما أنا أدير ظهري للباب باغتني الحبل يغتال غفلتي ويطوّق عنقي والرجل يضحك ويجرني إلى المجهول!

فزعت وسيطر عليّ الخوف، استيقظت وأنا ألملم الهواء في رئتيّ، أكاد أموت والحمّى تهاجمني، بقيت مع أرقي وقلقي حتى الصباح.

ركنت إلى زاوية قصية داخل نفسي ورحت أتأمل مجريات الليلة الكابوسية كما سردها «عباس» الذي غاص في رعبها الآن ووقع في فخها ثانيةً، لا لشيء سوى البحث عن تفسير منطقي، فالخوف ينبش دواخلنا من أصغر الشرر، «عباس» واقع في دوّامة الكابوس وعلّه يجتهد محاولاً اختراق الجدران وسحب الدخان التي تحجب حقائق الأشياء المستترة.

أيهجس مكروهاً يصيبه على غفلةٍ منه؟!

بعض متاعبنا نهجس وجعها قبل أن تسفر عن نفسها، ربما هو محق لكنما هذه الكوابيس التي تعبث بنا، تأتي وتذهب والتوغل في تفاصيلها تضخيم تافه يجانبه الصواب أحياناً، صديقي يبالغ، لاشك ولا حاجة هنا إلى فلسفة أو ثرثرة حول بعض الأوهام الصغيرة العابرة التي نضحك على سذاجتها بعد حين من ثبات بطلانها.

قرأ ساعته كأنما نسي شيئاً ما وركب السيارة وهو يقول:

ـ مرَّ الوقت بسرعة، الجلسة معك لا تُمل، أستأذنك الآن أحمد، سأرجع إلى البيت، أمي تنتظرني حتى أوصلها إلى المستشفى، تعرف.. أنا وحيدها بعد وفاة الوالد، هيا اركب معي.

شكرته وآثرت البقاء وحيداً عند موسيقى الموج المقبل والمدبر وهو يلثم حافة الرمال البيضاء ملقياً بالأصداف والقواقع وتلك الطحالب السوداء ما بين ثناياها بعض الرخويات الناصعة البياض التي حذرني منها «عباس» ونحن هنا ذات يوم نسبح، فبلحظة تلسعك بسمها الناري، تحمل الألم!!

حكايتنا مع الألم تمتزج بالخوف.

عباس غادرني منذ قليل وطبعاً أنا لم أخبره كل شيء، لم أخبره عن الخوف الذي تملكني وأنا..

أنا هناك أحاول إنقاذ نفسي من الهياج الذي اشتعل عند ساحة الجامع حيث حدثت مناوشات الشرطة بالمصلين.

الكل يعرف أن هذا سيحصل، تجمعوا بعرباتهم وفرضوا عقاباً جماعياً على عموم المصلين بعد فراغ «الشيخ» من الصلاة والكلمة.

إنها المرة الأولى.. كم كانت شراسة الرائحة في قوتها تهاجمنا بلا تمييز ولا نجاة لي من سطوتها رغم المسافة الطويلة التي أصبحت تفصلني عن مكان المواجهة والسحاب الدخاني الأبيض الخانق ينتشر، لكنما الجموع الغاضبة ترفع الشعارات والقبضات وحناجرها تتمزق غضباً يستمطر اللعنات.

كنا نعرف بحصول الأمر، أو أن هذه المواجهة يتحتم فيها الاستفزاز، ويا لها من ظهيرة حافلة بالأحداث.

الآن فقط أصبحت أعرف خارطتي الداخلية وتعاملها مع توتر الخوف، المسألة أنك تستطيع الصراخ وأكثر، لكن الثبات في المواجهة لا يشبه سهولة الصراخ، بل هو أيسر جزء، أنا هناك هربت حاملاً خوفي كما طفل يتحاشى غضب الكبار.

لو أني أطلعت «عباس» على هذا الجزء..

لتبقى صورتي عنده كما هي، حتى وإن بدت مهزوزة لا سند لها من الواقع كما هي في داخلي، نحن هكذا دائماً نرتدي لباس الشجاعة وهماً يبعدنا عن الصورة الحقيقية التي نغرق فيها ونحاول غض أبصارنا عنها، فهي الوجه الآخر الذي نمقته. أهلاً بك صديقي «عباس» إلى عالم الخداع والتلوّن، فالشعارات التي حركت غضبي دستها بخطواتي السريعة وأنا أهرب ولا هدف آخر أمامي غير الهرب، من بعد أن رأيت عربات الشرطة تنجح في السيطرة على التظاهرة وتعتقل البعض بوحشية. أكيد.. شجاعتي الورقية لا تتحمل هذا الاختبار الحاسم!!

أظن أني اكتفيت من الجلوس هنا، فولّيت وجهي شطر القرية ومشيت بهدوء تاركاً ورائي البحر وقد طهرني من بعض هواجس النهار وأدخل السرور إلى قلبي، هكذا تعودته دائماً يرحب بي وينفحني برائحته ويسمعني صخب أمواجه.

مشيت أعبر صفوف النخيل الحزينة وقد هاجمها العطش.

مزارع الفقراء تحتضر، هؤلاء الحزبيون المسنودون من الحكومة والمتنفذون يدفعون لبعض العصابات الإجرامية حتى يسمموا أشجار النخيل ويعيثوا فساداً في تلك المزارع ويتركوها تعوي بخرابها، فيرضخ أصحابها تحت ثقل خسائرهم وتباع برخص التراب!

ها هي تحت رحمة الجرّافات الآلية التي تقتلع في طريقها كل شيء وأكوام النخيل مسجاة مثل جثثٍ خضراء جار عليها هذا الزمن الرديء.

ياه، ما أبشعها من جريمة، هذه الآليات الثقيلة تكتسح اخضرار «حداحيد» وكل القرى المجاورة التي ناصرت «الشيخ» وآزرته ضد تعسف الحكومة وعنجهيتها. مزارع كثيرة تضررت في المنطقة، تحت ثقل الضغط الإجرامي لم يصمد إلا القلة، أحد هؤلاء الصامدين كان هنا..

توقفت عند بوابة مزرعته الحجرية.

نسميها الآن «خرابة الحاج منصور» يرحمه الله، حينما جاءوا إليه يريدون شراء مزرعته رفض ذلك وطردهم، فابتعدوا خوفاً من منجله الصقيل وكلابه الشرسة، لكنهم عادوا ثانية ومعهم عربة شرطة للمساندة.

اقتحموا المزرعة، أسكتوا نباح الكلبين بعيارين ناريين، الأصوات تزيده غيظاً وغضباً، توقف عن تنظيف البقل في حوض مضخة المزرعة حيث سارع إلى إطفاء المحرك وأخذ معه المنجل وتسلل متخفياً وسط الأحراش يراقبهم بصمت ومحرك عربتهم توقف هو الآخر وقد ترجلوا بلا تردد منتهكين حرمة أرضه.

الملاعين أفرغوا صفائح الكيروسين على جذوع النخيل وتركوا النار تلعب، تلعب بداخله وتزيده غضباً على غضب، أرضه التي يحميها ويخلص لها ها هي أمامه يبتلعها طمع الطامعين، إنها تحترق وتستغيث، قبضته على المنجل تشتد وهو ينتظر الفرصة، قلبه ينقبض على المزرعة ولا أحد سواه يسمع عويل النخيل يجتاحها اللهب معربداً بلا هوادة.

كانوا خمسة، آخرهم وصل عند حوض المضخة وهو يتفقد المكان في حذرٍ، ركل سلة البقل بكعب سلاحه وهو يصرخ في الحاج منصور ملقباً إياه بالعجوز الجبان. غير أن شجاعة هذا الأخير كانت خلف الأحراش تتقدم في صمت والمسافة قريبة وحتف هذا الوغد أصبح قريب المنال ورفاقه توغلوا بعيداً عنه في أرجاء المزرعة ينشرون النار ودخان الخراب. أصبح الآن في هذه الزاوية الحرجة عند الحوض ولم يكد يحرك رأسه نحو الأحراش، حتى طفر في وجهه كالشبح وعاجله بسطوة المنجل شقت صدره وسفحت دمه المنفجر ساخناً يمتزج مع مياه الجدول.

سحب جثته بهدوء وخبأها جيداً.

الدخان يتصاعد بكثافة ونصف المزرعة تأكلها النار، هسيسها يجتاح خضرة قلبه المتفطّر وهو لا يزال في قمة تصميمه على الانتقام.. قيل أيضاً أن الحاج منصور فيما روي عنه يومها، أنه تمكن من رجل آخر، عاجله بضربة

واحدة فوق ساقه اليمنى، حمل منجله وخطا بضع خطوات لكنه سقط برصاصة قاتلة استقرت في رأسه مُخترقة سحب الدخان.

كل هذه الصور التي تتابعت على مخيلتي، أحسست بها الآن والحاج منصور مثل هذه النخيل التي احترقت وهي واقفة!

لكنه لم يستسلم أبداً، تحول إلى شبح يجوب سكون الليل!

بعض عجائز القرية كن يذهبن إلى هذه المزرعة ويكسرن البيض على البوابة الحجرية حيث يتلون طقوساً طلسمية وبعض الدعوات لترقد روح الحاج منصور بسلام.

المزرعة لم يشترها أحد وقد مر على الحادثة ثلاثون عاماً، تحول المكان إلى خرابٍ كئيب، عويل الريح يزيده رهبةً. بقيت واقفاً، بإمكاني رؤية الغرفة الطينية الخاصة بالمضخة ملتصقاً بها حوض الماء، بات جافاً متصدعاً سطحه الأسمنتي القديم، محاصراً بالأحراش المتطاولة تكاد تخفيه عن الأنظار.

كم هي مخيفة هذه الخرابة، حتى العصافير لا تسمع لها صخباً هنا! لن أجرؤ على تخطي البوابة ولا أفكر في هذا بتاتاً، أذكر أن جدتي حذرتني منها. وجه «حداحيد» منذ حادثة مزرعة الحاج منصور وإلى الآن، طرأت عليه التبدلات، فالمزارع التي تم شراؤها بالقوة وتحت التهديد، حُصّنت بأسوار خرسانية عالية وصولاً إلى البحر، تحرسها العساكر ليل نهار. مسكينة يا «حداحيد»، أنقل بصري من مزرعةٍ إلى أخرى وهؤلاء الحراس يحدقون بي في ريبة، طبعاً.. فقد أصبحت قرانا تحت سطوة الظلم عبارة عن مناطق أمنية، يدوس اطمئنانها وسكينتها غرور السلطة.

انتهى بي الدرب إلى الشارع العام متحرراً من رقابة الحراس البغيضة بينما لاتزال رائحة الحريق وسحب الدخان ماثلةً في مخيلتي، ليست مزرعة الحاج منصور وحدها التي احترقت، بل كل البلد يزحف إليها لهيب الخراب.

الفصل الثاني

أعرفه.. نحيل الجسم، جحوظ خفيف في حدقتيه وتلك الصفرة التي تلوح بقسماته، كان قليل العافية، عظام وجهه بارزة مثل شبح غادر الجبّانة!

«قاسم» أنهى فترة الثانوية العامة من دراسته، المسكين طحنته هذه الحياة وبقي عاطلاً عن العمل فترة طويلة. خطواته هادئة مثل ظله يتشظى في ريح المساء، يعبر مساحات الضياع والخيبة، ينزوي في خرابة «حاج منصور» تلك المزرعة المشؤومة، هناك يأخذ قيلولته النهارية تحت ظلال عشّة من الصفيح، قام بتلصيق أخشابها وصفيحها هارباً من مشاكله مع أمه.

هنا.. يجد سكينته وهدوءه.

يرمي بعظام لحم البقر التي جلبها من قمامة سوق «حداحيد» إلى كلب مشرّد يشاركه العيش بالمكان، يربت على ظهره الملطخ بالقذارة ويشفق على عينيه الحيوانيتين المسكينتين.

وهو أيضاً لديه ما يسدّ جوعه.. تحسس جيب بنطلونه الكحلي، كان تسلق جدار ذلك البيت صعباً ولكن الغنيمة تستحق، كم كان يضوع برائحة الورد حبل الغسيل المصلوب في حرارة الشمس وتلك الصدرية الحمراء نارها تأكل لهفته ويفوح منها مسك أنثى شهية مكتنزة بالخيرات والأفضل ألا تفوته فرصة خلو البيت من ساكنيه، هو بنفسه تأكد أنه لا يوجد أحد في تلك الساعة، فأغار على هدوء البيت وفرّ بكنزه الثمين!

والآن هو بعيد عن الأنظار، قريب من قطعة القماش المزخرفة بالثقوب الهندسية، احمرار هذه القطعة كان يحتضن ثديين طريين ويا للرائحة الطاغية، سر امرأةٍ ما الآن مباح لنشوته، هناك ينتفض، يجثو على الأرض ويتعرّى بارتعاشات جسده العطشان، يتخيلها أمامه وثدييها ثمرتان شهيتان في ساعة الجوع، آهههه ملعون هذا الجوع! الارتعاش اللذيذ يفتك بصوابه وبصبره، يدعك نعومة القماش بآلته الذكورية المنتفخة العروق، هذا الظمأ في ذروة الصعود، في ذروة التمرد، في ذروة الجنون، في.. ما بين فخذيه يتفجر حليب خطيئته الصامتة، ما أحلاه من وخزٍ لذيذ يتذوقه الساعة والجوع ينسحب ويغرق في غيمة راحته الثملة، أخيراً آن لجمرة جوفه أن تستريح في رمادها إلى حين، وها كفه لزجةً برائحتها الطازجة!!

يحدق في حمالة الصدر ملوثة بفرحه وهو يلهث متعباً يلملم عُريه وقد جنحت الشمس للغروب.

أشعل سيكارته واضطجع في سكون العشّة يدخن، يصفق لروعة حفلته السرية، في كل مرة أحلى، فأرسل بصره نحو بيوت حداحيد! لا ينوي العودة إلى البيت، هدوء العشّة ولا مشاكل الناس التي تشتكي متاعبه ومصائبه التي يخلفها وراءه أينما حل، منحرف وحرامي ومخادع وهو لا يحب أهل «حداحيد» خرابته هنا أفضل!

هذا الحيوان الأليف يرافقه بإخلاص؛ أنهى وجبته، يهز ذيله ويتودد ويلعب. يراقبه ثم يمسح ظهره، يا لها من صداقة طريفة، على الأقل هذه البهيمة لن تتطفل عليه بالأسئلة كما يفعل بنو آدم، كما لن تخاصمه أو تثير له المشاكل، البعد عن الناس راحة لكنه الآن يتذكر الصورة، الله الله على هذه الحورية!

ها هي مكافأة أخرى، فتاة شهية لا يسترها شيء غير ملابسها الداخلية تصرخ بفرح أمام الكاميرا، أحمق من يفوّت مثل هذا الجمال ويهمل التمتع به، في الحال مزق الصورة من غلاف المجلة الأجنبية التي وجدها في القمامة.

هذه الحلوة تستحق قبلة، خارطة هذا الجسد محيرة في تفاصيله الشهية، أين يمكن..؟!

قبّل الصورة وذاب في روعة اللحظة ثم قذفها في فمه وأكلها!!

نفر الكلب من مكانه متحفزاً فجأة!

ينبح وينبح وكأن هنا في خرابة الحاج منصور أحداً خلف هذه الأحراش الفوضوية يدبر أمراً ما. فقام يتفقد المكان حوله، الزاوية الشمالية للخرابة على الأرجح قد يختبئ فيها أحدهم.

خطواته بطيئة وخوفه موجع من أن يكون أحد الأهالي جاء لينتقم منه، وحتى لو كان الأمر كما يتوقع الآن، فالكلب سيتكفل بمهمة تمزيق هذا الغريب القادم أياً كان، مراهق مثله لن يبالي.

خطوات قليلة وتوقف يستطلع من مكانه ما يدور في الجوار.

الرؤية الآن في أسوأ حالاتها من بعد المغيب.

لكنه شاهد الحلقة البشرية المجتمعة، مصباح الكاز كشف وجوههم في الظلام الهابط يستر على نقاشهم خلف الأحراش.. متى قدموا إلى هنا؟!

الآن فقط يتفاجأ بهم، من هؤلاء؟؟

عفاريت الخرابة التي ترويها العجائز في «حداحيد» لتلجم مشاكسات الأولاد المشاغبين أم..؟

هؤلاء من جنس بني آدم، لا يمكن أن.. صورة الفتاة الحلوة التي أكلها توقعه في هلوسة الآن كما يبدو. بث بصره هناك ثانية وتتاهت إلى سمعه أصواتهم، أكثرهم أهمية حامل المصباح يمسك دفة الحوار في الحلقة ويفور بانفعاله حيث يخيم على الحلقة الصمت والترقب.

- لا، ليس تغريراً ولا تضليلاً بأحد، أي طيف من أطياف المعارضة كلها تعمل من أجل الوطن، أنتم تعلمون إلى أين وصل بنا الحال والحكومة ترفض منطق الحوار ولا تعرف إلا لغة الهراوة والرصاص والتخوين وقانون الطوارئ الوطني مسلط على رقابكم منذ سنوات طويلة وسترضعه زوجاتكم إلى

أطفالهن في المستقبل الرمادي الذي ينتظركم، أنتم هنا في «حداحيد» وكل المناطق جسد واحد، أتعرفون معنى هذا الكلام؟ البلد اليوم يُتاجر به في البورصات وتُنهب خيراته. حتى اللقمة في فم أولادكم، ستفرض عليها الضرائب الحكومية ما هذا؟! هل أنتم بهائم تعلف وتتناسل فقط ثم تُساق إلى الذبح؟؟

ألم تسألوا أنفسكم عن سبب اعتقال «الشيخ»، طوقوا بيته في قرية «الجمرانية» اقتحموا حُرمة البيت ولم يردعهم شيء، هذا الرجل الشريف قال كلمة الحق بعيداً عن التحزبات يقدم روحه على كفه للوطن وما خاف السلطة الظالمة حين هددته في لقمة عيشه إن لم يسكت عن..

المسألة واضحة وأنا أضم صوتي إلى «الشيخ» وسأشهر كفري بها، سُلطة البلد ديكتاتورية ولا أعطيها الشرعية وهي تمارس اللصوصية على البشر والحجر وتعربد يميناً وشمالاً وهي تعتقل مطالبنا الدستورية العادلة وتحفر لنا مؤامراتها الشريرة ونحن.. لا فرق بيننا وبين معتقلي الرأي في سراديب الجلادين، أتعرفون؟ كلنا في حضن الوطن محكومون بالسجن ننتظر أدوارنا فحسب. أنا أخوكم «أبو جواد» وتعرفوني ها أنا أمامكم انظروا إليّ..

وراء الأحراش لايزال يتخفى «قاسم» هناك، بالكاد تمكن من رؤية جسد الرجل الذي أكلته نيران السياط والندوب، مصائبه كالجبال حُفرت على جسده الهزيل ولم تطفر روحه؟!!

نباح الكلب فضح أمره، ولا خيار أمامه إلا الهروب، هرب «قاسم» من المكان بأقصى سرعة، احتجب خلف النخيل والظلام.

قال أحد الرجال المجتمعين حول «أبو جواد»..

- لا تقلقوا ،هذه كلاب الخرابة.

رد آخر وهو يكسر عوداً من جريد النخيل ويلقي به جانباً:

- وربما هي كلاب «المختار حمدان»، أخ لو.. لسحقته بيدي هاتين وأزهقت روحه الشريرة وخلصت «حداحيد» من شره، وصولي وماكر تحالف معهم ابن (الـ...)، يظن أنه كسب الرهان بانقلابه المخزي، دهنت الحكومة مؤخرته

بزيدة عطاياها وكافأته على الخيانة والله يا «أبو جواد» أنت أشرف وأطهر بكل تضحياتك، أنا معك وهذه يدي، ما قولكم يا شباب؟

ـ لحظة لحظة.. لا أقصد أن أستعرض عليكم سيرة حياتي وأطلب الإعجاب منكم، افهموني صح، الحكومة تمارس أقسى ما يمكن أن تتخيلوه من أساليب التعذيب وشرعة حقوق الإنسان الدولية لا تعترف بها إطلاقاً، أقدّر حماسكم الشبابي وأحترمه، لكن تريثوا..

معتقلات النظام لا ترحم، بإمكانهم تمديد فترة الاعتقال بدون محاكمة وسط الجحيم، هذه ليست نزهة، بل عرق ودم وعذاب يصيبك بعقد نفسية تشوي الأرواح ولا يرحمك إلا الموت!

تعصف به آلامه، سهام وسكاكين وخوازيق في ذاكرته المشوهة من أيام السجن المركزي ووجه الشيطان الأجنبي «جيفرسون» القفاز القذر بيد ديكتاتور لا يرحم. الآن يتفتق الجرح والعروق تحترق أسفل جلده ذلك اليوم، ما أصعبها من أجواء مسمومة كالوجوه الملثمة في ظلامها تذيقه نفس الأحذية الحديدية تنتزع الدماء من خاصرته وهو طريح الأسمنت البارد لأرضية تلك الطوامير الجحيمية مثبتاً بكلاليب معدنية تشده للعذاب واللعين بعينين زرقاوين باردتين، يطفئ سيكارته في عنقه المتعرق.

يشعل سيكارة جديدة ويشير بإصبعه وهو مكتسٍ بنظرةٍ رصاصية مستقرة ومتعالية إلى المرحاض. فيهتف أحد جلاوزته مؤكداً، أن النزيل لابد له من فيتامينات تعتني بصحته! فيدعس رأسه في تلك اللحظات القاسية يشرب من سوائل المرحاض الآسنة وهم يضحكون في ذروة شرهم. يختنق بحصار الفقاقيع والأوساخ تغزو حلقه ثم يرفعونه مرات ومرات، ينتفض صوته الراعش لا يملك سوى حشرجة ألمه المتفاقم يمزق به وحشية الجدران ورتابة المصباح الكهربائي المتأرجح بقبعته المثلثة تضيء وتطفئ الوجوه الأسفلتية التي تطوقه حتى تدركه رحمة الإغماء!!

وما هي إلا دقائق حتى يسقط عليه جحيم آخر من عبقرية الأجنبي العجوز

«ابن الز...» يأمرهم فيغرقونه في المياه الجليدية فيحترق جلده ويزرق ويطبخه ذلك المساء المفترس يجثم على أنفاسه بلا هوادة وهو عارٍ أمامهم، يتذكر العجوز وهو يُلمع نجوم كتفه الملطخة بالوحل والدم.

استيقظ من وجعه وفتح باباً للخروج من تلك الليالي، تطلع في وجوههم البسكويتية الهشة وأشفق عليهم وعلى أهاليهم وأيقن أنه أمامهم الآن مصلوباً في اللحظة المضطربة يتعثر باندفاعهم الحماسي متسلحاً بالشجاعة.. أيدركون جسامة المغامرة التي قد تُحرق أحلامهم وأعمارهم؟؟

بريق التصميم في أعينهم.. ماذا يفعل الآن؟! يضحك في سره، يطمئن إلى نبل القضية ما دام هؤلاء مرفوعي الهامات، هنأ نفسه بزفاف الحرية الآتي ثم صاح فيهم.. وتصميمه الشجاع في عينيه الصارمتين يصرخ.. (الوطن لن يركع إلا لله). اعتنقهم والفرح يغمر قلبه، يشدون على كفيه وعودهم الممزوجة بالكرامة وها قد تخطوا الاختبار الأول!!

لكنه اللحظة تذكر مشهد الإطارات المشتعلة عند مدخل القرية الجنوبي، حدق فيهم ثم قال:

- لا أريد أن أخدش حماسكم ولكني أسألكم وبصراحة عن الإطارات المشتعلة لماذا؟

أنا لا أوجه اتهاماً ولا أسعى للتشكيك في أحدكم، إنما أعلمكم أن حرق الإطارات عمل تافه لا ينصر قضية، لا يقدم أو يؤخر، فالدخان المنتشر ضار بصحة الناس ويفرز مواد مسرطنة، طبعاً تفهمون كلامي، أنتم لستم مع "أبو جواد"، أنتم مع الوطن في محنته ونضاله، حكّموا أفعالكم هنا وفكروا جيداً في كل خطوة تخطونها.

فقال أحدهم:

- الحكومة تمارس العنف وأنت تعرف أن هناك ضرورات في ساحة المواجهة، حرق الإطارات أحدها.

- أي مبرر بهذا الشأن مرفوض، ألسنا ندين الحكومة لاستبدادها برأيها

وإصـرارها علـى نهجهـا العنيـف، إذاً لـماذا نقاومهـا مـا دمنـا نتبنـى ذات الاتجـاه ونستبد بما نراه نحن، لأننا فقط نريد هذا؟!

حرق الإطـارات والتخريـب مرفـوض ولتعلمـوا أن الجهـاز الإعلامـي للسـلطة يقـظ ويعمـل علـى اسـتثمار كـل ذلـك لتشـويه عدالـة القضيـة أمـام الـرأي العـام الدولي وهو ما لا نريده ولا يخدمنا في شـيء فتضيـع كـل جهودنـا ، إن «الشـيخ» يريدكم أن تكونوا على مستوى المسؤولية والوعي.

ـ تقصد أن هناك تخبطاً بعد السنوات الماضية في تحرك المعارضة؟

ـ للأسـف.. الحركـة المطلبيـة داخـل البلـد لا تتسـق ردود أفعالهـا بالشـكل والمضمون المطلوب، الحراك السياسي لم ينضج بعد ، نحـن نواجـه إرهـاب دولـة منظما ، التحدي كبير يـا إخوان، نظامنـا الحـاكم ديناصوري عتيـد وبلـغ مـن العمر عتيّاً وتجبّراً وتعرفون أنه نجح في إخماد العديـد مـن الانتفاضـات الوطنيـة الماضية وصفى رموزها ونفى البقية منها ، ينبغي مواجهة دروس الماضي بشجاعة.

أنـتم جيـل محظـوظ بـات بإمكانـه التعامـل مـع تكنولوجيـا العصـر، تسـتطيعون تجـاوز كافـة الحـواجز الرقابيـة علـى الخطـاب الإعلامـي المحلـي والتحدث عن مظلومية الشعب وعدالة القضية.

ـ تقصد شبكة الانترنت، بعض التجار الوطنيين الشرفاء أصبحوا يمولـون تكاليف المواقع ويحشدون الدعم السري لها.

ـ هذا هو المطلوب يا إخوان، كلٌ في مجال تخصصه يخدم القضية كيفما يستطيع، على المعارضة تكثيف مجهوداتها فالحزب الحـاكم، منهـك بكافـة أجهزته الأمنية والقمعية.

ـ نضربهم يا "أبو جواد"، أكيد دخلوا القرية الآن بعرباتهم وكلابهم.

كان المساء قد بدأ يترقق بنسيمه الصيفي المنعش، أحكم أبو جـواد لـفّ لثامه على وجهه وخاطب محدثه:

ـ هذا ما تريده الشرطة بالضبط، المواجهة المفتوحة، إياكم يا شباب وهذا الخطأ، لن نلجأ إلى العنف إلا في حالة الدفاع عن النفس، استخدم عقلك ضـد

عضلات عدوك.

- ماذا نفعل بالضبط؟

- وزعوا هذه المنشورات في الدكاكين والشوارع والمساجد، "خلوا" الجدران تصرخ بنضالكم الشريف، نريد لقريتنا أن تتفاعل مع القرى الأخرى في البلد، صوت حديثنا يصل مهما فعلوا، سيصل مع كل تجمع واعتصام، هيا هيا اغتنموا الوقت وتوكلوا على الله، كونوا حذرين حال خروجكم من الخرابة.

المزلاج الأول ثم الثاني وأتبعه بالثالث وهو يتفقد الحي من النافذة خشية أن يكون هناك أحدهم، مخبرو الحكومة وأعينها المبثوثة في كل مكان. يعرفهم ويحتاط لأجل ذلك، آخر مرة فعلوها داهموا البيت وهم يصرخون.. «البيت محاصر يا "أبو جواد"، استسلم!».

تمكنوا من خلع الباب، طاردوه في أرجاء البيت ثم حاصروه في هذه الزاوية عند باب المطبخ، يتذكر أحد هؤلاء الضباط المجرمين، الجزء الأيسر من وجهه يحمل شامة قبيحة مزروعة بالشعر، ضحك شامتاً ثم أدار وجهه إلى زملائه وهو يقول.. «الفأر في المصيدة».

ثم التفت بحركةٍ مفاجئة وانطلقت كفه الثقيلة بصفعة مدوية فقد على إثرها أحد أسنانه العلوية، يومها تذوق ملوحة دمه، اقتادوه مصفداً وتمَّ رميه كالذبيحة في عربة الجيب العسكرية، عصبوا عينيه ولم يعد يرى إلا الظلمة مسيطرةً على أنفاسه، أحدهم سدد رفسةً غادرةً إلى ضلوعه وقال: «خسارة.. أمك العجوز المكسرة ميتة.. أنا أحب اغتصاب العجائز، ماذا أفعل.. تخصص عجائز؟!».

ضجوا بضحكهم الأسود السافر والعربة العسكرية تقصد ذلك الجحيم، مديرية المخابرات العامة الملحقة بالسجن المركزي، سجن الطحان حيث كل غربان النظام الحقودة تقع على أشكالها في ذلك التجمع الشيطاني الرهيب.

المكان لا يُنسى من وجع الذاكرة النازفة، هذا البناء الأثري الضخم بأبراجه الحجرية الشامخة وتحصيناته المستحيلة، موروث عن الحقبة

الاستعمارية البغيضة، عملقته المخيفة تزعزع النفوس وترعبها.

نفسه الآن في برج الذكرى متأرجحة، يا لهذه الحياة القلقة المشحونة بالهم والتعب. يعرف أنه ليس ككل الرجال، يختلي مع بعض اللحظات السعيدة التي يشتهيها.

سنوات النضال سلبته الكثير.

هذه الزوايا المظلمة التي لا تبرح فكره، حُفر عميقة تصرخ من جوفها كل صور العذاب التي عاشها.

جلس على البلاط العاري، لا يستطيع حتى الجلوس على هذه المقاعد، كأنه مصاب بعقدةٍ ما أو عادة اكتسبها من سنوات السجن، يترك المصابيح حوله مضاءة حتى بزوغ الصباح، كم يمقت الظلمة ويكرهها، ذاق ويلاتها وابتلع غصصها مكرهاً ثم مهاناً مهشماً في كبريائه المجروح.

سنوات الجمر اللعينة والأحلام التي دفن جثثها والأماني التي انتحرت من فرط يأسها، كل هذا النزيف يندلع الآن هنا في سكون البيت الفارغ يأكله!

رنين جرس الهاتف وحده، شتت الصمت المخيم.

عاود تفقد الحي من النافذة، الوضع طبيعي لحد الآن، ثم رفع سماعة الهاتف: - نعم..

- هذا أنا من المجموعة، خُذ الحيطة والحذر، اعتقالات عشوائية في القرية و.

- أكمل ما عندك جمدت الدم برأسي.. ماذا؟؟

- قريبك «عباس الصيري» داهموا منزله واعتقلوه منذ قليل.

- أنت متأكد؟

- هذا أكيد للأسف، مع السلامة.

أقفل سماعة الهاتف، حرك خزانة الملابس وكشف كوةً تم تمويهها جيداً أسفل الأرض، لحظة واحدة وتوارى عن الأنظار في جوف الكوة، فليبحث هؤلاء الأوغاد، لن يجدوا إلا الغبار في أيديهم القذرة.

الفصل الثالث

هجوم آخر لنوبة الربو يستهدف أختي «كلثم» التي تشنج وجهها وشرعت تعتفر كالطير المذبوح أمامنا، فصرخت في أمي تطلب العون.

الوقت يمر وأنا أحاول تشغيل محرك السيارة المتهالك وأمي تستعجلني وسط جو التوتر يرتفع في قمة رأسي، أرجو الستر من الله وأحاول ثم أنجح مع هذا المحرك المتعب، أصدر خرخرة متقطعة واستقر صوته فمضيت إلى أمي.

«كلثم» تنتفض وقد جحظت بعينين يلوح فيهما الموت الوشيك، ضربنا القلق وأكلنا الخوف من أن نفقدها.

لن نفقدها.. كأنما كنت أتحدى القدر المترصد في مراهنتي هذه وأنا أستنفر عزم محرك السيارة، مسألة حياة أو موت، ولست هنا أتقبل بهذه السهولة خسارة «كلثم» متحشرجة الأنفاس أرشقها بنظرات سريعة وأرغب في الوصول بأسرع ما يمكن، لكنما أمامي شوارع مكتظة بالمتظاهرين وحواجز الإطارات المشتعلة.

لا أدري كيف تمكنت من تجاوز كل هذه المعوقات، أسعفنا القدر بفرصة أخرى وسط هذه الظلمة التي تزحف إلينا، شيء أكبر من قدرتي على الاستيعاب، طامة كبرى تحيق بنا وتحاصرنا نيرانها. ما أستطيع الساعة تمييز شيء، كل ما هو أمامي مقلوب أو أني هنا مقلوب الإحساس، اختلطت عليّ الأمور.

في كل مرة تعاودها نوبة الربو، تكون أقسى من أي مرة، وها أنا في بهو المستشفى مشتت النظرات أبحث عن كرسي مدولب لا أبصر أمامي إلا الخوف والقلق على أختي. كل ثانية لها حسابها في رئة محتقنة قد تتوقف فجأة، مسكينة يا «كلثم».

اللعنة.. لا أجد كرسياً شاغراً هذه اللحظة وأنا أتنقل من مكان إلى آخر، حتى ظننتُ أني لن أجد شيئاً لولا هذا الرجل الطيب، تنازل عن طيب خاطر ورفع ابنه الصغير عن الكرسي وأعطانا إياه، فشكرته وأسرعت نحو السيارة حتى أتدارك الوقت الهارب مني.

وهذه المرة كُتبت لها النجاة.

ابتسامة راضية من أمي وهي قرب «كلثم» في حالة خدرٍ شديد تتنفس ببطء من قناع الأوكسجين.

ساعة أو ساعتين في وحدة الإقامة القصيرة وتتحسن، هكذا تعودنا وهكذا نعرف تحول الخوف إلى طمأنينة.. يا الله، أكاد أتفتت تعباً فوق المقعد البلاستيكي لصالة الانتظار، الآن فقط أسترد هدوء أنفاسي حيث زالت غيوم القلق. ستتعافى «كلثم» وتعود إلى البيت، إنها قوية تتحمل وتصبر وتنتصر. نعم فهذا ما أتمناه الآن، وتتناهى إلى سمعي جوقة أصواتهم الغضة في تلك الغرفة المتواضعة، وأنتِ ترددين معهم الآيات المباركة والنور المنتشر الذي يعطر مساءات بيتنا. كل طفل وطفلة تلهج بذكر الله تحت رقابتك الحنونة والمصاحف الصغيرة تهتز بين أناملهم القزمية والحناجر يرتفع بها حماس الإيقاع الروحي وأنا أراقبك وأراقبهم من «حوش» البيت.

«كلثم» تتبع تفاصيل الأطفال حولها، تستمتع بسماع حكاياتهم الصغيرة وتضحك على المشاكسات التي تنشأ فيما بينهم، كأنها تنظر إليهم فراخاً ضئيلة بجانبها يلهون بكل عفوية وبراءة.

أتذكر الآن.. يوم زار بيتنا رجلٌ غريب، رجل جاءنا هكذا بلا مقدمات وطلب الزواج من «كلثم» حيث عرفنا بنفسه ومكانته وعمله وأنه يعرف والدنا

المرحوم من سنوات طويلة!

أخبرنا أنه عرف أن في بيتنا فتاة على وجه الزواج، هكذا أخبره شخص ما طلب عدم الكشف عن اسمه؟!

لقد كان رجلاً بديناً، ترهلت بطنه المكورة من تحت ثوبه، كان كثير التدخين شبيهاً بمدخنة بشرية متنقلة تكتم أنفاس من يجاورها. لم أستلطفه ولم أكرهه وتوجست من هيئته وقد داخلني شعور بالقلق على هذه المسكينة الصابرة، لربما تتساق إليه طواعيةً خوفاً من شبح العنوسة وأرق الليالي الكابوسية وفضول النسوة وتساؤلاتهن في الحي، تهرب من كل ذلك إلى هذا الرجل بلا اكتراث ترمي بنفسها في حضن هذه الفرصة لتوقف انتظارها الطويل ونزيف جروحها الصامتة.

أسبوع كامل أكثر مما هو مطلوب والقرار لها وحدها.. أتذكر أني حاولت منعها وأنا واقع تحت هاجسي الداخلي الذي يحذرني من الرجل، لا أدري كيف؟! هذه الهواجس أحياناً مثل جرس الإنذار المبكر الذي يخبرنا بغوامض الأشياء دونما مبرر نلمسه في ذات اللحظة، لكنه يحذرنا فقط، ومر علينا هذا الأسبوع الثقيل وإذا بالغريب يحل علينا بظله الثقيل ورائحة سيكارته التي تسبقه من على الباب حيث سيارته الفارهة، الأرجح أنه يريد فرض حضوره الباهر المزين ببريق الثروة.

توقعت في ذلك اليوم أن تفاجئنا «كلثم» فالأسبوع الفائت فشلت كل محاولاتنا في معرفة صوتها المسموع وهي تفكر، دخلت قوقعتها بصمت وأحكمت حولها أستار الهدوء، كانت ساهمة مع أكواب الشاي مبحرةً في عوالم أخرى لا نعرفها، ولو أني أزعم لنفسي بأني اهتديت إلى دخول هذه العوالم وقرأت النتيجة.

«كلثم» تعي مصلحتها وتعرف أين توجه خطواتها، هذا ما كنت متأكداً بشأنه ولم تخذلني في هذا، الرجل حمل خيبته ولم يناقش سبب الرفض، الأمر بمثابة الصدمة التي تأتي بلا مقدمات!!

عشرون دقيقة فقط هي كل المدة التي جلس فيها الرجل في بيتنا، ثم غادرنا إلى غير رجعة. ربما نبرتها الواثقة هي التي تخبره، أنها ترغب في الاقتران برجل يتفق معها بدنياً وتفضله مقارباً لعمرها حتى لو لم يكن ثرياً.

«كلثم» قالت يومها ما أحسَت به وأزاحت عن روحها ثقل ذلك اليوم، أخبرتني بعدها أنها ما تصورت أن تُقحمها الحياة مع رجل مدخن يصبح زوجها، حيث ارتابت منه وعلى ما يبدو، نسي الرجل دبلة الزواج التي تلتصق بإصبعه كشاهد دامغ على زواجه، كان يضعها في زيارته الأولى لكنه هذه المرة خلعها؟!

أمور عدة جعلتها تخاف منه وتشك في نواياه، ففضلت للحيطة ترك الحذر وحسم الموضوع بأسرع ما يمكن.

وأنا على مقعدي البلاستيكي مررت بكل هذا، رتبت كل هذه الصور محاولاً قهر مخاوفي ويقيني أن «كلثم» برقتها وصفاء نفسها تستطيع بلا شك أن تعبر تجاربها بصمود.

كنت أراقبها وهي شبه جثةٍ هامدة هناك، أراقبها وأبحث في داخلي عن ذكريات حلوة جمعتنا، ليتني أستطيع تقديم ما هو أفضل لها، أشحت ببصري وأخذت أراقب صالة الانتظار وأقرأ الساعة.

الوقت ثقيل لا يمر، رائحة التعقيم المستعملة في المستشفى صدعت رأسي، نهضت عن المقعد وخرجت أتنفس بعض الهواء النقي في حديقة المستشفى.

كانت تأتيني أصوات إطلاقات الرصاص المطاطي من مكان قريب، المظاهرات في كل شبر من أرضنا المشتعلة وهي تحاول أن تسترجع حقوقها الدستورية والإنسانية. «كلثم» وهي طريحة فراش المرض تشبه البلد المختنقة بمصابها.

سنوات مرت والشرطة لا تزال تقتحم تفاصيل أيامنا وتصادر أحلامنا وتصدر أوامرها وتحذيراتها بعدم الإساءة إلى هيبة الحكومة وقدسية الرئيس المنزه عن كل زلل!

تحوطه أساطير الشجاعة والبطولة وأوسمة الحروب والفخار، طبعاً لا

يمكن لنا أن نطعن في نظافته وخوفه على مصلحة البلد. نحن الذين نمارس العنف ونوصف بالمخربين الجهلة، نضرب استقرار البلد لكوننا نطالب بالحق؟!

لا عجب أن هذه الأصوات تتكرر في غضبها المتفجر وهي تقاوم الظلم، سياط الجلاد فقدت هيبتها في النفوس يا رئيسنا المبجل!

لا مناص لنا من تجرع الألم.

اليد التي تغوص في الجمر لابد تصرخ في فورة العذاب، مثقفو السلطة يتجاهلون مطالب الشعب ويهرولون خلف دسم الحكومة وجوائزها، يكتبون صفحات النفاق السياسي والتطبيل الزائف.

لا أعتقد أنهم يحسنون ترجمة ما يسمعونه اللحظة.

أصوات الرصاص المطاطي في عرفهم، همسات حب أبوي من سلطتنا الموقرة التي تردع غضبنا المنفلت حتى نثوب إلى رشدنا؟!

عندهم تفسير لكل شيء ما داموا يقتاتون من دولارات السلطة وكوبونات الزيت السرية.

يستمرون في توسيخ أنفسهم ويفقأون عين الحقيقة التي تختنق بدواخلهم فكل شيء في جمهوريتنا على ما يرام.

أي هراءٍ هذا.. هم أول من يعرف سطحية وهزال ما ينشرونه في جرائد الثرثرة والنفاق. ما يكتبونه يُداس تحت الأقدام ويُحرق في المزابل، هؤلاء لا يعرفون المعارك الحقيقية، إنهم أبطال ورقيون فحسب.

إيه يا وطني المسجون..

هذه الأرض والسماء تضيق بنا في هذا الجحيم، روائح الغاز المسيل للدموع الذي تدعي وزارة الداخلية أنه رحيم بالناس أصبح يفتك بوداعة طيور الحمام، تتساقط من سعف النخيل، بعض النسوة الحوامل أسقطن حملهن لمجرد سريانه في أجسامهن، الرائحة المؤذية لا تُحتمل فعدتُ أدراجي ثانية إلى صالة الانتظار، منتظراً فرج هذا اليوم.

الفصل الرابع

حتى لو اكفهر الجو حراً أو برداً، فقهوة «أبو فخري» مشرعةً نوافذها تستقبل الطيور المسائية في استراحة ود تتفيأ الهدوء والأحاديث وتسهر مع الدخان والشاي والقهوة وأخبار الوضع العام في البلد.

المكان مليء بالأحاديث الجانبية.

ضحك «أبو فخري» هذا البدين الخمسيني صاحب الأنف المعقوف وهو يشير إلى شاشة التلفزيون:

ـ هؤلاء الكذابون يسعون إلى تكذيب أخبار البلد، ما أتفههم.

رد «أبو جواد» وهو يشعل سيكارته قائلاً:

ـ المعارضة في «لندن» تشتغل مثل الساعة، ومن سيصدق أكاذيبهم، وضع البلد متدهور ووكالات الأنباء تفضح ما يفعلون، حكومة (...) المعارضة لن تسكت وستستمر ما رأيك يا جابر؟

وكأنه يتكور «جابر الشمالي» يتكور خوفاً في مقعده وقد ترك كوب الشاي على طاولته، في فترة سابقة تعرض للاعتقال عندما أتهم في قضية اختلاس، كاد يخسر وظيفته الحكومية، لكنه بُرئ في النهاية في قضية «214» التي تعرفها القرية.. تردد قليلاً قبل أن يتكلم في شيء من التحفظ والقلق وهو يبحلق خارج القهوة..

ـ لا تحاولوا جري للسياسة أنا...أأ..أنا لا أتحدث في السياسة.

رد «أبو جواد» وهو يهز رأسه:

- الحذر لا يمنع القدر والحكومة تستطيع أن تعتقل من تشاء وفي أي وقت وأنت تعرف هذا.. إلى متى يا أخي تعيش في هذا الخوف المذل.

فقال جابر الشمالي بنبرة ملؤها الإحباط:

- جئت هنا كي أنسى بعض همومي وإذا أنتم تزيدون الطين بلة.

في هذه الأثناء دخل إلى القهوة الهندي «مشكور» ونزل عن دراجته القديمة المزودة بصندوق خشبي حائل اللون. كانت علامات التعب واضحة عليه وجبهته تقطر عرقاً وقد بدا واضحاً قميصه الأزرق بالياً، غير أنه يبتسم ويعرض «السمبوسة» التي يحضرها ويُقبل عليها رواد القهوة مثل كل المساءات الماضية. لا أحد يعرف كيف ومتى أتى؟ «مشكور» كما هو، مجرد غريب مطحون يستحق الشفقة.

أحياناً يكلفه «أبو فخري» بتنظيف سيارته الأمريكية «الدودج» القديمة لقاء مبلغ من المال.

ها هو هنا يجلس في جو القهوة، يعرفه حتى الأطفال في الأزقة والأحياء الداخلية للقرية، ومن لا يعرف «مشكور» يتجول هنا وهناك بقامته الطويلة وبشرته السمراء، يبيع السمبوسة الحارة بطعم الكاري الهندي.

اشتريت منه بعضاً من هذه الأكلة اللذيذة، كنت قد تذكرت أختي «كلثم» التي تحب سمبوسة مشكور وتوصيني بضرورة عدم تفويتها.

قاربت الساعة العاشرة مساءً وحان موعد انصرافي، القهوة لم تعد تطاق لكثرة دخان السكائر.

تذوقت هذه السمبوسة أُسكت بعض ضجيج معدتي الجائعة وقلت له:

- لذيذة مثل كل مرة، أكيد ترتل عليها بعض التعاويذ السحرية الهندية وهي تنضج في زيت المقلاة! ربما صرنا هنوداً لكثرة أكلها؟

ضج الجميع ضحكاً، ما توقعت أن أثير خلفي كل هذا المرح، حيث «مشكور» أخذ يضحك ولا أدري إن كان قد فهم نصف كلامي أم لا.

غادرت القهوة، لا تزال تتسرب أضواؤها عند زاوية الشارع بلافتة عتيقة خطها تقشر طلائه، لكنها معروفة للجميع، غادرت وأنا أُصفر بإيقاع موسيقي محبب إلى قلبي، أتسلى به لطرد وحدة الطريق الهادئة.

إلا أن بيت «المختار» مزين بالأضواء الملونة احتفالاً بُختان «جعفر» ولد المختار الذي أنجبته الزوجة الثالثة. روائح قدور اللحم المطبوخ تفوح بقاياها وأُناس غرباء عن القرية أكلوا وشبعوا وباركوا للمختار حمدان هذا الحدث السعيد.

بادرت أحث الخطى سريعاً محاولاً الوصول بأسرع وقت للهرب من الحر وحتى لا تقلق أمي من تأخيري، خصوصاً وأنها سلمتني زعامة البيت من بعد مرور عام على وفاة أبي، تقول لي دائماً.. إني رجل البيت وعليّ أن أراعي مسؤولياتي.

وبينما أنا غارق في أفكاري، غارق في مساحة الزقاق قريباً من بيت المختار والمسجد.. تبدت أمامي بعباءة سوداء، جفلت منها وبسملت، داخلني بعض الخوف وأنا أواصل البسملة. التفت إليها جيداً، «مريم»!!

مرة أخرى عروقي المنتفضة ونفسي يروح ويجيء في غمرة النشوة يرقص مثل قلبي أراه في خضرة الجنة، عرساً صاخباً.

مرت ثلاثة أشهر، وما ماتت الذكرى، ما خبا هذا التوقد الخفي المحتفي بداخلي. أرقب عينيها الجميلتين وأود أن أمتدح هذه القامة المعتدلة والوجه الصبوح الهادئ يرشقني بالخيرات.

«مريم» وتخفض عينيها حياءً وبيننا حاجز المسافة الوهمية من العيب والحياء تكبل انطلاقة ما يحتبس في النفس.

لكني مشدود الوثاق إلى الأرض مسجون الحلم.

سطوة الصمت تأكل لساني، أراني قد أخفق في تحرير بعض الكلمات من تردد لساني، أمامي فتاة حلوة تنتظر!

أراها قلقة العينين كأنما تقول.. «أنا ابنة أناس أجاويد شريفة لكنني

مضطرة، أريد أن أراك».

ياه، مثل ملاك يتهادى على جدب أرضي، تخشب لساني وغابت كلماتي و.. لا ، سأتكلم.

- مريم، أنت مريم صح؟

- تتفقد الزقاق بشيء من القلق والتوجس ثم تكلمت بخجل وتحفظ:

- الحمد لله أنك لا تزال تتذكرني منذ لقائنا في الزقاق آخر مرة.

بعض الجلبة في الجوار، على الأرجح شباب ملثمون يكتبون على الجدران الشعارات السياسية في مثل هذا الوقت، متخفين عن أعين دوريات الشرطة التي تتفقد الشارع العام وتعتقل كل من تصادفه في هذه الساعة، واللحظة أنا..

أنا هنا أضحيت وحيداً في مسرب الزقاق، اختفت «مريم» وخلفت وراءها ورقة يتيمة مطوية على عجل!

***

يضرب محمد الأسمر بمطرقته الجدار الطيني فتتهاوى حجارته وتتصاعد الأتربة من البيت الطيني المهجور.

كان «أبو فخري» قد اشتراه مؤخراً وكلف محمداً بمهمة هدمه.

انقضى نصف النهار وما زال وحده هنا يهدم جدران هذا البيت، قد نضج حراً وتعباً فقرر أن يستريح بعض الوقت.

لا يبدو «أبو فخري» في عجلة من أمره، هدم البيت يسير ببطء وراحة قصيرة لن تضر.

هجير الصيف ينهك البدن، محمد يكاد يسقط من شدة الإعياء، هو يُتعب نفسه هكذا لقاء حفنة دنانير!

حياة قاسية متعبة، فرفص في استراحة الظل وأخذ يقلب أحواله البائسة.. كيف يقبل بهذه الحياة؟

مثل البغل يكدح صبح مساء، أيدي الناس كأنما تتصدق عليه، مجرد بنّاء بائس.كان يعتقد أن انضمامه إلى جماعة «أبو جواد» سيغير شيئاً من واقعه المرير، معاداة السلطة لا طائل من ورائها غير المغامرة الخاسرة ولا عزاء له اللحظة، يجد نفسه منتكساً في الفشل.

وراح فكره يصرخ.. إلى متى أصبر على زوجة تُنكد عيشتي بكثرة مطالبها؟ وأطفالي الجوعى، عفاريت متوحشة لا تكف عن الطحن!

حياتي مطحونة معهم، اللعنة على هكذا حياة مقيتة.

فتح حقيبته وشرع يأكل بلا رغبة وأفكاره ترتفع وتنخفض به في فيافي يأسه لا يهتدي إلى مكان.

ترك ما حوله وقام يتجول في حجرات البيت ولا تزال مصائبه تُلح عليه وأصبح يكره نفسه. اليوم بالذات يشعر بالضيق ويريد الآن تفريغ غضبه المتراكم، سينفجر، سينفجر.. رفع صخرة كبيرة فوق مستوى رأسه بيديه العاريتين ورماها على صندوق خشبي يقبع في أحد الزوايا.

وتحطم الصندوق ودلق ما بأحشائه.

مفاجأة غير متوقعة وغريبة، بعض المنشورات الورقية وعبوات رش بألوان مختلفة.

إنهم أشباح الليل، كُتّاب الشعارات، المحرضون.. وماذا سيجنون من كل ما يفعلون؟ يُسقطون الحكومة.. يحلمون، أكيد يحلمون؟

أخذ يضحك، عالياً يضحك متذكراً حماسته الحمقاء في الانضمام إلى جماعة «أبو جواد». شرع يحلق في الصندوق ثم قرر أن يفعلها، حتماً ستتغير الأحوال وهذه هي الفرصة الأقرب، مهما كان ثمن المغامرة فالفرصة يجب أن لا تضيع!

الفصل الخامس

هز الملا عيسى رأسه آسفاً وحك صلعته التي يتوزع على سطحها اللامع شيب السنين فقال:

- يا أم عباس للمرة الرابعة أقول لك ألا حيلة لي في هذا الموضوع يعني لو كان عباس مريضاً لا سمح الله، لكنت عملت له «قرطاسة» تشفيه لكن..

متوارية بعباءتها تتنحى ركناً من الحجرة وعلى وجهها الذي تغطيه «الغشواية» علامات حزن وخوف قالت:

- الله يخليك ملا عيسى، كلم المختار حتى تفرج عنه الحكومة، أكيد المختار يقدر يتوسط عند الحكومة، قلبي يشتعل ناراً على ولدي أنت لا تدري.

- السياسة الملعونة التي تأكل عقول الشباب و..

- ولدي مسكين أخذوه من البيت بلا جرم، عن أي سياسة تتكلم.

- أبشري بالخير يا أم عباس، سأتصرف.

لملمت بعضها بهدوء وأغلقت خلفها الباب واستقبلها الطريق.

فدخلت «رباب» ابنة الملا وفي بالها سؤال مُلح، صمتت قليلاً ثم تساءلت وهي تترك صينية الشاي:

- هذه المرأة من قريتنا أبي؟

- لم تسألين، أنت تعرفين أن أغلب نساء الديرة يأتين إليّ، هذه لا تحبل

وهذه زوجها يهجر الفراش وتلك لا أعرف ماذا؟ وهذا هو الحال.

ـ أصبحنا نخاف منك يا أبي!

ـ يهديك الله بس، ما هذا الكلام، عندي شغل كثير اذهبي هيا.

غادرت المكان فاسترد أنفاسه وقام فأقفل باب حجرته. تفقد الباب جيداً، الوضع آمن كما ينبغي، رفع سماعة الهاتف أدار رقماً مكتوباً في ورقة مصفرة وانتظر بعض الوقت..

ـ ها أنت، هه تكلم، ما هي الأخبار؟

ـ أعطني مهلة مرة أخرى.

ـ أسبوعين، حرام عليك والله، أنا أخاف أن يتقدم «لأم قاسم» رجل آخر فيتزوجها، تصرف قبل فوات الأوان وكلمها في الموضوع، أحدهم يطرق الباب، مع السلامة مع السلامة، يا غبي أكلمك في وقت لاحق.

سأل الملا عن الطارق وشرع يسبل عينيه ويسبح بمسبحته الحمراء الكبيرة مكتسياً بهالة من الطهارة الروحية والخشوع، هكذا تعرفه الناس.

الطريق الترابية العارية وسط قامات النخيل النائم في جوف الليل، تستقبل في سكون ، عينين ضوئتين تقتحمان العتمة المتكاثفة ببطء، تسير متوغلة في الدغل الغامض ثم تتوقف فجأة وتذوب في الصمت ما عدا الأضواء بقيت مشتعلة، كما سيكارة الشبح تتوقد جمرتها في الظلام.

لحظات صمت وسكون يختبئ في عباءة الليل أعقبه ضوء مسلط من الجهة الغربية وراء جذوع النخيل يومض وينطفئ!

شبح آخر يؤكد وجوده ويقترب من أضواء السيارة ثم تكلم:

ـ أنت حكروش، حسين الحكروش صح؟

ـ وأنت قاسم أو أنا غلطان.

ـ لقد تأخرت عليّ كثيراً، حتى صدقت أن عفاريت خرابة منصور ستخرج وتأكلني.

ـ ألا تعرف أن الشرطة هذه الأيام صارت مجنونة، المهم أني وصلت

وستكون السهرة حلوة، حلوة يا عسل.

دخل العشة وهناك أضاء المكان، فاحتفل الضوء على وجوه الأشباح وتبين أمامه صديقه حسين الحكروش يحتضن فتاتين حلوتين وسيكارته تتأرجح بين شفتيه، يؤكد أنها بضاعة مضمونة وصلت من العاصمة والسهرة مجانية.

أطلق ضحكة هازئة ورمى بسيكارته وقال:

ـ سمعت عنك، اشتهيت بقرة في زريبة الحاج مبروك، مو عيب عليك يا بهيم، الخير موجود!

ـ أنا، أأنا..

ـ أنت تسمع الكلام وتفتح صندوق السيارة، هات الكارتون الأخضر.

أنزله داخل العشة وفوجئ بمحتوياته وتركه وقال:

ـ لا أنا لا أشرب هذا المنكر.

ـ قاسم أعرفك رجلاً لا يخاف، هذه «مزمزة» بسيطة لزوم السهرة يا حبيبي وإلا سألغي الزيارة وأنت الخسران والله يهنيك بنعيم الزريبة.

وفارت الرغوة واشتعلت الشهوة.

ليلة أُنس صافية لا تعرف الملل، تترقب النخيل أضواء العشة، يترقب «قاسم» رقص المومس المغري مشحوناً بفوضى الارتعاش واللذة، تتعرى حتى الثمالة.

الصباح ينبلج فوق سماء القرية. هدوؤها غريب وغارق في لجة بقايا العتمة تنسحب عن أسطح البيوت والشوارع التي اغتسلت بندى السماء. فجأة انتفض «قاسم» جاحظ العينين وكان يلهث ويتلفت حوله كأن العفاريت تطارده وصوته مرتبك يحاول إيقاظ حسين الحكروش الذي بالكاد يفتح عينيه، مترنحاً من سكرة البارحة.

وقاسم يصيح خائفاً يعلن، سيارة الشرطة دخلت الخرابة.

***

سُحب خفيفة من الدخان تصعد نحو سماء مظلمة، خطوات تذرع الدرب الحصباء وهذا الأفق المفتوح أمواج تتلاطم. كيف تهتدي الخطوات وإلى أين في الأرض الغريبة؟

سكونها الموحش يوقظ الخوف، رجل ما يطلع من بطن المجهول! يقتفي خطواتها المتعبة الحائرة.. ترتبك، تركض، تحاول الاختباء عنه فتجده منتصب الطول وفي يده منجل.

- ماذا يريد أن يفعل؟

أكلها الخوف والترقب والاستسلام إلى نصل المنجل لكن.. تطلعت إلى وجهه، ليس له وجه وهذا ثوبه كتلة من البياض المشعشع زكي الرائحة.

انحنى الرجل وترك عند جسدها المرتعش صندوقاً؟! اختفى بعيداً فجأة، مدت يدها نحو الصندوق، لا تصل..! فقط تنهب الفراغ الفاصل واللاشيء والصندوق فجأة يحترق؟! فيسيطر عليها الفزع، تصرخ «كلثم» في توحد غرفتها.

تشكر الله تعالى أن صرختها لم توقظ البيت، تلوذ بالصمت، تغيب في تفاصيل المنام، تبحث عن تفسير.

تستشعر جفاف حلقها، يتفاقم وكأن الخطوات التائهة ما زالت تأخذها في دهاليز الحلم، قفزت عن أسواره ولم تقفز من سطوته، الرجل المكتسي بالبياض لكأنما هو حاضر، مختبئاً خلف شماعة الملابس النائمة يترصدها وهذا الأرق الآن لا يفارقها، تقرفص فوق سريرها مجبرة على استرداد صورة الماضي، أطيافاً مثل الحلم تتشكل كحلقات الدخان ينجلي عن روعة المشهد.

تهز رأسها محاولة قمع ذكرياتها قابعة في وجه الفشل، ستهرب دون شك وستدور بها الدنيا غارقة في جوف دوامة جحيمية لا يفتر عذابها.

عذاب لحظات الصدمة، مباغتة التوقيت هزت كيانها.

الكلمات نصال مسمومة وإن بدا محاولاً تخفيف أثرها بابتسامات

باهتة، في ذاك المساء معجونة بقلقه وتردده الواضح حين قال:

- كلثم، بقي لي هنا ثمانية أيام فقط.

- لكنك متردد في فكرة السفر وقلت أنها مبدئية و..

سكت لحظات وهو يعبث بفنجان الشاي مطأطئ الرأس وقد حار جوابه فبادرته بالقول:

- «علي» سكوتك يستفزني، أعصابي لا تتحمل، إن كانت امرأة عمي لا تزال تعارض ارتباطنا..

- أمي لا تحملي همها وأستطيع وضعها أمام الأمر الواقع، لكن هناك سبباً آخر.

تطلع إلى تساؤلات عينيها تحتشد بترقب متصاعد يعبث فيهما الخوف، فأشفق عليها وقال:

- البعثة أصبحت مؤكدة، سأسافر إلى «لندن» وأرجوك لا تغرقي نفسك في الانتظار لأجلي.

- تتخلى عني بهذه البساطة علي، تهدم كل ما بنيناه.

- هذه السفرة طوق النجاة الذي أنتظره، لا أريد أن أكون نسخة مكررة من أخي الأكبر، يطحن حياته هنا كأنه عامل سُخرة ينتظره جيش من الأطفال طلباً للطعام وتنتظره زوجة تريد وتريد وينتظره جلاد متوحش ولازم أسافر فأنا..

- أنت أناني، نعم أنت كذلك.

يضحك بمرارة ويستطرد:

- ولِمَ لا تقولين واقعيٌّ لا يريد أن يطحن عمره هنا عبثاً، ألا ترين الوضع السياسي للبلد؟

وقت للخراب القادم يترصدنا ألا تشعرين؟!

- هذا آخر كلام عندك يا واقعي يا صاحب نظرية الخراب.

- إنه الوضع العام، أريد أن أبتعد، أهرب، لا فرق عندي.

وحل صمت مقيت ارتفعت أمواجه وكونت بحراً من العزلة، فهو هناك خلف الأفق للعام الثاني على التوالي يخترق ضباب «اللندن» وحيداً يعشعش في ذاكرة وجعها، تسامحه حيناً وتعاتبه حيناً آخر ويتآكلها اليأس والخراب بحيرتها التي باتت مهجورة من الفرح.

في الحجرة التي تضج بهذا السكون الآثم البارد، لا تزال مقرفصة تحدق بالفراغ يحاصرها.

ألم يكن «علي» رفيق مرابع الطفولة والصبا؟

يا لشهقة الحزن تجوس في النفس، تخنق رفيف الحلم الذي كان. كان يأخذها إلى بساتين النخيل يجمع في طرف ثوبه بعض اللوز والكنار، حتى لو تسلق علو الأشجار وانزرع الشوك في كفيه الغضتين، لا يبالي ولا يهتم، باسم الوجه يستظل معها استراحة تلك الصباحات الأنيسة التي لا تنسى.

نهضت عن سريرها بعدما ملت الحالة التي ترددت فيها، آن لها أن تنفض غبار الهزيمة، تستطيع الآن أن تفعل ما هو أجدى من البكاء على أطلال الوهم!

أهو حقاً وهم؟!

هذا مُحال، «علي» لايزال ينبض قلبه بالحب، علي مثل الذهب يستحيل أن يتغير في عواصف القدر؟!!

ويهمها الآن أن تعرف أخباره، متى يتخرج؟

متى يعود؟

أما آن للشمل أن يلتم؟ ربما تبرأ الجراح ويعود القلب إلى اخضراره وصباه.

باتت مشحونة بهذا الفيض الساحر المدغدغ فأسرعت كطفلة إلى.. إلى دفتر مذكراتها المهجور. احتضنته بين ذراعيها وتعرف أين تخبئ الصورة؟

نظراته الرجولية الواثقة.. «علي» زينة شباب القرية والفارس المنتظر.

تحدق فيه منشرحة الصدر، شعرت بنسمات من الصفاء تهبط إلى

اختناقات ظمئها ، وها ستقطع مسافات من الطمأنينة، تحتضن الصورة وتحلم! أطياف الحلم تستحم فوق بياض الصفحات، والدفتر ينتظر، فكتبت:

- إنه يوم الاثنين 17 أكتوبر من عام 1995م، يجافيني النوم وأنت السبب.

لست غاضبة منك رغم أنك.. وماذا أقول عن الماضي؟؟

هل تصدق أني اللحظة لا أقدر على طردك من ذاكرتي. صحيح نجحت في تجميد طيفك على أطراف ذاكرتي ونسيتك بعض الوقت وكنت تخطر على بالي وتصورت بأني سأنجح في دفن توقد جمر روحي واشتياقي إليك ولكن.. أوقن اليوم أكثر من أي وقت مضى، أني لا أزال أحبك وأني ديباجتك الحريرية التي ستختارها ، تعال فأنا أنتظرك، أنتظرك في صحوي وأحلامي.

الفصل السادس

يصطدم البصر بهذه الأسوار، تخنق كل شيء وهذه الأسلاك الشائكة والنواطير التي تحرس الليل، وطأته لم تخف وما تلطفت على بقايا الهياكل القابعة بين عفونة الجدران، يا لهذا العنبر المكتظ بالروائح والعذاب.

أحسبه طويلاً يتغلغل مفعوله في أمداء الروح.. وهل يجدي الدعاء نفعاً؟

«جعفر» المسكين يتهجد بصوته الخافت، يتوارى في الظلمة ويرفع كفيه في حماسة محمومة، بالله عليك ماذا سيفعل؟

كان وجهه بالكاد يظهر في شحيح الضوء المتسرب من النافذة الحديدية، ثم واصل «عباس» كلامه وقال:

- أنا لست يائساً من كل هذا، لكن «جعفر» قابع هنا مثلنا أو ترى أن دعاءه سيفلق جدار السجن ويبيد هؤلاء الأنجاس؟!

- عباس، لا تنسى أن الدعاء سلاح المؤمن، خلي إيمانك بالله قوياً لا تكن رخواً هكذا.

- لست أطالبهم بشيء ولم أذنب، أخذوني من البيت ولم أعرف ما هي تهمتي؟

- نم يا أخي حتى لا تزعج الحكومة الرشيدة، هيا نم قبل أن..

تثاءب متعباً وغرق في الصمت بين الرؤوس الساكنة والأنفاس. وجعفر لم يتجاوز ربيعه العشرين، نام أخيراً، المسكين تم ضبطه يوزع منشورات

سياسية تنتقد الحكومة.

أنت لم تنتقد أحداً ولم تسب أو تخرب.. تتأوه في جو الوحشة غريباً ترفع فوق ظهرك حملاً ثقيلاً تنوء به، فما أقسى حياة السجن، وهذه بادرة الشرف الأول لحضرتك!!

تراقب الجدران متوحشة صلدة فيرتد بصرك خائباً ولم تعد ترى البحر مصطخب الموج يشاكس سعادة الأيام الماضية.. ليس أمامك إلا التحاف الظلمة مثلهم، نياماً في سخونة العنبر رقم ثلاثين. أصبحت تكره هذا الرقم تكرهه.. الأفضل أن تنام وتغلق كل فوضى الأفكار المتصارعة.

***

انعجنت ملامح وجهه بضحكة متهكمة وقال:

ـ أنا اليوم مختار بالاسم بس، و«الشيخ» قلب البلد فوق تحت، ماذا تريد مني ملا عيسى؟

ـ أم عباس تريدك أن تتدخل، ولدها محبوس.

ـ كل من يمشي وراء «الشيخ» يستاهل، الحكومة لا تلعب، نسيت هبة ذلك العام، الحكومة عطلت البرلمان وقامت الدنيا وقعدت لكنهم فرضوا ما أرادوه وبالقوة، صدقني لن يتغير شيء!

مستعجب من كلامي هه، ألا ترى ما يحصل؟ ألا تدري أن الحكومة استغنت عني، صرت مختاراً سابقاً، شيبت وانتهيت، أم عباس ما لها إلا المحامي فيصل، ابن القرية، يمكن عنده حل.

ضيق عينيه ملا عيسى ومسح لحيته التي فقدت لونها وبان شيبها مختلطاً بالصبغة الرديئة التي يستعملها وبقي ساكتاً. فإذا بالمختار ينتفض فجأة ويصوب عصاه إلى حلق الملا وهو يهدد..

ـ لكن إياك أن تخبر أحداً بما سمعت، هل تفهم؟ لازم الديرة تخافني وتحسب لي ألف حساب، ثم ماذا يعني «عباس» هذا؟ نصف البلد مسجون،

هيا قُم انتهت الزيارة.

لملم نفسه ملا عيسى في شيء من الارتباك والخوف من سطوة الرجل وهو يخفض بصره نحو الأرض ويقول:

ـ أحسنت يا مختارنا، رحم الله والديك.

غادر هذا الآخر، ضحك المختار وكان متأكداً أن الملا صدق كل شيء؟!

***

قرية «حداحيد» يسكنها الخوف ويعشعش فيها الترقب، ليلة البارحة أحرق ثلاثة أشباح ملثمين بيت الهندي «مشكور» وسرت شائعة تقول إنه شوهد في سوق القرية يتكلم مع أفراد الشرطة، نعم الشرطة أصبحت تعتقل حتى الأطفال، هه ستقبل علينا أيام سوداء لا يعلمها إلا الله.

ثم سكت «أبو فخري» وأشعل سيكارةً وأخذ منها نفساً طويلاً واستطرد يقول في تؤدة وهدوء:

ـ أسفي على هؤلاء الشباب، مساكين يتذوقون ضيم السجون وهم في أعمار الورد، ما بال الحكومة متوحشة هكذا تريد أن تخنق كل الناس؟!

أخذت رشفة سريعة من كوب الشاي خاصتي وقلت:

ـ في اعتقادي أن الهندي «مشكور» مسكين لا حول له ولا قوة.

الحكومة ترفض تطبيق الدستور وكل القلاقل الداخلية التي حصلت تتسبب في إحراجها سياسياً فكيف لا تستشرس في استنفارها البوليسي؟

وإذ به «سعيد» الجالس بقرب «أبو جواد» يلتفت ويبدو عليه الجدية والاهتمام فقال:

ـ نعم الحكومة متوحشة، لقد استرجل «جلال» ابن محمد الأسمر وقام فأحرق العلم في المدرسة صباح اليوم!

كنت أضرب كفاً بكف وأهز رأسي مستغرباً من تفكير الرجل

والجمع الجالس في قهوة أبو فخري الذي افتتن بهذا الحديث الساذج فقلت:
ـ إحراق العلم غلط، نعم نحن مختلفون مع النظام الحاكم ويتم التضييق على حرياتنا وتصادر إرادتنا كمواطنين، لكن العلم رمز لعشقنا وحبنا لهذا الوطن، الأنظمة تزول والوطن يبقى، حرق العلم جريمة.
ـ عن أي وطن تتحدث، بطالة وفقر و.. أنت حالم كبير ولا تدري عن شيء!
ـ عزيزي سعيد إذاً فأنت تقيس مدى ولائك لوطنك بمقدار ما يعطيك وتتكر فضله وتتنصل منه، فما الفرق إذاً بينك وبين «الأغراب» الذين جندتهم الحكومة في الشرطة لقمع أهل البلد، إنهم مجرد مرتزقة وولاؤهم مشروط بالمال وهم أول من سيهرب حينما تحترق البلد.
وكالملدوغ هب من مقعده «سعيد» يرغي ويزبد.
بعض الجالسين بمن فيهم «أبو جواد» قاموا باحتواء هيجانه وثورته وأنا بقيت هادئاً مكاني وهو يتهدد ويتوعد غاضباً بشدة. قدم إليّ أبو فخري ورجاني بهدوء مغادرة القهوة وحذرني من سعيد، فهو أهوج ولو بقيت في المكان لتطور الوضع للأسوأ.
حاولت أن أشرح لأبو فخري، أني لم أتعمد الإساءة في حق الرجل ولا نية لي وأنني..
قاطعني وكرر طلبه هذه المرة بحزم أكثر، قرأته في صرامة نظراته، فغادرت منصاعاً بغير رضاي، لكي لا يظن هذا المعتوه أني خفت منه، قمت من المكان فأخذت الألسن في القهوة تبلبل بردود أفعالها.
في الطريق حاولت تفسير ما حصل، لا أستطيع.
فكري مشوش الآن، وعلى الأرجح مجرد سوء فهم عابر لن يكون له تطور سلبي، سعيد ابن قرية «حداحيد» ولا يمكن أن يحمل في قلبه حقداً عليّ، غداً تصفو الأمور، هذا ما أراه وأجد أن الموقف لا يحتمل كل هذا الغضب لمجرد وجهة نظر وهو سيدرك ذلك.

وصلت البيت، أويت إلى سريري.

وسادتي معصورة تكاد تلتصق بالفراش، رتبتها استعداداً للنوم، فبانت في وجهي فجأة.. الورقة، ها هي تلك الرجفة تعود إليّ وأتذكر أني لم أتحمس لأرقامها. هذا واضح ولا حاجة لشرح شيء، إنها أرقام هاتف جوال. هل أكلمها وأسكب الآن كل عطشي المؤجل؟

ولِمَ لا أفعلها وأبرد من استعار هذه النار في جوفي، ألا تكفي سلبيتي في المرة الأولى؟!

ستظن أني لست رجلاً بما يكفي كي أبادر بالمغامرة.. أأنا قلت مغامرة؟ سأورط نفسي في متاعب جمة، رجولتي ليست موضع اختبار هنا حتى أقلق وأخاف.

آه يا رأسي، كل هذه الأفكار أقع تحت ضغطها لا ترحمني، طيفها يزور ذاكرتي وما عساه هذا القلب لا يحن إلى نسمة حب؟!

كل علامات التساؤل والتعجب ستحتشد في رأسي الآن وتقوم بالاعتصام ضد ترددي وقد مرّ على الحادثة أسبوع ولم أحرك ساكناً وأتقمص لا مبالاتي الزائفة وأنا أعرف كم هو لذيذ أن تصغي لعزف القلب وتستمع طائعاً وتهرب من سطوة العقل البارد.

آه يا مريم، تشاغبين قلبي المتوحد كفراشة في حضرة النور تعشق الاحتراق. لا تختاري محرقتي ولا تدنين من عوالمي؛ فليس عندي شيء أقدمه إليك! غرفة وحيدة، غلالة حلم بعيد، ومستقبل غامض منتكس في حفرة العطالة التي تنخرني بصمت. أنت تستحقين من هو أفضل ولك حلم أخضر يبحث عن المطر فلا تقربي جفافي.

كنت سأجعد الورقة وأنسف الموضوع من رأسي، لا أدري لِمَ ترددت وعاودت دسها أسفل وسادتي تختبئ في تجاويف قطنها أحلامي الظمأى، أهدهد هزائمها، أحاول أن أنام. أحاول النسيان عل هذه الحرائق من فوق أرصفتي يخبو ألمها.

الفصل السابع

من ينتفض خوفاً لا يلزمنا ، الأحداث تزداد اشتعالاً وهذه الزمرة الظالمة يجب أن تحاسب، أنتم تعرفون أن صلاة الجمعة وراء «الشيخ» أوقفت بعد أن حاصرت قوات الشغب الجامع وأطلقت الأعيرة النارية في الهواء وحصلت اشتباكات محدودة وتم اعتقال عدد كبير من المواطنين.

«الشيخ» متمسك بموقفه ولن يسحب العريضة.. لكم أن تفخروا بهذا الرجل الشجاع المدافع عن حريتكم.

ثم سكت «أبو جواد» وتجهم وجهه..

استفهم «سعيد» في شيء من التوجس وقال..

ـ تكلم لِمَ سكت، ما الخطير في الأمر؟ هل أُعتقل «الشيخ» لا سمح الله؟

ـ «الشيخ» بخير، لكن الحكومة أطلقت يد وزارة الداخلية وتم تكثيف دوريات الشرطة وكوني مسؤولاً عن المجموعات أخاف عليكم من حماسكم الزائد في هذه الظروف الحساسة، علينا أن نهتم بتوزيع المنشورات ونحشد الناس، يجب أن يتبينوا حقوقهم، لا نريد أحداً يتفرج وينعزل، هل تفهمون؟

ـ جواسيس جدد دخلت إلى «حداحيد» أما تعلم يا أبو جواد؟

ـ كل القرى والمناطق في البلد أصبحت تحت المراقبة، المهم أن نصمد مهما حصل، جاسم ماذا عندك، صامت لم تقل شيئاً؟

ـ أفكر في انسحاب «محمد الأسمر» من المجموعة، محمد هذا..
زوى أبو جواد ما بين حاجبيه وقال في لهجة حاسمة:
ـ محمد حر في قراره، علينا أن نلتفت لأمور أكثر أهمية.

***

كنت أستعد للخروج قاصداً بيت صديقي «عباس» جاءت أمه إلى بيتنا وحلفتني ألا أتخلى عنه، فهو مثل أخي، هي لا تستطيع أن تعمل شيئاً وزوجها عجوزٌ ضعيف.

رغم أني قررت في الحال مساعدتها وانتشال بعض حزنها وتعبها إلا أن هذا الصباح أضحى متوتراً، أحد جيراني حذرني من الوضع، يقول أن الشرطة دخلت إلى القرية وشرعت تداهم البيوت في الحي الجنوبي.

هناك أيضاً اعتقالات عشوائية وقهوة أبو فخري تمت مداهمتها وكُسرت محتوياتها، القرية مقلوبة.

قالها وهو يتلفت نحو الشارع وهرول مسرعاً، تاركاً وقوفي الحائر هنا أسائل نفسي.. كيف سأذهب مع أم عباس اليوم إلى المحامي فيصل والقرية مقلوبة؟؟

حتى أمي جاءت إلى الباب وأمسكتني من يدي وأدخلتني وتكلمت عن جنون الشرطة وأمرتني ألا أغادر وأنها لا تريد أن يرتاع قلبها عليّ، ثم انضمت «كلثم» إليها ورجتني البقاء في البيت.

هو الخوف يتآكل القرية، موغل في طرقاتها الشر والمجهول، لا أحد يعرف متى سيحين دوره والأحذية العسكرية تقتحم الأبواب وتفجع الأمهات.

توتر الموقف وتناقل الناس خبر إحراق جيب شرطة في أحد أزقة قريتنا، على الأرجح هو المتسبب في هذا الاستنفار السريع. كما قيل أن محمد الأسمر تحوم حوله الشكوك وقد يكون جاسوساً يعمل في الخفاء لصالح المختار حمدان.

وهذا الملا عيسى وقف مبهوتاً وفوض أمره إلى الله حين اقتحموا بيته واعتقلوا اثنين من أولاده، كان عاجزاً وما حصل نزل عليه نزول الصاعقة

التي لا راد لها.

كيف لنا أن ننسى الملا، تقول أمي إنه هو الذي كان يقوم بختان الصبيان، كان يحلق رأس الولد حتى تلمع قرعته في وهج الشمس ثم يمسح فوقها بعض «البقل» ويكسر بيضة دجاجة ويفرغ محتواها في بيت الولد ويتمتم كلمات غامضة، كلها تعاويذ تجلب البركة وتدفع الشر. ولابد من فرحة «المولد» تهزج النسوة أهازيجها وتصلي على محمد وآله ويعم الفرح ويتساقط «الجاكليت والملبس والفول السوداني» فوق الرؤوس.

ملا عيسى في زمانه ينظم كل شيء، لقد ختن وطهر نصف أولاد القرية هو طيب ورجل مبارك.

فسألتها متعجباً:

إن كان رجلاً مباركاً، كيف احتار هكذا وتم اعتقال ولديه ولم تعمل له شيئاً تلك «الأحجبة» التي يداوي بها الناس؟!

حدجتني بنظرة مستنكرة واكتفت بالقول:

- استغفر ربك ولا توسخ لسانك بهذا الكلام، هذا ملا عيسى. نعم تلك الأسطورة التي آمنت بها في صغري وسمعت من أصحابي الصغار بعض قصصهم الجهنمية عن الرجل.. قالوا عنه أنه يخبئ بين طيات «بشته» الجن والعفاريت التي تسهر على راحته وتحميه. لا هو ولا قرية «حداحيد» احتمت من غارة الشرطة، حلت الظهيرة وها نحن نلملم جراحاتنا بعدما تخلت عنا عفاريت الملا عيسى وبركاته!

ونحن أكثر منطقة تضررت من غيرها، الغارة كانت شرسة وطوت مع انسحاب موجتها أكثر من ثلاثين شاباً غصت بهم شاحنات الشرطة.

احتشد الناس وارتفع صخبهم الغاضب عند باب المختار، بعد برهة من الزمن خرج المختار في كامل أبهته وعلى وجهه نظرة صارمة وخاطب الناس:

- كل ضجيجكم هذا، زبد بحر لن ينفعكم.

صاح أحدهم غاضباً:

- أنت مع الحكومة، ما ذنب أولادنا لتسجن، الملاعين خسفوا الديرة

وروعوا الجميع.

ـ أولادكم تتحدى الحكومة، هذا انتحار.. هل تفهمون؟! وهذه لن تكون الغارة الأولى، فهّموا أولادكم أن الحكومة لا تلعب و«الشيخ» لن يفيدهم بشيء إذا ما صدقوه واتبعوه، أنتم تحلمون وخير لكم أن تستيقظوا من وهمكم.

فتقدم الحشد أبو جواد وقال:

ـ نسيت يا مختارنا أنك في يوم من الأيام كنت تصدق هذا الوهم، ولما حصلت على المنصب، لينوا عنادك وملأوا جيبك ذهباً وذَهَبت من رأسك كل قناعاتك وأفكارك، هل نسيت هه؟

ـ أنت أبو جواد هه؟ ولا تنسى أنك تحت عيني وأعرف نشاط مجموعتك، أتظن أن كلامك هذا سيهزني؟!

وسط هذه المواجهة فوجئنا بمحمد الأسمر، لا ندري من أين ظهر، التصق بالمختار وقام يوزع نظراته اللامبالية مستخفاً بالناس ويسمر عينيه على "أبو جواد" بتحدٍ واضح :

ـ استحوا على وجوهكم، هل نسيتم أفضال المختار عليكم، الآن تهاجمون الرجل الطيب وتتهمونه بالباطل، أبو جواد هو الذي ورط شباب القرية وجيشهم في طابور «الشيخ» بالعكس المختار يدافع عن مصالحكم..أهكذا تجازونه؟

والمختار صمت راضياً ينتظر ما يقوله حليفه الجديد متصدراً الحشد تأخذه الحماسة كما تأخذ الناس الحيرة والدهشة، انتشرت في أوساطهم البلبلة بما يوحي انقلاب الطاولة على "أبو جواد" الذي كان مع المختار «حمدان» يشكلان في فترة نضالية ماضية تحالفاً مناهضاً ومعارضاً سياسياً اصطدم بالسلطة والتفت حوله الناس وأيدته.

حمدان قبل أن ينسلخ من جلده، قاد جموعاً غفيرة تحت لوائه، آمنت بوطنيته وأفكاره في الحرية والديمقراطية ورفض الاستبداد الذي كانت ولا تزال تمارسه الحكومة، فقد هتف الناس باسمه وتهافتت عليه ترفع شعاراته

وتسير في تظاهرات حاشدة رافعة صوره. وأبو جواد باقٍ في الظل يعمل تحت السطح أو مثل الجندي المجهول يقاتل في صمت ويموت في صمت من أجل قائده. هو فقط كان العقل المدبر للمظاهرات والساهر المخلص على كتابة المنشورات ومن اكتوى بنار المعتقل لسنوات في سبيل القضية.

خف زخمها في الصدور منذ أعلنت الحكومة قانون الطوارئ ونكلت بالناس وأحرقت الأرض تحت أقدامهم وفككت كل تنظيماتهم واعتقلت قادتها.. حمدان فقط قبل بالتفاوض مع الحكومة وغرته قوة مناصريه فأوقع به في حبائل الحكومة التي استمالته بالمال والنفوذ.

ومنذ تلك اللحظة الفاصلة، أدرك أبو جواد أن ما قاتل لأجله لن يذهب أدراج الرياح، لكن الحسرة تعصر قلبه.

سنوات طويلة من شبابه أكلتها السجون حتى أصبح مثل فزاعة في وجه الريح، مجرد خيال رجل فقد كل شيء.

كل القرية تعرف العداء الذي نشب بين الإثنين.

أبو جواد مثل الذهب أصيل لا تغيّره الظروف، نعم خرج من اللعبة مهزوماً وأصبح رقماً خاسراً على حد تعبير رفيق النضال الخائن حمدان المختار، لكن قلبه لا يزال ينبض بحب وطنه.

ومثل العاصفة التي هبت بداخله وأيقظته.. عريضة «الشيخ» التي هزت البلد وهرولت لها القلوب المخنوقة الظامئة وتحلقت حولها الأيدي وهتفت بها الحناجر في القرى والمدن واشتعلت بها الشوارع والحارات.

ضرب أبو جواد كفاً بكف وضحك رغم كل شيء وقال:

ـ ورط نفسك واخسر، محمد هذا الذي تتحالف معه مثل النار ستأكلك بلا هوادة وترميك رماداً.

- وفر نصائحك لنفسك، الأمر لا يعنيك، لم أعد تابعاً لك.

- نعم كما قلت بلسانك، الأمر لا يعنيني حين تختار أسلوب انتحارك و.. خسارة يا محمد.

تفرق الناس عن البيت وبدا المختار منتفخاً بغروره يربت على كتف

صاحبه الجديد واثقاً بأنه كسب دابة عمياء تنصاع لأوامره!!

الآن كل أجزائه تعود إليها الروح، كما البالون سينتفخ ليبدو أكبر وأكثر رهبة وقد أكد بزهوه المعتاد لمحمد الأسمر.. بأنه، اتخذ الخيار الصحيح واستند إلى ظهرٍ قوي يحميه.

عندها رفع رأسه نحو السماء، يبحث عن زهو اللحظة، الفرصة التي ستغير الأحوال وتأتي بالخيرات والشهوات. كان يسأل نفسه.. كيف احتملت هذه الحياة؟

كيف تسكعت مثل الأعمى على أرصفة وأوهام "أبو جواد"؟!

أيقظه من شروده وضحك في وجهه وقال:

- لا تقلق محمد، أنت مع الطرف الأقوى وانسَ هؤلاء الفاشلين، غداً تسحقهم الحكومة بلا رحمة، اسمعني إن أخلصت إليّ ستنال رضاي و.. وأشياء أخرى.

- أنا يدك اليمنى من اليوم يا مختار.

- أحسنت، اسمع لقد أفهمت ملا عيسى أن الحكومة أقالتني من المخترة، انتظر حتى نجني ثمار الشائعة وسترى.

- جماعة "أبو جواد" خطر علينا ونحن..

- نحن لا نخاف، أبو جواد لا يستطيع إلا أن يخربش مثل القطط، لكن علينا أن نحتاط وأنت تعرف الباقي ومن الآن فصاعداً - من أنا؟

- أنت.. عمي حمدان المختار.

ضحك الإثنان معاً في حضرة حلف الشر، آخذةً غيومه السوداء تحوط المكان، يتيبس في يد الشيطان، ظلاله هنا تشق الأرض وتطلع منتظرة نبت السوء. منتظرة مواليد الخيانة، تفرخ شؤمها وهذه العصرية تزحف ببطء تربط على مساحة حزنها خيبة «حداحيد» أيامها القادمة في الظلمة، تترصد المفاجآت ستصرخ بالويل.. لا أحد يعرف؟؟

الفصل الثامن

حين يفيض الألم ستبحث الوجوه المكدودة عن العزاء، فترمي كل تعبها هناك، حين تهدأ العاصفة. يقال أن قوة الهجوم خلفت وراءها الكثير من الحزن متفشياً في القرى التي كفرت بسلطتها وعاندت حاكمها وأصرت على إيقاظ غفوة الحق من دهاليز السياسة.

هو فقط بقي في غيبوبة الصدمة ولعن السياسة.

وقد كثر طلابه، لكن بلا جدوى، ظل ملا عيسى حبيس جدران غرفته يقرأ القرآن أو تصدر عنه همهمات غير مفهومة وتلعب بالقرب منه أضواء غريبة لا يعرف مصدرها وأصوات مجهولة.

قال أبو فخري وهو منهمك في ترتيب الفوضى التي أحدثها اقتحام الشرطة:

- إيه، أصوات مجهولة وحسب ظني - إن صدق - فالملا من بعد اعتقال ولديه رجع ليستعين بالجن، الملا عيسى ليس سهلاً كما تظنون، في زمانه اشتدَّ به الغضب على رجل غريب، لا نعرف تفاصيل القصة لكن عرفنا أنه سلط أحد عفاريته على الغريب، فقام يضرب نفسه ويهذي في الأزقة بلا شعور وصار الغريب مثل المجنون.

رد «حسان الفريدي» الذي قدم للقرية بعد شهر من سفره، وقد أخذ مكانه في القهوة كالمعتاد، أجير بسيط منبسط النفس وطيب يعرفه كل رواد القهوة بعينين غائرتين وحواجب كثيفة وقامة قصيرة - قال:

ملا عيسى لا يؤذي أحداً وهذا الكلام غير صحيح، لكن كلموه يعني يمكن أن يجد لي «جنية» ترضى بي بعد أن عافتني النساء.

ضحك كل من في القهوة، مصباحها الخارجي خافت الضوء يجلب بعض الحشرات ويجلب بالطبع أقدام الرجال، يكتظ بها المكان، تبحث عن بعض النسيان.

أنا أيضاً سارعت إلى الجلوس في مقعدي المعهود قرب الجدار، أحب الالتصاق بالجدران ولا أعرف السبب!! ربما لأني أفتقد الشعور بالأمان فأبحث عن شيء أستند إليه.. وما لي أفتش الآن في أعماقي عن شيء تافه، جئت إلى هنا محاولاً نسيان كآبتي وأفترض أني سألتقي صديقاً قديماً يبدد ضيقي واختناقي، فهذه القرية أصبحت منكوبة بحزنها، غادرها الفرح. الناس تدعي الصمود في المحنة لكنها تراوغ واقعها وأصبحت انتقاماتها معارك تشن بعضها ضد بعض.

الهندي «مشكور» سبق وأن أُتهم بالجاسوسية ومن بعد الغارة، قامت مجموعة من الشباب فأحرقت عشته وأوسعته ضرباً.

مسكين لم يقترف ذنباً سوى أنه غريب لا سند له ولا عشيرة. من السخرية أن نشتكي الضعف والهوان ونسب الحكومة لأنها تتجبر علينا فيما نحن نستقوي بعضنا على بعض ونبحث عن تنفيس خيباتنا فنفرغها غضباً كافراً على الضعفاء الأدنى منا، مسكين يا مشكور، حمل خوفه وتكوم عظامه وفرَّ بجلده بعيداً عن «حداحيد» ليحمي نفسه.

أيظنون أو يتوهمون أنهم سيمنعون قوات الشرطة من اقتحام القرية وتنفيذ الاعتقالات وماذا كان سينفعهم تهور «سعيد» لو نفذ جنونه وأحرق مدرسة الأولاد في القرية الليلة الماضية، بدعوى أن مصالح الحكومة حين تضرب ستشكل ضغطاً شعبياً يعود بالفائدة على القضية!

الحمد لله أن ناطور المدرسة كشفه في اللحظات الأخيرة ومنعه من تنفيذ حماقته وقد لملم الرجل الحادثة وعدل عن كتابة تقرير أمني كان سيسلمه للشرطة ويورط سعيداً وهذا ما نجحنا في فعله حين أقنعنا الحارس.

لم يخب ظني فيه، مجرد متهور، أهوج التفكير يعتقد أنه يفهم في السياسة وهو مثل الإناء الفارغ لا يملك شيئاً. ولِمَ لا يغامر بحرق المدرسة التي طردته؟!

تسبب في الكثير من المشاكل وجلب العديد من المتاعب حين كان طفلاً شيطانياً لا ينفع معه شيء، فاشل دراسياً تخلصوا منه بطرده، فتلقفته الشوارع. وها هو يظن نفسه رجلاً قادراً على أدوار البطولة!

أحسبه هو من كتب على جدار بيتنا شعاراً سياسياً سخيفاً «الموت للخونة»! من هؤلاء الخونة الذين يعنيهم؟! أيعتقد فعلاً أني متضامن مع الحكومة يوم عارضته في مسألة حرق علم البلد؟!

ماذا حصل لي؟ تهت هكذا في البعيد من أفكاري وطفت مختلف منحنياتها ومتعرجاتها ونسيت أني جالس في قهوة "أبو فخري"، كوبي أصبح بارداً، جرعت ما تبقى منه مكرهاً، أوف أبو فخري أصبح يشتري شاياً رخيصاً وكل هذه الأفواه هنا تشرب ولا تكترث! والكل يثرثر، ألسنا أشبه شيء بالعلب، أجل نحن كذلك، فالواحد طوال النهار تمتلئ علبته بالجاد والتافه من أمور الحياة وحينما يسترخي مع أول رشفة شاي مسائي، يبدأ بتفريغ ما بعلبته، أقصد ما برأسه من أفكار وهواجس.

أما أنا فآثرت الابتعاد وقد حبست هواجسي بداخلي.

على ما يبدو، الفشل يصطادني.

بي رغبة بالحديث تتصاعد ولا أستطيع لجمها، كنت أنوي إخبار "أبو فخري" عن قانون جديد تفرضه وزارة الداخلية بشأن الأماكن العامة وهذه القهوة التي نلجأ إليها هاربين من عصف الحياة ربما تُغلقها الشرطة.

أبو فخري هنا في قهوته ولا يبدو أنه قرأ الخبر في جريدة اليوم. سلطات الجمهورية آخذة في تضييق الخناق على المعارضة، وحتى البقية الصامتة التي تحاول النأي بنفسها عن هذا الأتون الملتهب، لا بد لها من موقف حيال ما يحصل.

***

اليافطة المعدنية المذهبة الأطراف، أنيقة كما المبنى الكبير داخل

زحمة الناس والأرصفة والدكاكين والسيارات.. كُتب فوق سطحها «مكتب المحامي فيصل المقادي». المسكينة حملت تعبها واجتهدت وتجلدت، تريد حلاً لولدها عباس الصيري وقد رحبت بهذه المهمة لكون أخوة عباس صغاراً وهذه أمهم تبحث في كف القدر عن دواء. فتركتها ترتاح عند السكرتيرة، سيدة في الأربعينات من عمرها، بسطت ملامح وجهها مبتسمة في ترحيب لبق.

وبشيء من الشرح الموجز، أطلعتها على مظلومية «عباس» الذي أُخذ من بيته بريئاً وهو..

فقاطعتني وهي تتعاطف معي وأوضحت، أن المكتب لا يترافع في قضايا سياسية.

وأننا سنسمع نفس الرد من المحامي ولا فائدة من مقابلتنا إياه!

كنت أجادلها محاولاً ترتيب الموقف وكسر بعض إصرارها وشرح القضية التي ربما يحلها المحامي فيصل ابن قريتنا «حداحيد» وأننا.. وفجأة اتخذت أم عباس طريقها إلى حجرة المحامي ودخلت في الحال!

لم يكن المحامي متحمساً بالقدر الكافي لاستقبال فجائي ولا يبدو عليه أنه تأثر كثيراً برجاءات أم عباس، متجهم قليلاً ويرتب بعض الأوراق على مكتبه الفخم ثم طلب إلينا الجلوس. وكنت أبحث عن انشغاله الزائف كما قالت السكرتيرة قبل قليل.

كنت أبحث عن كل ما قيل في شأنه، أأنا رسمت له صورة خيالية مبالغاً فيها؟!

لا أدري بعد من أمره شيئاً.. بدا لي في بداية الخمسينيات من عمره حليق اللحية والشارب ذا أنف معقوف كبير وعينين حادتين، يتأنق في بدلة كحلية ذات طراز انجليزي رفيع. سبقنا بالقول وأشار في كلامه المتأني إلى أمر هام لا تعرفه الناس في مثل هذه الظروف:

ـ نعم أغلب الناس لا تعرف، ممنوع على مكاتب المحاماة الدخول في قضايا السياسة التي ترجع إفرازاتها إلى قانون الطوارئ، للأسف نحن

مقيدون ولا حيلة لنا في الأمر، حسناً سأبسط الأمر، الحكومة تحدُّ من صلاحياتنا في الوقت الراهن وتمنعنا من الترافع عن أي موقوف، كون قانون الطوارئ المطبق الآن مسألة أمن دولة ولا حتى أكبر محامي في البلد قادر على التدخل والمغامرة بمستقبله المهني.

أم عباس تختبئ في عباءتها صامتة الآن بعد أن عرفت الجواب وأصيبت بخيبة أمل وتكسرت مجاديفها، إلا أنني قلت للمحامي:

- وأين هو واجبك الأخلاقي تجاه المظلومين، الحكومة لم تعد تبالي بشيء يتعلق بحقوق الإنسان، تستطيع أن تجلد ظهورنا وتكمم أفواهنا وأنت هنا ماذا قدمت؟! أين هو موقفك من كل ما يحصل؟

نظر إليّ بتمعن شديد وكأنه الآن فقط يتبين شخصي محاولاً قراءة أفكاري فقال:

- ثلاثة آلاف مواطن يرزحون في السجون بسبب هذا القانون المجحف أو تظن أننا نحمل قلوباً من إسمنت؟!

ابني «كريم» يتعفن هناك من أربعة أشهر وأنا هنا عاجز عن مداواة جرحي، أتفهم ما معنى هذا هه؟!

بعد أن استوعبت انفعاله، لا أدري كيف قلتها بعفوية وتحديت خوفي:

- معنى هذا أن مستقبلك كله كمحامٍ على المحك وقبل أن تنقذ ولدك حاول أن تفعل شيئاً لوطنك فهو في حاجتك.

- شعارات متشنجة لا تؤكلك خبزاً وتبرر للحكومة أذيتك، يا أم عباس ادعي الله أن يفرجها على ابنك، ما عندي حل، آسف.

كان واضحاً وسط هذا الضجيج الكلامي رغبة الرجل في إنهاء المقابلة ومدى انزعاجه ربما من التوتر المتبادل وبعض سلوكي النزق، فانسحبنا بهدوء من مكتبه ولم نغنم بشيء!

ما كان بالقدر المرجو من الكياسة، فقد نفخوا صورة الرجل أكثر من اللازم حين أسبغوا عليه صفاتٍ عديدةً، أبرزها ما قاله لي أحدهم، إنه إنسان حر لا يخشى في قوله الحق لومة لائم! وسبق له أن ربح قضية رد اعتبار ضد

جهة حكومية رصدتها الصحافة الأجنبية وتحدثت عنها. تفاصيل عديدة تصدع لها رأسي وصدقتها حينئذٍ، فانخلقت حول الرجل هالة كبيرة من التعظيم في فكري وها أنذا التقيه لاكتشفه زبداً يتبخر في وهج الحقيقة.

يعتقد أن اعتقال ابنه كارثة.. ألم يعرف شيئاً عن الأرواح التي أُزهقت وهي تناضل بحثاً عن خلاصها وحريتها؟! وهؤلاء الذين طُردوا من البلاد وسُحبت جنسياتهم فتلقفتهم أرصفة الغربة والمنافي، من وقف معهم غير هذا الشعب المطحون المغضوب عليه؟!

رحمك الله يا أبي رحمة الأبرار، ذات مساء كنت أخبره عن جارنا الذي رمى قمامته عند بابنا ومضى بلا خجل أو وازع من ضمير فرد عليّ، وأتذكر هذا جيداً، قال:

ـ قد يعجبك «فلان» لكن نيته غير صافية وهو لا شيء مجرد فراغ.

في فكرك الهرب على ما يبدو يا محامي قريتنا، لا تريد أن تناضل أو يكون لك موقف من الحريق المشتعل في البلد.

استقبلنا الشارع ونحن نغادر.

هذه المرأة الحزينة ماذا بوسعي أن أعمل لها ؛ لأخفف من حزنها؟!

أنا أيضاً الآن مكتوف اليدين عاجز وقلق أيضاً على صديقي «عباس» ويزورني طيفه في أحلام اليقظة، كأني أحدثه عن انكساراتي وبعض هزائمي الحياتية ثم أواسي أوجاعه.

فقط لو أستطيع زيارته، لاعترفت له بخوفي المتراكم من ليالي "حداحيد" التي تكثر فيها الاعتقالات وأصوات الرصاص المطاطي تقلق هدوء الليل وتفزعني فكرة السجن، سأعترف له بذلك مطأطئ الرأس وأخبره عن الـ..

كل هذا.. تباً وكأني محموم غارق في هذياني، مُحتجز في زحمة السيارات، أرتال طويلة في شوارع العاصمة وضجيج تترنح معه رأسي وأنا أجتهد في الفكاك من الزحام، التفت إلى أم عباس حزينة الوجه تلوذ بصمتها لا تلوي على شيء. استوقفت سيارة أجرة أقلتنا إلى «حداحيد».

الفصل التاسع

جلس قاسم بين كومة السعف المتراكم الذي تساقط من سقف العشة المخربة، لم يبق فيها شيء سليم، حطام مبعثر.

وبعصبية اتصل قاسم من هاتفه الجوال ولا يزال يتفقد ما حل بالخرابة:

ـ ستتأخر الليلة أم ماذا؟ أوف أنا من يسألك.

ـ اتفاقنا حسب الموعد وهذه المرة أنت من سيدفع.

ـ حكروش، لقد خربوا المكان هنا، أنا متأكد أنه هو.

ـ من تقصد؟

ـ محمد الأسمر، هذا السافل، نعتني بالحشرة التي تنشر الأمراض في القرية وهددني.

ـ أنا سأتصرف، لا توجع رأسي، مع السلامة.

المساء يزحف فوق رؤوس النخيل والخرابة صامتة مثله تماماً يتفقد المكان، بدا فوضوياً. أيكون الفاعل محمد الأسمر، مرّ من هنا وجاء لينتقم؟!

وممَ ينتقم؟! حاول تفسير ما حوله، كان يبحث عن سبب ما حصل! لا شيء واضح، لكن..

هذا المتعجرف المغرور، يثير المشاكل ويستقوي على الناس مستظلاً بعضلات المختار.

يتأفف وهو يغادر الخرابة وقد هبط الظلام، خطواته متمهلة على الطريق

الترابية المحشورة وسط النخيل، لمح أضواء سيارة تدخل الطريق، ربما هو حكروش. أخذ يدقق النظر محاولاً استجلاء هوية السيارة وهي قادمة.

حسين الحكروش لا يمكن أن يأتيه الآن، ليلة الخميس موعده المفضل للشرب في بارات المدينة ومواعدة الحسناوات. من هو ليكترث به أحد؟ وسهرة الليلة ستكون متأخرة وشحيحة بعلب البيرة بعد أن ينتهي من مباهجه الشخصية سيأتي إلى هنا ليرمي فُتات مائدته وإن تكرم فسوف يأتيه بمومس عادية مستهلكة!

إن أضواءها قوية وهي تتقدم أكثر.

توقفت أخيراً، وقف في مكانه وهو يراقب انزلاق زجاجة النافذة الأمامية للسيارة وتصفعه الرائحة المتوحشة مصحوبة بموسيقى غربية صاخبة ومصباح خافت يستيقظ في الظلام يترافق مع صوتها الهامس وهي تقول:

ـ قلت لك من قبل، الخرابة مكان وسخ لا يناسبنا!

ـ مديحة أهلاً أهلاً، أوه لا تنظرين إليّ هكذا، لقد نسيت أنك تفضلين اسم الدلع «مادي» وأنا أيضاً يعجبني.

ـ أنت تغازل النار، احذر!

ـ عزيزتي، حسين الحكروش لا يملككِ وأنت بصراحة تضخمين خوفك منه أكثر من اللازم، ثم أنا أصغر منه سناً.. ما رأيك؟

أطلقت ضحكة خليعة ممطوطة وقالت:

ـ لكن أشك أنك تمتلك قدرة احتماله!

ـ وأعرف أنكِ.. التجربة تحكم يا حلوة، هيا لا تضيعي الوقت.

ـ اصعد.

احتوته السيارة الفخمة، الحكروش قذر ومجنون ومغامر، مؤكد أنه يحجز قطعة العسل هذه لزبائن مهمين يدفعون بسخاء. لو أنه باع كل مومساته لا يستطيع ولن يقدر على امتلاك ثمن هذه السيارة الباذخة.

إيه.. ومن أنت يا قاسم؟ لست سوى متسكع على رصيف حكروش تتلقف حسناته وصدقاته، متسول يقتات شفقته بمعنى آخر، لكنها فرصة لا

تفوت، مادي تستحق! هذا الجسد الفائر المليء بالخيرات، غابة من الجمر الشهي والطري، التقلب فوق تعرجاته، شواء مشحون باللذة تذوب فيه هذه الزبدة البيضاء بين يديك.

- أوه قاسم، انتظر حتى نصل الشقة.

- لا أستطيع، أنا مثل الكاز سريع الاشتعال، أنت فقط تظلمينى.

- مسافة الطريق نصف ساعة فقط يا عزيزي وسترى!

نعم سوف ترى ما تحلم به وتتحرق شوقاً له، الحكروش محظوظ فقال لها:

- إيه، الحكروش محظوظ بك.

- طبعاً، لن يجد فتاة مثلي تبيض له ذهباً.

- مادي أمامنا نقطة تفتيش للشرطة، تحولي إلى الشارع الآخر.

- لا تقلق، الشرطة في جيبي!

تقدم العسكري وطلب تفتيش السيارة، مادي كانت توجه له سهام نظراتها واثقة من نفسها، سلمته كارتاً ورقياً صغيراً مضى به. ثم أطل من النافذة ضابط بدا متجهم الوجه، لكنه ابتسم ابتسامة خفيفة تتناسب وصرامته العسكرية وسلمها الكارت واعتذر عن الإزعاج معللاً الإجراءات الأمنية المتبعة.

ردت عليه بأنه يتبع الأوامر ويقوم بواجبه وانطلقت بالسيارة غير مبالية به.

المدينة، ليل ساهر وأضواء ملونة و... مادي التي توقفت فجأة أمام محل كبير تتصدره لوحة "نيون" مشعة، حروفها إنجليزية تتلوى بشكل فني. يبحث عن تساؤلاته المستفسرة وها هي تتبدى أمامه مثل ملكات الجمال ونجمات السينما كأبهى ما يكون، حذاء أحمر بكعب عالٍ يرفع هاتين الساقين العاجيتين، تكوين رائع خرافي.

التفت من شروده على صوتها وهي تحدثه:

- قاسم ألا تسمعني؟ لا تنظر إليّ هكذا مثل السكران، هيا ندخل إلى المحل.

هه أنا.. المحل، آه، نعم لكن أنا لا أتسوق في هذه المحلات الغالية.
ـ يجب أن تستبدل ملابسك هذه وإلا.. إنها قديمة.

***

أعرفها غارقة في أحلام يقظتها.

«كلثم» وكأنها تاهت في ثنايا عالم آخر، سقط كتابها الذي كانت تقرأ فيه منذ نصف ساعة.. ما رغبت في إفساد متعتها الحسية الخاصة التي تبعدها عن واقعها المؤلم.

حتى لو كان وهماً لذيذاً، ليكن كذلك، فنحن نضحك على أنفسنا ببعض أوهامنا الساذجة ونوسع رقعة الفرح الزائف فقط لكي نفر من نار الواقع.

تمتعي بوهمك «كلثم» إن كنت لا تزالين تحلمين بـ علي ابن العم والفارس والحبيب، أنت لا تعرفين الحياة بعد، إن ظننت لذيذ الأماني تأتينا على أجنحة الغيم تتساقط علينا مطراً، فأنت مخطئة.

لا تزال ساهمة في قصي حلمها ولم تشعر بي، اقرأ ما تراكم من حزنها ولا أعرف كيف أعزيها.

أضحت كتومة لا تبوح بما يسكنها من وجع، أضحت مجرد طيف أو شبح حتى، وأمي تستمر في رش رذاذ الماء المالح ظناً أنها عين حاسدة دخلت بيتنا ورمت نارها.

قال إنه سيكاتبني، من لندن.. لم يفعل ولا أدري له عنواناً محدداً وامرأة عمي لا تفصح عن شيء وكلما أسألها عن أخبار علي، تجيبني بأنه في صحة جيدة وفي خير.

أسألها إن بعث رسالة أو شيئاً، فتزم شفتاها وتشيح وجهها عني وتدعي بأنه مشغول بالدراسة ولا يكتب أي رسائل واتصالاته قليلة، لا أدري مم تخاف، فهي لا ترحب بي، كما لا تريد لـ "كلثم" أختي أن تقترن بولدها علي، امرأة قوية صارمة فرضت على عمي بيع قطعة أرض كان يملكها لتوفير مصاريف السفر والرفاهية لـ.. علي.

«علي» لم تطحنه الحياة وتتقيأه الأيام كما فعلت مع أخيه الأكبر غير الشقيق «ماجد» الذي عاش نصف طفولته في عذابات الزوجة الثانية، امرأة عمي التي تولّت عليه وشكلته حسب رغباتها. ليس له أم ترعاه من بعد حادثة تسمم «فاطمة» التي كانت تفور شباباً وحيوية وطيبة ولكن خطفها الموت في يوم صيفي مغبر وتركت خلفها «ماجداً» بتسعة أعوام من اليتم يتشربها دهرٌ قاسٍ، أدّب المسكين بصفعات الغربة والوجع.

أما هو، فقد تنعم وتربى على ريش النعام والراحة ولا عجب أنها جندت كل نفوذها وسطوتها على عمي وضمنت لولدها «علي» كل الامتيازات التي يستحقها الولد البكر والوحيد.

هل حقاً لاتزال تترقبه وتأمل في تلك الانفراجة الخرافية التي لا تأتي؟

حواجز عديدة انتصبت فيما بيننا.. كلثم تمارس أحلامها الانتحارية لاشك وتنام في دوامة الوهم يأخذها إلى البعيد وحينئذٍ لن تجد في مواجهتها سوى الرماد الذي خلفته هذه الأوهام.

ولِمَ أتهمها بالغرق في أوهامها وكأني بمنجاةٍ من عصف أفكاري المحلقة في السراب، أقتات لحظات العمر خيبات متواترة ولست قادراً حتى على ارتكاب المغامرة التي كنت قد خططت لها، حين فكرت في السفر إلى البر الرئيسي بحثاً عن حياة أفضل، لكنها أمي التي وقفت في منتصف الطريق وذكرتني بقوامتي الرجولية وأني لن أحل مكان الوالد، لكني أحمل رائحته وحسه في البيت ووجودي له معنى كبير في قلبها وفكرة السفر مرفوضة.

أمي التي أضعف في حضرتها وتهوي كل دفاعاتي وأحلامي وقناعاتي وإن كان هذا يعني مزيداً من الحياة الرتيبة التي أتورط في عيشها وأتقبلها صامتاً.

أختي هي الأخرى متورطة في كل هذا لا مناص لها من هذا الاختناق الداخلي أجدها الآن في فقاعتها. أقفلت الباب خلفي وخرجت وها قد ألغيت من رأسي فكرة محادثتها في الأمر واكتفيت بنظرة شفقة وأسى لا حيلة لي بها.

الفصل العاشر

بـدت الأوراق محشـودة بالطلاسـم تفـوح منهـا رائحـة غريبـة. تعـب مـن التحـديق في هـذه الكلمـات، تتراكـم وتمشـي مثـل النمـل يتحـرك متسـلقاً أصابعه ويعبر ياقة ثوبه أو يخترق سرته إلى أسفل فخذيه لا يدري..

كل هذا السكون الممل.

ليس من شيء يحرك ثقله ويبهج أوقاته غير عرس أنثى تشويه في تنور شهوتها، تُقبل في أبهى زينتها ثم تذوب عطراً في الحجرة.

يستريح الملا عيسى ويترك أوراقه تنام فوق سطح طاولته، تلح عليه الآن صورة «أم قاسم» تملأ جو الوحدة.

لا وقت للجلوس مع الخيبة.

استبدل ملابسه ونهض مغادراً يخترق طريق القرية، قاصداً بيتها تدفعه الآن همة غريبة. يقصد وصول بيتها، نار تشتعل بين فخذيه تطيل عطشه المستفحل منذ ماتت زوجته وظل وحيداً.

لا مبرر لهذه الوحدة، أكيد هناك حل. «أم قاسم» سترحب به! عقد زواج منقطع يفي بالغرض، عساها توافق وتطفئ ناره! على الأرجح مثل هذه الزيارات الليلية ستعطي نتيجة طيبة خصوصاً وأن لها ما يبررها. الملا عيسى، مبارك أينما حل! لكن عليه أن يتحاشى شيطنة ابنها، ما الذي يدريه هذا الهائم المتسكع؟

سمع خلفه صوت محرك سيارة والأضواء تغزوه كما الصوت واضح..

- تفضل ملا عيسى.

التفت مبتسماً:

- كرمك سابق "أبو جواد" ، مشواري قريب.

- اسمعني واصعد ولا داعي لهذه الطيبة، يعني لا تريد أن نكسب فيك حسنة لوجه الله.

لوح له بيده وكرر شكره، يبتعد في الأزقة وكأن بلوغه بيتها مهمة عسيرة مثلما تمناها عروساً ذات يوم، لكن والدها المتعجرف رفض. لا ضرر من ممارسة الحلم القديم!

لا ضرر من طرق بابها ومن سيشك في نوايا الملا عيسى؟!

حضر صوتها المستفسر خافتاً:

- من عند الباب؟!

- السلام عليكم يا أم قاسم.

- ملا عيسى؟!

- "سويت حجاب" لقاسم، الله يهديه، "يعني شيء بسيط" لوجه الله.

فترة صمت مفاجئة تستفز تساؤلاته وقلقه، راح يراقب الباب الذي لا يفتح والشارع المخادع قد يقذفه بأحد الفضوليين. على وجل يقف منتظراً حتى قالت:

- اترك الحجاب عند عتبة الباب وتيسر إلى حال سبيلك.

- سامحك الله يا أم قاسم، ألا تتباركين بوجهي؟

- الله يسامح الجميع، أنا أرملة والوقت ليل يعني.. لا ترضى أنت عليّ وعلى نفسك كلام الناس.

قطع رجاه من وقوفه العبثي، بعدما رفضت فتح الباب فسار مبتعداً مكللاً بالخيبة. بضع خطوات ورجع ثانية إلى الباب وقال:

- اليوم الظهر الشرطة اعتقلت قاسم.

وجاء صوتها متلهفاً مفزوعاً كما كان يتوقع:

- ولدي قاسم في حفظ ربه، ماذا تقول؟!

كوة صغيرة في حيز الباب، كافية ليقتحم خوفه.

ودفع الباب بقوة! وهي لاذت بالفرار إلى مطبخها وأوصدت على نفسها الباب، تسبح في الخوف.

***

تتدافع الكلمات في فمه حد الرعشة، سياط من نار ومردة وجوهها مقنعة بين ظلمة الجدران يتوسطها شبح يوقد جذوة حقده، جمرة سيكارته تقترب وتقترب و.. بسرعة، الصرخة مكتومة في بطن هذا الليل، عذاباتك يا عباس لا تنتهي.

لصوته فحيح الأفعى:

- سأعرف كيف أكسّر يباس رأسك، هل تفهم؟! أنت من حرّض العنبر على الإضراب، تأكد أنهم سيموتون جوعاً ولن تنالوا شيئاً ومن لا ينضبط سنبقيه بجروحه حتى تتقيح!

شيء واحد فقط ستحصلون عليه، ستتعفنون هنا.

لا تنوي الكلام، سجائري حفرت جلدك، حرام عليك ارحم نفسك قليلاً، في وسعي سلخك حياً لو أردت لكن لحسن حظك أني لم أفقد صبري بعد!

دوّت بين الجدران الصرخة الشقية تأكل من وجبات الظلام تتمسح بفيض الألم لا يتوقف، ينهش في هيكل الروح، تكاد تغادر سجن الجسد المعذب. ها هنا في العتمة تركوك فريسة السكون.

تركوك بضلع مكسور تتحسسه بأصابع متسخة في مكان مختلط بالرطوبة والحر الشديد يزيد وطأة الحروق مبثوثة فوق جلدك وقد بات منفضة سجائر.

أصابعك تنتفض.. ما هو شكل وجهك في هذا الظلام اللعين؟

بلا هوية، كل الأشياء فقدت هويتها هنا. الأصابع تتوقف على حافة الوجع خانقاً يخترق الأنفاس وتحاول أن تبتلع كل هذا بصبر، تحاول وتحاول.

يفلح النوم في التسلل إلى خلاياك المسحوقة، ترمم نفسك في فسحة الهدوء المؤقت، أصابعك تسكن عن انتفاضها المتألم وموج صدرك القلق يهادنك الآن وتنام. لكن ما هو شكل هذا النوم؟!

على وجل يتسلل إلى عالمك ومثل زخات المطر تداهم خطواتك، لا تهرب من مصيدة المطر ولا تستطيع إيقاف.. إيقاف هذا الشبح!

يا لطف الله العظيم، شبح امرأة لا تعرفها غارقة في بياض ثوبها تدور حولك بحلقات بخور، تتمتم كلمات مجهولة!

كيف دخلت الزنزانة المحكمة الإغلاق؟

كيف.. تواصل هكذا دورانها اللا مفهوم ثم تندلق مجمرة البخور من يدها ولا وجود للجمر، غير حمامة بيضاء تحلق وصولاً إلى قضبان الزنزانة والمرأة الشبح.. اختفت أيضاً مخلفة وراءها بقايا الدخان يختلط بنثار الضوء المتسرب من فتحة في الجدار، يتداعى وكأن زلزالاً حل به.

وهذه طراوة الصبح تدخل على النفس السكينة ونار الجراح تهدأ، يرتفع إحساسك بشيء من الهدوء تنتشل كل انكساراتك، هذه الجدران الإسمنتية لا تزال تشدد عليك الحصار والعذاب.. أين نصبوا جحيم هذا المعتقل اللعين؟ الأرض أم السماء؟!

لا تعرف حتى أين يقع.. وكيف لك أن تعرف؟!

قذفوك هنا معصوب العينين معطوب الإحساس لا تتذكر شيئاً من تفاصيل رحلة الاعتقال غير صرير الحافلة القديمة ترقص إطاراتها فوق الطريق الوعرة الطويلة وكلك خوف ومثانتك محتقنة وحلقك يابس وثيابك ممزقة. وليس الصعود إلى الحافلة كنزولها، دفعوك بغلظة لكن لم تفقد

حواسك. «عباس» أنت متأكد مما تسمع.. صخب النوارس عن قرب محلقة في سمائها أو على أسوار السجن، تنبئك عن بحر أزرق ليس ببعيد، ربما أنت..

هذا كل شيء تسرب في الذاكرة.

تعد الأيام والشهور وتترقب المجهول.

بقلق تترقب باب الزنزانة، خطوات سريعة وصوت كريه تحفظه جيداً.. شرطي بوجه مبعوج كعلبة طماطم فاسدة، أنفاسه النتنة ورذاذ كلماته في وجهك ينعق مثل الغراب..

- زيارة، انهض يا وسخ.

متثاقلة خطواتك تمشي في دهليز سيء التهوية لا تدخله الشمس وتصطف على جانبيه زنازين الاعتقال الانفرادي ترشح من فتحات أبوابها أصابع وعيون تراقبك، بقايا بشر مثلك تماماً، ذبائح تصلى الجحيم.

كل هذا العالم البائس يتكدس هنا مغضوباً عليه في زمن الحكومة الرشيدة دائماً! وكأنه يجرك إلى ما لا تعرف.

الزيارة ممنوعة منذ دخلت إلى هذه الحفرة التائهة بين الأرض والسماء، زيارة لي «أنا» ممن؟!

تسأله فيجيبك بغلاظة:

- وما أدراني، ربما تكون أمك (الـ...) أشبع فضولك واسأل، هيا، ادخل.

واندفعت إلى قاعة الزيارة التي تكتشفها لأول وهلة، سقفها مبثوث بالمراوح ولجدرانها طلاء يذكرك بالألوان والجدران التي يأوي إليها خلق الله.

لا فرق في النهاية، حفرة الوحل هذه تبقى كما هي، جدران من القسوة والقهر وجمع من الوحوش تسوم الناس هنا سوء العذاب وبئس المصير.

تلاحظ القاعة ساكنة وكأنها ستلتهمك.

مقعد واحد مشغور برجل صامت يوليك ظهره.. ينهض منتصباً يمد يده

مصافحاً.

ـ المختار، ألست هو أنت؟! نعم أنت هو.

ـ جئت لزيارتك.

تحاول فك رموز عبارته الأخيرة غير مقتنع بما يقوله..

ـ نعم جئت لزيارتك عباس لِمَ أنت مستغرب هكذا؟! آه أكيد شوهت الألسن المغرضة صورتي لديك.

ـ لحد الآن لا أعرف ما تريد بالضبط فأنا..

ـ أعرف يا عباس أنك متعب وتريد الخروج من هنا وبإمكاني أن أساعدك.

ـ والمقابل؟!

ـ أمر بسيط للغاية، بعض المعلومات عن «أبو جواد» ابن عمك وستتنفس عمرك بعد مرور أربع وعشرين ساعة تكون في بيتك!

ـ بهذه البساطة؟!

ـ أكثر مما تتصور، هه ما رأيك؟

ـ بإمكان الحكومة اعتقاله في أي وقت، حتى أنت تستطيع ويدك طايلة.

ـ المهم سقوط المجموعة التي يقودها و.. تعاونك معنا خدمةً لوطنك ضد هؤلاء المخربين.

....

ـ سأعطيك مهلة تفكر...

ـ هذا السجن بمن يحوي من أبرياء مخربين أشرف من قاذورات لسانك، ما دمنا على الحق فلنا الشرف مهما كان، اغرب عن وجهي ومارس خيانتك في أي زباله.

ـ جنيت على نفسك بنفسك.

الفصل الحادي عشر

رجال المختار يحرقون خرابة الحاج منصور هذا الصباح، سحب الدخان الأبيض الخانق لا توقظ عفاريت الخرابة ولا تستنفرهم ليذودوا عن جذوع النخيل، نشبت فيه ألسنة اللهب التي عربدت بشرها هناك.

أفراد الشرطة اكتفوا بتفتيش المكان ثم أعطوا أوامرهم لحثالة المختار بتخريب المكان وإحراق ما تبقى من الحريق الأول. كانوا يريدون "أبو جواد" ومجموعته صيداً سهلاً ولكنهم لم يظفروا بشيء ولم تنفعهم المعلومات التي قدمها محمد الأسمر للمختار بشيء.

أشعر بالعجز المخزي إزاء ما يحصل، تمنيت لو أستطيع منعهم عن هذا الفعل الشرير، وأنا ألعنهم في سري، هؤلاء الجهلة الذين لا يرعون حرمةً أو قدسيةً للزرع.

وجدتني عند حافة أحد مقاعد قهوة "أبو فخري"، سحبته وجلست أتفقد ما يجري بأسف.

نحنحة "أبو فخري" وهو يفتح باب القهوة أيقظتني من شرودي، فقال الرجل:

ـ يا غريب، نحن لم نفتح القهوة بعد، تعال بعد نصف ساعة.

ـ نصحتك "أبو فخري" البس نظارة طبية ولكنك ترفض مجرد كونك ضعيف البصر، معقول لم تعرفني؟!

ـ هذا أنت؟!، أهلاً.

غاب داخل القهوة لدقائق ثم عاد يحمل صينية بلاستيكية مزركشة فوقها إبريق شاي ألومنيوم وكأسان صغيران ومكعبات السكر، فقمت من مكاني وسحبت واحدة من هذه الطاولات الحديدية الصغيرة وجلسنا معاً نحتسي الشاي الصباحي الطازج، فقال:

ـ أم قاسم المرحومة والله ما تستاهل، تحولت لفحمةٍ سوداء في مطبخها المحترق.

ـ نسيت مهزلة التقرير الذي صدر عن الشرطة؟!

ـ متى حضرت الشرطة أصلاً؟!

ـ قيل أن الشرطة حضرت، وكتبت تقريراً حول ملابسات الحادث واعتبرته عرضياً وأن الـ..

ـ زيادة كلام من الناس ولا شيء من هذا حصل، حتى أنني عندما سألت ملا عيسى عن الحادث، أجابني بأنه سمع من الناس وحضر على عجل.

ـ حضور الشرطة ضروري يا "أبو فخري" لدفع أي شبهة جنائية قد تكون حصلت، ثم إن أم قاسم..

ـ أم قاسم لا تجوز عليها إلا الرحمة، عسى الله يخفف عنها في برزخها، يا الله يا الله اختم لنا بخير.

ـ يعني أُجريت مراسم الجنازة؟!

ـ أنت أحمد ابن القرية ولا تعرف، طبعاً هذا ما حصل، إكرام الميت دفنه.

ـ هذه فوضى بكل تأكيد، أعيد كلامي وأتعجب من غياب الشرطة ثم.. من؟ هل صدرت شهادة وفاة؟

ـ البركة في حواجز الشرطة التي تغلق مداخل ومخارج «حداحيد»

تحولت إلى سجن يوم الحادثة، ملا عيسى حسم الجدل الذي نشب بيننا وطلب منا حمل الجثة إلى المقبرة والمناداة عليها في مئذنة الجامع.

ـ البلد هي سجننا الأكبر "أبو فخري".

رائحة النار تسيطر على سماء القرية، أخذت أحدق ثانية وقد شربت ما تبقى من كوب الشاي، لم أكن مرتاحاً من هذا الذي يحدث وفهم "أبو فخري" جيداً حالتي المزاجية ثم قال:

ـ لا تتعب نفسك في تحسرك على نخيل "حداحيد"، الحكومة وأعوان المختار لن يوقفهم أحد من القرية، اللعنة عليهم، لا شيء ينجو من تحت سطوتهم العمياء، واضح أن النخيل أخلّت بقانون أمن جمهوريتنا وأغضبت رئيسنا الهمام.

ضحكت وقد شدني تهكم "أبو فخري" فقلت:

طبعاً فهذه النخيل ممشوقة الطول حتى وهي تموت أو تُحرق، تجدها واقفة في وجه موتها، ألا تشبه كل هؤلاء ذوي الهامات المرفوعة في نضالهم وصبرهم النبيل؟! يريدون كسر هذا التحدي ولا يروق لهم رؤية شيء واقف من كثرة ما تسكن بدواخلهم هذه الروح الاستعلائية المغرورة.

ـ إيه.. شطرٌ من شبابي قضيته في خرابة حاج منصور أزرع وأحصد وأجمع بعض القمامة وأحرقها، الرائحة قوية ترقد هنا في رأسي لا أنساها يا أحمد، يرحمك الله حاج منصور.

ـ اشتغلت في المزرعة؟!

ـ أنتم جيل مختلف، لم ير أو يواجه الظروف الصعبة التي واجهها جيلنا، آباؤنا كانوا يزجون بنا في جحيم المزارع لنعمل وسط حقولٍ ملتهبة بحرارة الصيف بأجرٍ بخس، لكن شهادة لله، كان الحاج يخاف الله تعالى في تعامله معي ولكن أبي..

لا أدري لماذا تستيقظ الآن فقط هذه الذكريات القديمة؟! مع أني

كنت أكره ما يفعله أبي.

.....

أتوقع تسألني عن ما يفعله.. كان يستولي على حفنة الراتب التافه بكل سهولة، لا بأس.. رباني أبي في النهاية وصرت رجلاً، إيه يا «حداحيد» أين هم رجالك اليوم؟!

تدري.. على أيامنا مستحيل أن تقدر الشرطة على دخول القرية، رجال أشداء تحرس القرية من كل الجهات مسلحين بالبنادق في تلك الأيام وفورة أحداثها السياسية، أوه..

أثرثر معك وأنسيتني القهوة، هيا تعال رتب الكراسي والطاولات معي.

عن طيب خاطر قمت أساعده في هذه المهمة لكني لا أزال متأسفاً على هذه القرية التي يسكن حبها في وجداني، ببساطة أراها تحترق أمامي وحنقي لا ينفعني في شيء، كنت فقط أريد لهذه الرائحة المزعجة أن تتلاشى من الجو، أريد أن أنسى هذه الصورة المرعبة تشاكس رأسي، أتخيل أم قاسم والنخلة والنار تتشب في الاثنين ولا أحد يحرك ساكناً لردع هذه الجريمة!!

الفصل الثاني عشر

«مادي» تتبدى ممشوقة القوام، قطعة من الحلوى مرحة الحضور تجيد الرقص في الفراش وتشعل النيران الآثمة بين الجدران وخلف الأبواب ويزداد جنونها اللذيذ عندما تسرف في الشرب، تجيد اللعب والإغراء، قطة محترفة في فناء الشهوة المتمردة.

تنظر إليه بعينين متوسلتين..

ـ تحبني يا قاسم؟!

ـ وماذا تعتقدين؟!

ـ لا تكن غامضاً هكذا جاوبني بصراحة.

...

أنت إذاً حثالة كغيرك يبحثون عن خيرات جسدي وحالما ترتوي نفوسهم المزيفة يرحلون.

انسلت من الفراش وارتدت ثيابها وتجمدت عند النافذة تحدق في أفق المدينة الليلي وهي تنفث دخان سيكارتها لكأنها تطمح أو تدفن في أفكارها رغبة واحدة، تريد إحراق مدينة الرجال والدنس.

ـ مديحة، لست في مزاج جيد اليوم، سأنزل إلى «البار» إن لم ترغبي بوجودي.

ـ لا تغادر، تحمل تقلباتي المزاجية، نسيت إخبارك أنها واحدة من صفاتي الغبية، لا تهتم لذلك.

ـ أنا أهتم.

- قاسم أرجوك، لم أعد أطيق نفسي، هذا يكفي توقف أرجوك!

- ما رأيك في الخروج؟

- إلى أين هذه الساعة؟!

- مادي حبيبتي التي تعشق السهر متى اهتمت بالوقت؟!

تكرمت بابتسامة سريعة وأطفأت سيكارتها.

حتى وهي تستبدل ملابسها خلف الساتر القماشي الرقيق تبدو مغرية وجذابة أكثر من ذي قبل. تفقدت زينتها على صفحة المرآة وتطييبت برشة عطر مثير على عنقها الطويل. رطوبة الجو في الخارج لا تحتمل وحين وصلا للسيارة تأففت في ضيق واضح تقول:

- مفاتيح السيارة.. أنسى كثيراً هذه الأيام.

- سأحضرها.

- لا تتأخر، الجو رهيب وخانق.

وحين تأكدت من تواريه داخل مبنى الفندق هزت مفاتيحها وضحكت بشماتة وانطلقت بسيارتها في أضواء المدينة، لم يجدها حين عاد.

لعن سذاجته وبصق في الهواء غاضباً وما عساه غير غبائه وذكاء «مديحة» طارت بعيداً وهو لا يزال متورطاً في حبائلها. أشعل سيكارته فوق الرصيف وشرّع يمارس تسكعه الليلي المعتاد غير عابئ بشيء.

فهذه الشوارع المشعة بالأضواء البرتقالية مليئة بالمتأنقين والسيارات الفارهة وألعاب الأطفال ودكاكين الآيس كريم لكن لا نخيل فيها.

أربعة أيام في حضن المدينة وضيافة «مديحة» أو «مادي» كما يناديها "حكروش" الغائب في سفره المفاجئ ووجهته المجهولة.

فقط لو يعرف إلى أين؟

وما الصعوبة في هذا الأمر؟!

"حكروش" يقود مجموعة التهريب، تمارس نشاطها المحموم وتنقل وتبيع الخمرة إلى الأفواه المتلهفة في البر الغربي الكبير وراء الحدود راكبة الموج الأزرق والمغامرة.

أجل يتذكر فيما سبق، تماماً في ذلك المساء الذي تعرّف فيه على «مادي»

لأول مرة.. كان هو يتحضر لواحدة من سفراته وليلتها لم يشرب وقبع جالساً يرسم دوائر وخطوطاً فوق وجه التراب.

- حكروش ما بك؟!

- قاسم لا تشتت أفكاري، تنتظرني ليلة زفت!

- عملية تهريب إلى زبائنك هناك؟

- أنت ثرثار أكثر من امرأة عجوز تائهة.

- تأخذوني معكم؟

- مثلك لا يلعب مع الكبار، عظمك طري يا حبيبي.

يتذكر ما دار في تلك الليلة.

مؤكد أن تأخره هذه المرة دليل على عملية صعبة ومربحة تستحق المجازفة.. حكروش هذا شيطان شاطر.

يحدث نفسه الآن.. "قاسم" أنت قادر على ذلك، حكروش منجم ذهب ومكسب!

حينما يرجع سيكلمه وسيبحث عن فرصة أخرى، لا فائدة من البقاء هكذا مفلساً يعتمد على إحسان «مادي» ستتغير الأمور ويجب أن تتغير.

لا شيء مستحيل، صحيح "مادي" حذرته من شره وثورات غضبه العنيفة لكن..

وتبسم لا مبالياً وهو يدعس سيكارته المستنفدة.. لكن مهما بلغ عنف الثور فليس صعباً ترويضه. واثقاً من نفسه قدراته، طبعاً حكروش لا يعرف من هو قاسم.

فجأة تلقف الرصيف جثةً طُوح بها في الهواء.

يلتفت قاسم إلى رجلين بسحنات متجهمة وهما يعودان إلى ملهى ليلي تصدح منه الموسيقى الصاخبة. ساعد الرجل ذا الهيئة المزرية على النهوض ونفض عنه غبار وأوساخ الطريق وعزّاه مستشفقاً:

- بسيطة بسيطة ولا تهتم.

- لا تلمسني يا كلب! «رمقه باستنكار متفحصاً إياه».

- أنت؟! محمد الأسمر؟! أنت هنا يا ابن (الـ..).

ـ اا..اسمع صـ صـ صحيح أنا سكران لكن احذر أن تسب أمي على الأقـ..قل تعيش بعقلها ولم تـ تـ.. تحرق نفسها كأمك؟!

ـ غبي، لا تعرف ما تقول، اقلب وجهك عني يا سكير.

أعاده إلى الرصيف ودفعه بقوة متجاهلاً تساؤل نظرات المارة، مضى بعيداً غير مكترث ثم عبر الشارع.

على يمينه حديقة دخلها واتخذ مقعداً منعزلاً.

حاول تدخين سيكارة، العلبة فارغة كرمشها وتوتره يتصاعد يشعر بانقباض غريب ينتابه، الآن لا تتقطع أسئلته، محمد الأسمر نجح في التلاعب بأعصابه بكل سهولة.

ماذا لو كان صادقاً فيما يقول؟

هذا الفاشل يكذب بلا شك، بل خرف ولحست الخمرة عقله لا يفقه ما يقول، نعم نعم هذا هو التفسير الصحيح. على الأغلب يحاول ويجرب لعبة خاسرة سلفاً، أمره مفضوح والـ.. المسألة لا تحتمل كل هذا التوتر.

«اللعنة».. أطلقها حانقة محملة بالإحباط ونهض مغادراً مسرع الخطى تحتدم بداخله مخاوف لا تحصى، شرارها يشعل حرائق مدمرة لن يطفئها إلا هو.

كالمجنون يبحث في وجوه الشارع، محمد الأسمر فص ملح وذاب!

حراس الملهى كتمثالي شمع هنا.

نفس المكان، لكنه اختفى وتبخر بسرعة هذا الحقير.

زعزع هدوءه واختفى!

نبضات قلبه تتلاحق، يحدق في الشارع بلا فائدة.

دخل لأحد الأزقة المحشورة بين تعملق البنايات الخرسانية العملاقة.. لا أحد غير متسول نائم على الإسفلت وسكير غلبه النعاس في سيارته.

سار إليه وانتشله من مقعده.

الآن أنسب اللحظات ولا وقت لكي يضيع ها هنا، طرحه بهدوء على الإسفلت، شغل محركها وانطلق بسرعة ينهب الشارع، "حداحيد" يجب أن تستيقظ بأكملها لتجيب أسئلته وتهدئ خوفه.

الفصل الثالث عشر

الصالة الخالية يزورها رنين جرس الهاتف يباغت السكون المترسب وقت العصر ما عداي هنا في الغرفة صباح اليوم، ثم نهضت في الحال وأجبت على الهاتف..

- نعم

- أنتظرك على الباب، هيا بلا كسل.

- أهلاً "أبو جواد".

- أريدك في موضوع، عجّل بالخروج.

- سأفتح باب المجلس، تفضل.

لا أستطيع الادعاء بمعرفتي الوثيقة بـ "أبو جواد"، غير كونه الشوكة العالقة في حلق المختار والرجل النزيه صاحب المبادئ والمناضل الوطني الصبور، عندما تراه تتراءى لك دروب الشقاء المحفورة في جلده، سنوات المعتقل ولهيب السياسة ورفاق النضال ونار الخيانة ممن باع.

لعلي أنا الوحيد القادر على قراءة ملامح وجهه وتلمس أوجاعه والإصغاء إلى عذاباته المتراكمة دون أن يشعر.

بدا متردداً في بداية حديثه ولكأنه قد ضرب أخماساً لأسداس قبل أن يصل بابي، لكنه كرجل ناضج قارب الأربعين من عمره لا تعوزه الجرأة في الكلام والتفكير بصوت مسموع، وهكذا كان.. طلب يد أختي «كلثم» وبلا مقدمات شكلية، طلب ذلك بكل هدوء، وهو يعتذر عن شكل اللقاء سلفاً وتوقيته.

العرق البارد يتسلل إلى ظهري منساباً مع هدوء كلماته وهو يستند إلى جدار مجلس بيتنا وساد صمت اللحظة، لا نسمع غير صوت دوران المروحة القديمة المصلوبة في السقف، هواؤها يحرك بعض خصلات شعره الأسود شاكسته شعرات بيض هنا وهناك. تحدثني هذه الشعرات عن الأيام التي مضت، يبدو الآن متعباً ويحمل فوق ظهره صخوراً ثقالاً.. أيتخلى عن معاركه ويهادن؟ أم أنها استراحة محارب نجا من اشتداد الوطيس واقتعد ظل شجرة يلتقط أنفاسه؟

أبو جواد لا يستسلم، كلنا نعرف ذلك، الآن فقط في هذه اللحظات يفكر في استئناف حياته ليرمم شروخها المتكاثرة.

ها هو أمامي يترقب إجابتي.

أخبرته بأن الزيارة مفاجئة ولا اعتراض على توقيتها وأنه مرحب به في أي وقت وأنه إنسان ذو معدن طيب تسبقه سمعته النظيفة وأن «حداحيد» تفاخر بوطنيته ولا شك أن «كلثم» تحترم وتقدر كل هذه الصفات الحميدة لإنسان نبيل ومحترم وأن الأمر في الأول والأخير يرجع إليها.

افترَّ ثغره عن ابتسامة راضية ونهض يصافحني بقوة، وكنت قد دعوته لإطالة الجلوس وتناول بعض المرطبات والحلوى، لكنه شكرني والسعادة بادية على محياه، في نظراته شيء.. أحسب أنه الآن ينبعث في عوالم أخرى كطير نورس، يعانق شواطئ شوقه المحبوس في غياهب الأيام السوداء التي حفرت أوجاعها على جلد ذاكرته وهو متمسك بهذه الفرصة ويتمنى اقتناصها. رجل في مثل سنه أكيد سيبحث عن طوق نجاة ينتشل شبابه المأكول في المعتقلات ومطبات السياسة، أكيد سيبحث عن امرأة، امرأة وكفى يأوي إلى جنتها فتداوي جروحه وانكساراته، تنقذه من سجن الوحدة.

كدت أنجرف بعاطفتي إليه وأعطيه وعداً أو أي شيء ضمني يطمئنه إلى موافقة مبدئية حول الموضوع، لكني لجمت ردة فعلي واحتويت حماسي المتوقد ووضعت الموقف في حدوده المنطقية ثم أن «كلثم» هي صاحبة الخيار والقرار، كررت هذا على نفسي فهذا هو الصواب. وعند باب البيت شكرني وقبل أن يستكمل حديثه دوى في سكون الليل صوت طلق ناري، تعودنا هذه

الأصوات طيلة السنوات الماضية فعلق "أبو جواد" ساخراً.. «المختار حمدان يجرب صيد العصافير بالليل»!!

غادرني وهو يضحك وأنا لم أكترث في بادئ الأمر وشاركته نكته الساخرة، لكن.. هنا! ليل "حداحيد" بغموضه يخفي أمراً ما ولربما الشرطة.. دوى فجأة طلق ناري آخر وأعقبه الثالث، ما الذي يحدث؟!

***

صاح الشرطي فوق برج المراقبة يخاطب زميله بالأسفل..

ـ ظننت أنه أحد هؤلاء المخربين من جماعة الشيخ، هؤلاء قتلهم حلال، لكن يبدو لي.. ربما صرعتُ كلباً سائباً. فرد عليه زميله:

ـ بثلاث طلقات؟! لا تهدر ذخيرتك، التفت وراقب المكان جيداً.

بالقرب من المكان ورائحة العتمة تخفي وجوههم الملثمة بالحذر والترقب والتراب البارد يلتصق بملابسهم حيث يسبحون فوق الأرض زحفاً وقد أصبح مركز الشرطة بأضوائه القوية قريباً في مرمى اللحظة الحاسمة.

سعيد يهرش لحيته وعيناه تتسعان في الظلام كفنجاني قهوة..

ـ لو أصابتنا هذه الطلقات لأهلكتنا، أربعة لهذه المهمة بصراحة هذا انتحار.

ـ أنا قائد المجموعة، لا تتكلم، أنت وافقت من البداية، الآن أصبحت خائفاً، أين هو حماسك؟ ارجع إلى القرية.

بحلّق في الظلام وهو ساكت، ينظر إلى المركز من ناحية ثم يكاد يتقهقر للوراء تضربه حيرة الموقف فقال:

ـ لا فائدة، تورطنا في المكان، أي حركة ستقتنصنا رصاصات هذا الشرطي المرتزق يا جاسم.

ـ أنت تكذب، "أبو جواد" أصلاً لم تبلغه بالعملية.

ـ هذا صحيح لكنك اكتشفت ذلك متأخراً، هيا هيا أنا تعبت في تخطيط الغارة، همتكم يا شباب، هذا المركز المؤقت أقامته الحكومة في القرية للمراقبة، يعني يستطيعون تنفيذ الاعتقالات المفاجئة وقتما يشاؤون.

ـ لن يصادر هؤلاء الأنجاس حريتنا.

- نعم، علي، أحسنت.

وساد شيء من الصمت المحدق بالمكان وجاسم يوزع قنابله "المولوتوفية" في عتمة الليل، يوزع نظراته على المجموعة، يومئ برأسه فينحرف حيدر ناحية اليسار ويلحقه سعيد إلى الجهة اليمنى.

جاسم يقرأ ساعته وقد أصبح البرج في مرماه والشرطي في غفلته يضاحك زميله.. فانتصب في كبد الظلام مثل المارد وأطلق صيحته الوحشية سهماً نارياً ضرب البرج، انفجرت فيه النار فسقط الشرطي الأول من على السلم والثاني نشبت في أنفاسه المذعورة النار وصراخه يملأ المكان والمطر الناري يصب عصف الغضب. سعيد وقف مبهوتاً وهو يراقب النار تأكل المستطيل الخشبي وقد انفلت منه شرطي يهرول محترقاً حتى اصطدم بسيارة الدورية، قفز علي من سطح المركز، صاح مكبراً وتعاقبت قنابله الحارقة تحرق ما تبقى.

ألسنة اللهب استولت على المكان ولا شيء سوى هسيس النار تحتفل معربدة بطعم الموت، الموت شاخصاً في عيني الشرطي يترنح متشقلباً مع جسد حيدر في صراع أخير وأنفاسه تتلاحق وقد أحكم قبضتيه على عنق حيدر يكاد يستسلم لموته، صارماً بدا بنظرته الفارغة وهي تقترب من حفرة اللحظة الأخيرة والنفس ينحبس، الموت ولا شيء آخر، يعتفر حيدر والشرطي يطلق ابتسامته البلهاء ينضح بعرقه ولعابه يتساقط لكنما علي..

علي يقتحم المكان وقد فوجئ بالمشهد، غامر بدخول الأتون الملتهب وعاجل الشرطي بمديته بضربة مباغتة ارتد على إثرها يحاول منع دمه المنفجر من عنقه، فيركله علي إلى حطام النار.

نداءات جاسم منهكاً ينفض غبار الغارة عن ملابسه جمعت الرفاق، علي يُسند حيدر بالكاد يقدر على المشي، جاء إلى سعيد وخاطبه:

- قنابلك معطلة أم شلك الخوف؟!

- شُمَّ رائحته.. لقد احترق رأيت هذا رأيت، هناك.. الشرطي.

- غبي لا فائدة منك.

خطف منه زجاجة "المولوتوف" وصفع بها السيارة، مضى الأربعة من المكان والنار لا تزال في ذروة احتفالها في ليل "حداحيد".

الفصل الرابع عشر

- أنت أيضاً مثلهم، غبي.

طرح محمد الأسمر صينية الشاي على سطح الطاولة الزجاجية محاولاً إخفاء انزعاجه من المختار وخائفاً بذات الوقت من سطوته وقال:

- الله يسامحك يا "أبو جميل".

- غبي ولا تفهم شيئاً، أنت لا تعرف القرية مثلي.

- قلت لك، صفيحة "كاز" وعود كبريت واحد يحل الموضوع!

رشف من كوبه رشفة سريعة وجذبه من كُم ثوبه وزرع عينيه الشرستين في وجهه.

- أنت متهور ولا تفهم، القهوة التي تريد حرقها تجمع شملهم وهي مصدر معلوماتنا، لا أدري من أي داهيةٍ جئتني يا...

ادلف عني.

- لحظة لحظة، تعال لَمّ حذائي.

- إنه يا محمد، ذات يوم سيقّبل أبو جواد حذائي مرغماً يتذكر حليب أمه!

- لازم يتأدب.

- كل مجموعات التخريب في القرية هو محركها، حتى تلك التي أغارت على مركز الشرطة أمس.

- وماذا نفعل؟

ـ لازلت أعتقد أن خرابة منصور تؤوي هؤلاء الجرذان.

ـ نسيت، أفراد الشرطة أعطونا الإذن، أحرقناها بالكامل.

ـ هؤلاء الشياطين من أين.. أين.. أين هي أوكارهم بالضبط؟!

أخذ يمعن النظر إلى نافذته، نهض من جلسته وفتح شرفته، ظل ساكناً يحدق في غروب الشمس.

محمد يشرب كوب الشاي البارد، يهجس بداخله الآن خيباته المتواصلة، فلا هو وصل إلى أنهار العسل ولا هو بعيد عن جحيم هذا الرجل المتعجرف حيث تورط به.

مأزق لعين لا فكاك منه، بعض خياراتنا كوارث لا ينكشف دخانها حتى تأكل النار كل شيء بصمت!

فهذه النار لا دخان لها.. إيه يا مختار الشر والخيانة! يزفر بتعب ويلعن نفسه وقد ذاب في وحل الورطة، يحمل صينية الشاي ويغادر.

***

ترفرف فرحته عند إفريز النافذة، ينقر الزجاج.

تستيقظ "كلثم" من نومها تتبع مسار الصوت من أين يأتي؟!

قد ألفت الصباحات الهادئة نسبياً، لكن هذا النقر!

فتحت النافذة فطار العصفور.

مدت كفها لهواء الصباح يداعب هدوء الروح، تتذكر الآن ذاك المشهد المحفور في ذاكرتها الطفولية.. وهل تنسى؟!

خضرة المزرعة الوادعة والنخيلات المحملة برطبها الملون ونسيم الصيف يغازلها يلعب بسعفها وهذه العصافير الشقية اللاعبة فوق الخضرة والتراب.

هي أيضاً تحمل روح مشاكستهم وقد عنّ لها تجربة رمي العصفور بحصاة صغيرة؛ مجرد حصاة تختبر بها فزع العصفور يلعب فوق أغصان شجرة الليمون.

كالعادة، سيهرب محلقاً برشاقة جناحيه الصغيرين قبل أن تدركه

الحصاة.. الحصاة تصطاد ضآلته وتغتال طيرانه فيسقط!

يسقط في جدول الماء يتعفر.. أهي حصاة من يدها أم من الشيطان؟! زيّن الفكرة لها وتركت العصفور وهي تبكي. ينتفض في الذاكرة والروح، عصفور مسكين ويد شريرة.. تتأوه في وجه الصباح تحاول إقصاء الذكرى عن مكامن ألمها أو ربما تعلل ما حصل بخطأ غير مقصود لإراحة وخزات الضمير.

حولت بصرها إلى الشارع هرباً من رؤية الأشجار حتى لا يتعاظم تقريع النفس الآثمة وانتفاضة موت العصفور، فدخلت انعطافة الطريق سيارة أجرة.

السادسة والنصف صباحاً وقت مبكر جداً للمشاوير الشخصية أم أن هناك..

تشعر برغبة جارفة وفضول شديد في معرفة وجهة السيارة التي.. التي تنعطف الآن نحو بيت عمها..

واصلت طريقها ولم تتوقف، خان رجاؤها وانسحبت عن النافذة بحلم مكسور يستحضر طيف "علي".

يجبرها الآن على تفقد خيالها على صفحة مرآة مشروخة، أربع وثلاثون مضت وعذاب العمر جمر الانتظار الصعب يتراكم عبثاً بين هذه الزوايا، هكذا ببساطة تكبر في وجه الزمن!!

ما يعزيها، هؤلاء الأطفال الصغار، تتكاثر أقدامهم عند عتبة الباب، ملامحهم الشقية وتراب أيديهم وترديد حناجرهم يقرأون القرآن في "ليوان" البيت.

ما أحلاهم يرددون كلام الله المبارك ينزل بطمأنينة نسيمه البارد يطرد وساوس إبليس الرجيم ومشاعر الوحدة وعذابات الأسئلة التي تطاردها مع آلام الدورة الشهرية، تحاسب خيبة العمر وتبحث عن مخرج للأحلام المتعلقة في سجن الأيام.

وجودهم هنا يفرح قلبها.

أطفال بعمر الورد تهدّئ ابتساماتهم شقاء وجروح الأيام، أطفال في "المولد"

يهزجون ألحان صلواتهم على النبي وآله، توزع في أكفهم "المُلَبَّس" والحلوى والمنفور، وهذه أفراح آل المصطفى بلسم للحزن في ظلال الرحمة والمحبة والبركات النازلة من ثغر السماء.

ترددين في فرح متصاعد يحلق بالأمل وهنا وهناك تنثرين الحلوى والمشموم، تتحولين الآن إلى فراشة من ضوء تدورين بين الرؤوس والأيدي وتهبين الأحلام والسعادة.

ولتصدح مدائح آل البيت في المولد الشريف، أبو عبد الله الحسين في "كربلاء" يسمع كل المحبين، يسمع استغاثات القلب الوحيد ويصغي لعذاباتنا.

فقدمي الآن نذر الطهارة والإخلاص، هذه بركات المولد، فسفينة النجاة تحمل طهارة القلوب وحسن السرائر وتحمل.. تحمل تعب الدنيا شتلات خضراء هي زرع الآخرة يا "كلثم".

ما الدنيا إلا بلاء، وما يتراكم في النفس إلا شظايا مما تبقى من غرورنا يحمل زيف الأقنعة التي نرتدي نفاقها.

"علي" يخفي ما يخفي، كلنا لنا أقنعة، تحققي من بواطن الأمور.. هل لايزال كما هو أم حفرت الغربة في أيامه ووجدانه أنفاق التغيير؟!

الحياة لا تقدم ضماناتها أبداً!

"علي" يستريح في الذاكرة طيفاً جميلاً يراكم العذابات والأحلام المعطلة.. أهذا عبث المجانين أم ماذا؟!

المرآة المشروخة لا تقوى على تقديم إجابات كما تتقن تفريغ صورها الآن، تنظيفها قد يتيح للذاكرة زوال غبش المواقف التي نحسن ترجمتها فتتوه منا الكلمات ويدركنا خجل الاعتراف.

مرآة كئيبة قاسية، ما هو العزاء؟!

آلامنا التي.. التي تعري نفسها تختنق في شهيق اللحظة والـ.. أهذه أنت يا "كلثم"؟!

ما كل هذه الشحنة الانهزامية المشينة تُغرق مساحات الروح وتسد أمداء

النور؟!

نسمة هواء تباغت الستارة "الساتان" ترف كمثل كائن خرافي يدخل إلى الحجرة آتياً من عالم مجهول إليك فقط، يقصدكِ أنتِ، فيشملك بذراعيه الهشة يداوي انكساراتك، مجدداً فيكِ الأمل!

يتحدث عن عالمه الغريب.

يتحدث بإشاراته الصامتة محاولاً تكوين صداقة بينه وبينك!

وكم هو ساخن هواء الصيف يؤذي جسده الرهيف مصلوباً أعلى النافذة وهذا إفريزها مزود بأصص الزهور التي أذبلها العطش تقاوم الرمق الأخير، على شفا موتها.

آخ.. يا لقسوة النسيان، الورود البديعة انطفأت ألوانها ولا فائدة من بقائها هكذا تتعذب.

مشفقة عليها أم مشفقة على نفسك؟!

وردة متفتحة أهملها الزمن ولم يشم ريحها أحد.

رفعتِ موت الورود إلى كفيكِ الآن وفم حاوية القمامة مفتوح كقبر وترمين الأجساد الذاوية بصمت آسف.

والاختناق يبلغ ذروته من الوجع، الآن تضيق الزوايا في هذه الحجرة والصباح مرٌّ طعمه بعد كل هذا التدفق الكريه من الهواجس اللامبالية تُفسد يومكِ.

حبستِ نفسك في الحجرة، استولى عليكِ هذا القنوط وسواد تلك الأفكار الكريهة يعاودك من جديد، حتى تجاهلتِ مخلوق الستارة الذي ظل واقفاً يراقب حيرتك وتورط في أحزانكِ المتجددة.

الفصل الخامس عشر

شيء لا أعرف ما هو جعلني أذهب إلى الخرابة، شيءٌ ما خارج سيطرة حواسي أخذ خطواتي إلى هناك. الحسرة تعصر قلبي وأنا أتجول بين هذه الجذوع المحروقة، اجتاحها اللهب الشرير.

آه ما أقسى ذلك وما أصعب رؤية المكان.. «خرابة منصور» الآن بالفعل تحولت إلى خراب مكفهر يرهب الناظرين.

يدّعون أن الخرابة تؤوي الخارجين عن القانون وتوفر ملاذاً آمناً للمخربين مناوئي الحكومة.

إذاً فقد تذرعوا بأكاذيب باطلة لا أساس لها من الصحة، لو كان لهم الأمر لأحرقوا القرية بمن فيها وجعلوها عبرةً لغيرها، فالمطالبة بالحقوق الدستورية أمر محرم لا تستسيغه القوى الظالمة، هذا الأمر ليس بخافٍ على أحد. وما «المختار» إلا أداة قذرة في أيديهم تخدم مصالح الشر.

ماذا يمكن أن تفعل؟

كل الخضرة التي يحتفل بها المكان، أصبحت رماداً وكآبة، الآن نصف وجه قريتي محروق!

هنا عند هذا الجدار الطيني كنت أتوارى متتبعاً خطوات "خاتون" صديقة أختي "كلثم" وقد كانتا ذاهبتين إلى "الجَبْيَه"[1] ذات يومٍ يرقد نائماً في ذاكرتي الطفولية المشاكسة.

---

(1) ـ احتفال خاص بالبنات مع قدوم الربيع.

كطفل صغير لا يحفل به أحد، رفضت أختي اصطحابي معها وعندما طال بكائي وإلحاحي، كل ما قالته لي.. "عيب عليك ترافق البنات، يوم "الجَبْيَه" بس للبنات"!! كنّ يتجمعن في دوائر من الألوان والعطور، أتخيلهن في تلافيف عقلي ساحرات يمارسن طقوس السحر والشعوذة.

كل فتاة تمر على رفيقتها.

هذه تحمل "زَبِيْل"[2] عيش، وهذه تحمل زجاجات ماء الورد وتلك تحمل.. أشياء كثيرة من وراء هذا الجدار رأيتها، ما كنت مستعداً لقبول الاستسلام وتحديث أختي وأمي، أني سأفعلها.

ومضيت بصمت وراءهما دون أن تشعرا بوجودي مندسّاً في أكوام "الهَرْمَا"[3] والنخيل الواطئة، حذراً أقصى ما يكون الحذر أتبع خطواتهما وأسمع حديثهما الذي لا أفسر منه شيئاً.

خاتون تتكلم بخجل شديد عن دورتها الشهرية وقلقها من النزيف الأحمر المتمرد وفضيحتها خلف باب الحمام، نست إغلاقه فدخل أخوها الأصغر فجأة ثم.. ركض مذعوراً من بقع الدم التي شاهدها فوق السطح الإسمنتي وخرج يعلن الخبر!

الأرجح أنها كما فهمت تقصد المرض، نعم تمرض فهذا ما في الأمر! ظللت خلفهما طويلاً أحاول متفهماً اكتشاف طقوس هذا اليوم الأنثوي الغريب وخطواتي متمهلة.. ثم ينقطع نعلي فجأة.

ما هذا بالوقت المناسب، يا له من مأزق، يرفض نعلي المهلوك إلا التداعي ولا أستطيع حياله شيئاً.

رفعت رأسي، بحثت في الجوار، دققت النظر.

لا فائدة اختفتا وراء صفوف العشب والنخيل الكثيف، إيجادهما الآن مهمة صعبة إذا لم تكن مستحيلة بالنسبة لي حيث لا أحفظ تفاصيل غابة النخيل هذه كالكبار ومن السهل ضياعي فيها، الأسلم أن أتوقف وأعود أدراجي.

آه.. الألم يغزو أروقة روحي مباغتاً ينتزع الصرخة والدم، يقطر من بطن

---

(2) . وعاء خاص مصنوع من سعف النخيل تُحمل فيه الحاجيات.

(3) . نبتة برية تنبت في التربة الصحراوية وما بين النخيل.

قدمي اليمنى، تتحشر وسطها شوكة لعينة. فجأة وجدت قامتها الهيفاء منتصباً ظلها قربي، تسألني:

«أنت الذي صرخت»؟!

تسألني هذه الأنثى الخضراء، جلُّ لباسها القشيب المزركش يحتفي بالأخضر ما عدا "مِشْمَرِهَا"[4] المائل للأزرق الكحلي. فمسحت شعري وهي تعاين قدمي وتتمسكن على حالي وتهبُّ لتعالج جرحي.

تقول بأن يوم "الجَبْيَه" مناسبة لا ينبغي أن تفوّت، لكن البنات المجتمعات عند "صاحب الضريح" حيث يحتفلن ويتهجدن بالدعاء وينشدن الأهازيج، لن يرحبن بها! لكنها فتاة مثلهن لِمَ يرفضنها؟!

كنت ساكتاً أراقبها، طرحت سلتها وفرشت بساطاً ما ودعتني مشاركتها الجلسة.. «تعال يا طويل يا ساكت». سلتها مليئة بالتين المجفف وبعض التمر وأرغفة "خبز الخمير"[5] بالهيل. وكان نهاراً رائعاً وغريباً، حدثتها عن صيد العصافير وتسكع الشوارع وشجارات الأولاد، حاولت أن أكبر في عينيها الجميلتين قامت تجمع بعض الحطب اليابس. تصاعد الدخان، هجست في نفسي بعض الخوف، ربما هي جنية النخيل "أم الخَضَر والليْف"[6] التي غادرت روحها النخلة وتجسدت أنسيةً مثل النساء، أكّلتني حتى شبعت والآن ستشويني على نار هادئةٍ فلأهرب قبل أن.. لكنها تواصل ابتساماتها العذبة.

تشوي بعض حبات الكستناء وتعجن بعض التبغ في طاسة معدنية فأحضرت "الكدو"[7] ودخنته بتلذذ.

لا أدري كيف لها أو من أخبرها باسمي؟!

دعتني للاقتراب منها أكثر، كان الربيع في أوله ولا يزال الجو بارداً، ابتسمت من جديد، أخذت جذوة مشتعلة وأنا أراقب بقلق ماذا ستفعل بها؟!

---

(4) ـ غطاء قماشي زاهي الألوان تتشح به النساء عموماً في المناطق القروية.

(5) ـ عبارة عن عجين بالسكر والخميرة يؤكل في الأفراح والمناسبات.

(6) ـ أسطورة شعبية من تراث الريف وهي تعني "النخلة"

(7) ـ وعاء فخاري شبيه بالمزهرية وأقرب إلى شكل الأرجيلة، يستعمل كأداة تدخين في القرية.

متوقعاً أن تكون بحق هذه الجن.. أمرتني أن أباعد ما بين ساقي!

حقاً لا أدري لماذا لم أهرب وطاوعتها.

تركت الجذوة بالقرب من وسط سروالي، أحسستُ بالدفء واللذة ولكأن سروالي يحترق، أعضائي التناسلية تنتفخ، هي تبتسم وأجدها في لحظة جنون تقبض عنان لذتي و.. وتقبض عليّ لا تنوي تركي أفر من محرقتها.. لا أزال أعتقد أنها جنية وما عزز اعتقادي، أنها اختفت بعد ذلك ولم يرها أحد، كما أني لحد الآن أجهل سر الشامة السوداء المطبوعة على خصيتي منذ ذلك اليوم!

بين هذه النخيل البائسة المحروقة الرؤوس أتذكر.

شرعت أتجول منزعجاً أراقب الخراب، وجه قريتي نصف محروق، الآن لو تعاود ظهورها جنية النخيل، لطلبت منها أن تستعمل سحرها الخارق فتبثّ الاخضرار وتعيد بهجة المكان، سأطلب منها ذلك.

أتصورها تواجه العساكر في عتمة الليل، تصيبهم بمسٍّ من الخبل والجنون.. أتصورها تطير وتنثر فوق رؤوسهم رماداً أبيض يورطهم في اقتتال محموم حتى يحرقوا أنفسهم بأنفسهم أو يتحولوا إلى خشب يابس تبتلعه الأرض وينتحر في هوة المجهول.

يا جنية النخيل، ألا تسمعين استغاثات الشجر المحروق وضحك الرماد الآثم وصنيع الأشرار.

ها هنا حتى الحجر يستغيث فلا يُغاث، تعالي الآن حلقي فوق رؤوس النخيل وفجري الأرض بالماء واحمي الناس من اليباس.

أيامنا لا تلد إلا الحزن هنا.. تعبتُ وأنا أناديك مالك لا تجيبين رجاءاتي المتوسلة، حزن النخيل المنكوبة يطيل تعاستي ألوذ ببقايا الذكريات الراحلة، ألا تأتين؟!

هذا انتظاري اليتيم يتأمل مجيئك.. "الجَبْيَه" وطقوسها أكلها الزمن والبنات لم يعدن يتجولن في طرقات القرية إلا بأردية السواد الكئيبة فيختنق ربيع الألوان الذي تعرفينه وسط شهوة قمع الحياة والفرح.

الفصل السادس عشر

صحن عدس ورغيف خبز شعبي وكوب شاي بالنعناع يبرد بدون اكتراثه، شرع يحدق في الناس المتكاثرة على ظهر الرصيف.

نفض السيكارة من أصابعه وداسها بحنق، تآكلته همومه المستعصية، تآكلت إلى حد التلاشي وأحرقت إصبعه ولم يدخن نصفها.

لا يرى إلا السواد.

سواد الحزن الكريه ملفوفاً في كفن موتها الذي مضى مخلفاً في النفس الحسرات و الآهات والذكريات يجمع رمادها الآن.

كل ما تبقى من الأيام المنصرمة.

كانت تخرج في الطرقات باحثة عنه حينما يتأخر أو يرجع إلى البيت ووجهه ملوث بالتراب والدم واللكمات ولا يكترث لحاله المزرية.

مع كل المنغصات والمتاعب التي يتسبب فيها، ظلت تحبه وتحيطه بسياج حبها وعطفها رغم تمرده وجحوده.

"يد تربت على كتفه". حكروش تندلق من وجهه ابتسامة لزجة ويأخذ مقعداً ويجلس.

- حرام عليك تمتع نفسك بهذه الجلسة ولا تدعونا معك.

....

قاسم، قاسم أنت تبكي، ماذا حصل؟!

اقترح «حكروش» تغيير المكان ما دامت المسألة صعبة وقال:

- أنا أكره سيرة الموت ولكن ماذا أفعل أنت صديقي، تعال معي، دواؤك عندي، سوف تنسى كل شيء، لا يمكن أن أتركك، تعال.

***

لا شيء يستحق، تتشابك الأوجاع وتنمو الخيبة في الصدر المخنوق، "حكروش" حتى لا يجيد المواساة أو يفعل شيئاً ذا أهمية، زجاجة خمر واحدة أو أكثر يدعي أنها كافية ليدفن فيها الرجل حزنه وبؤسه. وها هو قد أثملته الزجاجات الفارغة ويؤرجح إصبعه في الهواء ويتحدى العالم بمقدرته على شرب البحر لو تحول إلى خمرة، بدون أن يسكر!

كان مثل المعتوه، يخاطب البحر.

ينحدر قاسم في هوة الألم.

إلى عالم آخر يتبعثر، الآن تعصف كل خيبات الوقت وتنتحر بؤر الضوء في الحفر التي لا مفر له من السقوط فيها.

من يهتم به الآن؟!

الولد العاق المتمرد، قمامة مهملة على الرصيف لا يبالي بها أحد.

كل هذه الخسائر تتوالى دفعة واحدة.. الحياة تسحب هدوءها أو نعيمها بدون تبريرات. الآن.. هناك بيت خالٍ لا ينتظر فيه شيئاً سوى الصمت المطبق المغلف بالفاجعة.

بعض لحظات التعب أو الحنين، يعود ليأكل لقمة وتسأله عن قسوة الغياب وغواية أولاد السوء، لكن لطالما كانت في خزانة المطبخ لقمة هنية تكفي اثنين، حين يحن الدم إلى الدم.

يحدق في الظلمة، في صخب الموج، في أوتار الذكرى البعيدة، إيقاعٌ جنائزي يحتويه الآن.

التعيس "حكروش" في هذيان السكر، ترك ما تبقى من زجاجته يندلق

على رمل الشاطئ ثم بعد دقائق ابتلعه الإعياء ونام.

ها هي الانكسارات تأتي بالوجع وشظايا القهر، إطالة التحديق في اللاشيء عبث مجنون، اللعنة.

يتعب من تدفق الأفكار والتساؤلات ويحتار، إلى أي جهة يركن ويستريح وقد ضاعت المسافات.

يتوسد الرمل، يهادن الحزن، يرسم لوجهه المجهد ابتسامة خائبة، يهرب من عذابات الأشياء، يحاول ألا يتذكر شيئاً من كل هذا السواد الذي يملأ عالمه، سيغفو في أمان وليحترق العالم!

غير أن المفاجأة رمت في وجهه خمس قامات ظهرت بسرعة وانهالت القبضات بسرعة وكأن هجوم الأشباح سيستمر إلا أن أحدهم حدق غاضباً في وجه "حكروش" وناداه باسمه وهو يرفعه إليه وقال :

- الحثالة المنتفعون لا مكان لهم بين الكبار.

ثم غادروا وأكلهم الظلام، العجيب أن شراسة "حكروش" تحولت إلى براءة حملٍ وديع، ربما لشدة سكره لم يقوَ على فعل شيء.

أشرقت شمس الصباح، سحر المشهد يتجلى كأبهى ما يكون، ولادة يوم جديد، فرصة جديدة للمرء ليتحلى بالشجاعة ويحاول تجاوز عثراته ويطبب جروحه ويتفاءل بالأيام القادمة.. ما أجمل مشهد البحر يعانق هذا الدفق الرائع من النور الرباني.

إحساسه يستيقظ فيتذوق ما حوله، إنها المرة الأولى منذ غادر القرية ينتشي وينصهر بطهارة مع نفسه ويمارس تأمل الحياة متذكراً الآن ساحل القرية وأيام صيد "المَيْد" وحفلات الشواء التي كان يقيمها لنفسه بعد رحلة الصيد المتواضعة.

بعض سعف النخيل اليابس يصلح وقوداً وتفوح رائحة السمك المشوي عند ذاك الساحل الأنيس حيث يرقد في الأعماق، صبي صغير بريء النوايا لم تلوثه الدنيا بعد.

هذا الساحل مختلف الآن، متآكلة أطرافه بالدفان العشوائي وزحف الخرسانة المسلحة تندفع في جوف البحر تأكل قلبه، "فلل" مترفة يسكنها غرباء ومزارع تؤوي المجهولين والمشبوهين.

تتكاثر على طول الشاطئ.. تبّاً، ما أقسى المتاجرة في تراب الوطن باسم الاستثمار والتنمية!

يهزّ رأسه آسفاً وتراب الشاطئ ينساب من بين أصابع يمينه و.. هاتف "حكروش" الجوّال يعلن نفسه، هذا الأخير غير مكترث والشمس تصلي جلده، نائم مثل خشبة بلا حراك، الخمرة الملعونة وحادثة البارحة التي لم يستطع منعها وأخذ منها نصيبه.

- أهلاً مادي أهلاً.

- أنت وحكروش تختفيان، تبتلعكم الأرض أو تتبخرون في السماء، لا أدري كيف، أين أنتم؟!

- صوتك رائع حين تغضبين.

- ما أحلاك أنت.. هيا دع "حكروش" يكلمني ما عندي وقت للمغازلة والتفاهات.

ملأ الفضاء بضحكة صاخبة وأعطى ظهره للشاطئ ثم قال :

- عربدة المساء معكِ لها طعم آخر، أتذكرين يوم..

- حاذر أن يسمعك يا..

- حكروش في سابع نومة ولا يدري بالدنيا.

- بسرعة دعه يكلمني ولا تكثر من هريجك.

- إنه نائم كالأموات سأوقظه الآن.

هزّه برفق يريده أن يستيقظ، لكنه صامت. هزّة ثانية وتفقد وجهه، وجده ينزف من فمه.

***

شعرت كأن أحداً يوقظها.. تتقرفص في انزوائها وعلى مقربة منها ألبوم صور مفتوح، زجاجة خمر فارغة ومنفضة سجائر ممتلئة.

خيمّ سكونٌ قاتم على المكان لولا تنهداتها بين الفينة والأخرى وهي تحملق في فراغ حزنها عبر نافذة الشقة المطلة على ازدحام العاصمة، لكانت لقمة للصمت.. الصمت الذي حلّ فجأة وابتلع حكروش.

لِمَ هو بالذات يغيب هكذا على حين غرة في حفرة الموت؟!

فجأة حررت صوتها الغاضب من سكونه.. (أين ذهبت؟! - جبان وتهرب هكذا.. ألم تقل لي أنك قدري التعيس وأوجاعي التي لا يسمعها أحد وانهزاماتي الغبية وأنا دميتك الفاتنة التي تلهو بها متى تشاء.. ها أنت تتركني.. كيف؟! كيف تتجرأ؟!). تردد صوت الهاتف، تركته بلا رغبة في صخبه. ثم وردت رسالة صوتية من قاسم:

(مادي.. الأموات لا تجوز عليهم إلا الرحمة وماذا نفعل غير التسليم بقضاء الله.. لكني.. تصوري حتى فاتحة "حكروش" قاطعها الناس. عموماً لقد استلمت تقرير الوفاة، سأزورك في الغد التاسعة صباحاً، اعتني بنفسك جيداً ولا تسرفي في الشرب).

توقفت الرسالة إلى هنا، صمت الهاتف وهي لا تزال تحدق في فضاء العاصمة من شقتها الفخمة في الدور العاشر التي اختارها هو بنفسه. يومها عرّف بنفسه على غير ما توقعت، تذكر الآن أنه قال بصراحته الفجة..

(هنا ستكونين أفضل، أفضل من العمل في الشوارع الوسخة، وأنت الآن قطة وسخة تخربش بشراسة وتحتاج إلى ترويض وأنا أروض هكذا)!

مفتول العضلات بجسد متعرق نتن وجلافته الكريهة.

تذكره الآن، تلك اللحظة لا تزال.

لا يغادر خياله فكرها، شعرها بخصلات مبعثرة متعرقة تزيحه ببطء متذكرة أصابعه الغليظة تصيب جسدها بتيار كهربائي شهي، نعم تتذكر غزوه الوحشي المحموم.

الفصل السابع عشر

الأوضاع تنفرج، الحكومة الحكومة.. تريد أن تتفاوض.

خرجت من غرفتها وهي ترتدي فستاناً أبيض تتناثر عليه ورود حمراء وكأنها انسلت خارجة من عمق الغابة، يانعة الحضور والاخضرار، «كلثم» لو كان بيدي لغيّرت قدرها ومسحت تعاستها واصطدت حزنها بين كفيّ وسحقته حتى الموت!

ـ فستاني الجديد أحضرته للتو من الخياط، لا تبحلق فيّ هكذا أرجوك، ما رأيك، لا تجاملني، قُل بصراحة.

ـ الأجمل منه، هذه الابتسامة، نعم ابتهجي قليلاً واخرجي من هذا السجن، فستان رائع.

ـ نعم، الحياة يجب أن تستمر. «ضحكت».

ـ أفهم من كلامك أنكِ..

...

الحمد لله، المسكين "أبو جواد"، صبّرناه شهراً بحاله حتى رضت عنه صاحبة الجلالة!

ـ عدت للتهكم، ثم تعال أنت، أصبحت لا تكف عن جنون السياسة، الحكومة لا تتفاوض بسهولة إلا بشروطها.

ـ انسي الموضوع تماماً، حال البلد غريب ولا ندري إلى أين سنصل، المهم

أنت.

- تنظر إليّ هكذا وكأنك لم تفهم، أو تراوغني.

- حسناً، بما أن أوضاع البلد وقريتنا هادئة نسبياً، ما رأيك ليلة الجمعة القادمة.

- من بعد استشارة أمي طبعاً، هذا مهم جداً.

ردت مجدداً إلى غرفتها.

وأنا شرعت أتأمل الفستان الأبيض ذا الورود الحمراء.. أستكون أيامنا القادمة بياضاً يتحدى الحزن المتراكم والصراع المستفحل ولهجة التوتر الذي كبّل حياة الناس وسرق بهجة الأطفال. أتكون الورود الحمراء، عودة الدماء إلى عروق القرية لتنتعش بعد اصفرار مرضها منذ بداية الأحداث؟!

لا أستطيع إغفال هذه الإشارات المتفائلة، هكذا أرى الأمر.

***

لا أحد غير السكون ولا شيء غير هذا القفر يعوي في فؤادي بالويل و..الكلب..الكلب ضخم الجثة أسود مثل الليل يطاردني.. يطاردني وأنا أركض بلا جدوى وقد أخذ الإعياء مني مأخذه حتى سقطت أرضاً وأ.. لا أدري، تخلصت من هذا الكابوس اللعين وليس بمقدوري فعل شيء، هل تعرف متى سنحصل على إفراج؟

- أنا زميلك في العنبر ولا أعلم بالغيب يا عباس.

- أكيد أنت سمعت مثل البقية في المعتقل، أن الحكومة ستتفاوض مع المعارضة لبحث المطالب.

- وإن سمعت، هذا لا يغير شيئاً، أنا ميت هنا!

رعدة باردة تنشب مخالبها في ظهري المتعرق «الموت»!

مجبراً أتذكره الآن، أتذكره جاحظ العينين وخيوط لزجة تتدفق من فمه بجسدٍ متخشب وجدناه في هذه الغرفة الحقيرة المسيجة بالحديد يخنقنا

هواؤها الفاسد، كفساد سجّانينا وقسوتهم حين تركوه ينزف بيننا ونحن نيام من بعد وجبة التعذيب.. مات ومع طلوع النهار سحبوه من السجن، قلبوه على وجهه فوق تلك النقالة القماشية الرثة فضجّ المعتقل بالتكبير ورأيت في أعينهم الوقحة علامات الاضطراب والترقب. خلت أن الأرض تهتز تحت أقدامهم، هدير صاخب من الغضب يشتعل فتيله خلف القضبان.

التصقت بالجدار ودفعت رأسي في أحشائه الباردة، بحلقت في السقف الخرساني وجسده المتشقق، تمنيت لو يسقط ونرتاح، أنا وحسب!

على الأقل سترتاح روحي المعذبة، تلك الحمّالة القماشية ستزورني وتحمل غربتي إلى القرية في سيارة الجيب أو ربما يتم رمي جثتي مثل كيس قمامة بالأرض وفي أي مكان يدفنوني وبلا شاهد؟! قمامة، وإن يكن فهؤلاء لا يتورعون عن جريمة إلا وفعلوها.. هل سأموت في هذا السجن؟!

وستتقاطر الخلق على بيت أبي، تعزيه في ابنه الشهيد الذي قضى على أيدي الجلادين؟!

أتجول في جنبات البيت وأرى كل شيء.. أمي تحتضن ملابسي وصوتها بح وتلاشى من البكاء وكذا أختي الوحيدة تقبّل صورتي تائهة النظرات وأبي يلوذ بصدمة الفجيعة والحي يغلي حزناً والناس تمسح غضبها في حفر السكوت أو ترمي سبابها المنفعل على الجلادين وال..

أرى كل شيء ولا أحد يحس أو يشعر بطيفي المتجول بين حزن الوجوه والدمع والحسرات المحترقة على شبابي.

فزعت مما رأيت، رطوبة الجدار التي تسللت إلى جلدي، جعلتني أهلوس ربما، لا أدري حقاً، سيناريو مخيف.

لكن.. أحقاً هي هلوسة؟! صخب المساجين تصاعد بعنف منذر بعاصفة غاضبة و.. ما هذه الفرقعة المفاجئة؟! يتردد صداها في ذهني وأعرفها، إنها..

الأوغاد المجرمون ألقوا أربع عبوات غاز مسيل للدموع، وتحوّل المكان لغيمةٍ ضبابية، سـ..سـ سأختنق وكل من حولي أصبحوا أشباحاً على وشك

الموت أو ربما ماتوا، ما من منفذ، قبر واحد يجمعنا، الموت مصيدة تلم عذاباتنا في لحظة مباغتة، سأختنق سأختنق، لطفك يا رب لطفك يا..

***

أوشكنا على الموت.

اللحظة التي شعرت فيها بأصوات تتهامس قربي وبعض الأنفاس الدافئة التي تلفح وجهي، أحسست أني فعلاً لا أزال على قيد الحياة.. ناداني النزيل «223» أحفظ رقمه والشامة السوداء على جانب وجهه الأيسر وأنسَى اسمه.

- عباس استيقظ، انتهى الهجوم، استيقظ، لعله مات!

- تأكد من نبضي قبل أن تقول كلاماً غبياً؟!

رفعت رأسي من وهدة الخراب الذي عصف بالمكان، تأكدت أنها هي، هي التي أقبع في بؤسها، حجرة حقيرة تشبه بقية الحجرات المسيجة بالقضبان والظلم وانتهاك الإنسانية. أعرف الآن.. الحياة تعلمنا الكثير.

منذ أن وطأت قدماي هذا الجحيم وأنا كل يوم أزداد معرفةً بما حولي.. قبل سقوطي في غيمة الغاز الخانق، سمعت صوت أحد المساجين «لم أعرفه» كان يصيح:

«خلصوني، سأموت سأموت.. أعرفهم أعرف قادة الإضراب خلصوني»!

إنه أحد هؤلاء الضعفاء الذين يتساقطون صيداً سهلاً، لهذا ليس غريباً أن يعرف مدير السجن أدقّ أسرارنا. كل هذه الاختراقات المعيبة من أُناس تدعي الدفاع عن الحق وهي أول من يطعن في الظلام!

مجرد وصول قصاصة من جريدة مهربة يتكاثر عليها السجناء ويدور اللغط حولها، خصوصاً إن كانت تدور حول الوضع العام في البلد من قبل الصحافة الأجنبية، تُعد مناسبة مثيرة تغيّر من جو الكآبة في المعتقل، فيلعن السجناء الحكومة في ثورة غضب صامتة!

التصق بزاويتي المعتادة وألزم الصمت.

أراقب هذا الجمع المسكين المشتاق إلى نسائم الحرية، وهل البحث في قصاصات الجرائد يجدي؟!

لا خيار لهؤلاء المحاصرين إلا التشبث بكل ما ينتشلهم من هذا الجحيم حتى لو كان وهماً دخانياً سريع الذوبان!

والآن في غمرة حماسهم ينشط الجواسيس.. ما أتعس هؤلاء الخونة الأقزام، يبيعون رفاقهم في العنابر من أجل الحصول على حمام بارد بالصابون كمكافأة لقاء خياناتهم؟!

آه.. يا لهذا الجحيم الملعون الجاثم على النفس.. "حداحيد" أنت وحدكِ الراقدة في صفاء الذاكرة من يشفي بعض عذابي هنا.

أينا يشتاق للآخر أكثر؟

هذا المعتقل ينهشني قطعةً قطعة، سئمت صراخ منتصف الليل وأصوات وهمهمات المساجين الخائفين وجلافة الجلادين والسجن الانفرادي يلاحقني كلما حدث إضراب عن الطعام أو أمر آخر، فأنا أول المتهمين.

فقدت ملامحي، أصبحتُ عصبي المزاج مشتت التركيز، أقبع في عزلتي بين اكتظاظ الأجساد ولا أرغب في شيء!

لحظات «الفسحة» ومغادرة هذه الجدران، تتنزه في ساحة المعتقل، تشم رائحة الحرية المأكولة، الأمر أشبه بعصفور مقيد الحركة في قفص حديدي، صاحبه يقدم له ضوء الشمس والسماء ليخدعه بوهم الحرية، لكنه يبقى حبيس القفص! أضحيت أحفظ تفاصيل يومية كثيرة التكرار.. «هادي» زميلي الذي يعتبرني حافظ أسراره، مللت سماعه يعترف أكثر من مرة، يشرح ضعفه أمام نفسه ووساوس الشيطان، شبح زوجته يطارده فينتابه الشبق والاشتهاء ولا يجد بديلاً أفضل من عصر خصيته في الظلام ولو وجد بقرة في فناء السجن لما تورع عن (...) لأنه مضطر!

منذ عرفته وأنا أستغرب سلوكياته، على الأرجح لا يتمتع باتزان نفسي أو ربما طول فترة اعتقاله بدون محاكمة كحال معظم نزلاء المعتقل جعله

هكذا.

حتى أنني لم أعد أصغي لثرثراته، أحياناً كثيرة أشفق عليه أزجره وأتململ، لكن أعود إليه مصالحاً وجهه البشوش فيعود إلى عادته القديمة.

الثرثرة في كل شيء وعن كل شيء.. يتحدث في تفصيل ممل وطويل عن قصة اعتقاله. الظروف والملابسات ومشاعره ما بعد الصدمة والخوف المنفجر بالليلة الأولى والكوابيس التي تطارده في المنام و.. و.. لا يتعب!

أوقفته عن الكلام بإشارة من يدي وقلت له:

ـ تذكر كل هذه التفاصيل، لكن حين تخرج..

يحلق فيّ بصمت:

ـ حين تخرج يا مسكين.. لن تطيق تذكر هذا الجحيم، أتعرف لماذا؟ لأنك ستحمل كل هذه الأوجاع، جروحاً في ذاكرتك لا تندمل وقد لا تتعرف على صورتك بمرآة غرفتك!

كنت أستشعر صمته الخائف حتى.. حتى غرق أمامي في غيمة حزن أحاطت به، إنه بلا مقدمات يبكي!! أنا لم.. توقعت أن يضحك أو يتجاهل ما أقوله أو يقاطعني لكنه الآن يبكي، هذا آخر ما توقعته، أنا فقط كنت في حومة يأسي أقتات خيباتي المكبوتة وأبوح بتشاؤماتي القادمة التي أراها في مخيلتي، من فرط وجعي قلت ما قلت.

هادي الطيب لا يستحق قسوتي، اعتذرتُ له في سري، شردت نحو نور الشمس من وراء النافذة المسيجة بالقضبان أتذكر أيام قريتي المشمسة وغبار طرقاتها، الذكرى بعيدة ولكن ذاكرتي لن يشوهها هؤلاء الأنجاس.

أخذت بكاءه إلى حضن تعاطفي وكأني أبٌ عطوف يحن على ولده المشاكس، كنت أطيّب خاطره وأزرع فيه شتلات الأمل وأن هذه الجدران لا يمكن أن تهزمنا وتزعزع إيماننا الحقيقي.

الفصل الثامن عشر

دخل مسرعاً وعلى وجهه قلق وريبة وخوف. رفع المختار رأسه عن المصحف الذي كان يقرأ فيه وبحركة خاشعة وبضع تمتمات خافتة أعقبتها إغماضة من عينيه تلاها بتقبيل المصحف ثم قال:

- ما بك ملا عيسى اصفرت ألوانك؟!

- نسألكم الدعاء يا مختار وجعله الله تعالى في صالح أعمالكم. وصلت صينية الفطور عامرة بما لذ وطاب، تركها الخادم ومضى.

- كما ترى، المختار حاله حال الناس يصلي ويقرأ القرآن ويعمل الخير، إلا أن هذه القرية التعيسة تطردني من رحمة الله وتدعو لي بالموت وتتهمني بالخيانة.

....

- ما علينا.. هيا مدّ يدك وأفطر معي وامسح هذا القلق عن وجهك فأنا لا أحب الوجوه المتجهمة في الصباح وخضرة حديقتي الجميلة هنا تفتح النفس، هيا هيا أنت في ضيافتي.

مرت لحظات والإثنان في صمت، لقيمات صغيرة وأنيقة يتناولها المختار وهو يرسل نظراته الفاحصة المستفزة وملا عيسى قلق حتى علقت اللقمة في حلقه وكاد يختنق.

- لأنك يا ملا نسيت بركة التسمية، اشرب اشرب.

احتقن وجهه واحمرت عيناه فقال:

ـ بصراحة مختار.. أنا

ـ أعرف قلقك وسأريحك، أكمل إفطارك وسنتكلم فيما بعد.

ـ لن أرتاح حتى أعرف بالضبط سر استدعائك لي.

ـ حسناً حسناً، الموضوع باختصار وبلا وجع رأس، وزارة الداخلية تراك مصدر تحريض وشغب وطلبت مني.. ملا ما بك ارتعبت هكذا، الأقدار بيد الله وليس في يدي حل!

ـ بس أنا، الله يشهد أنا أنا عـ.. عـ...

ـ يا ملا قلبك طيب ولا تتحمل مزحة صغيرة مني؟!

ـ على فكرة صحيح ما سمعت؟!

....

ـ الناس لم تعد تصلي خلفك ولا تأتمنك على أموال الزكاة وأنك رجل دين محسوب على الحكومة وكلام كثير لا طعم له.

ـ صحيح، هذا صحيح، الأحوال تتغير يا مختار.

ـ تصور كدت أنسى الموضوع المهم الذي استدعيتك بخصوصه.

ـ ما هو هذا الموضوع «أبو جميل» بس بدون مزاح، الله يخليك.

ضحك بصوت عالٍ واهتزت كرشه المنتفخة فقال:

ـ ما رأيك بي بشكل عام؟

ـ شباب والله يبارك فيك، لا يعيبك شيء وأنت أبو جميل خيرك على الكل فمن يرفضك.

ـ إذاً أنت موافق؟

ـ على ماذا؟!

ـ على زواجي من ابنتك «رباب» أو أن مقامنا لا يشرّف؟!

ـ بالعكس بالعكس ولكن الـ.. أبو جميل أنت..

ـ أبو جميل يشتريك ويريدك ولا تهتم، أنا سألت وأجريت اتصالاتي طوال

الفترة الماضية وسيتم الإفراج عن ولديك قريباً.

سكت للحظات وترك مسبحته الفيروزية تطقطق وعينيه مزروعتين في الأرض ثم تنحنح فقال:

ـ يعني بصراحة مفاجأتك بلا.. شيء عجيب والله لا أدري ما أقول؟!

هز الآخر رأسه في ثقةٍ واطمئنان، ذهب بعيداً في حمى خيالاته، يراها في أبهى حلة تتقدم نحوه تمشي بخيلاء وضحكاتها تتلألأ كما النجوم، تمشي قرب بركة السباحة، تتقدم نحو باب الفيلا وتفتحه وصوتها بهمس الموسيقى تناديه... تناديه هذه الأنثى المكتنزة بالخيرات، تشعل أحاسيس ونزوات رجولته، تضطرم كالنار تعصف من داخله.

وهي بشبابها فقط أنسب ما يكون لتستوعب فيضان شهوته، جوع غاضب يكاد ينفجر ولا حتى زوجتان تستوعبان نهمه ولا بد من التغيير!

***

حينما التقيته في قهوة "أبو فخري" بعد إعادة تصليحها وتوفر بعض الهدوء الحذر في أرجاء «حداحيد»، تنهد بعمق ونظر إليّ..

بدا لي يريد الكلام لكنه منزعج من أمر ما.. "أبو جواد" ليس من النوع المتحفظ في مشاعره، الكلمة التي في قلبه تجدها على لسانه الطيب. تشاغلت بكوب الشاي أحدق في الحبيبات المتناهية الصغر، السابحة في السائل الأحمر البني وأنا صامت.

رفع وجهه وابتسم بمرارة ثم قال:

ـ امرأة من «حداحيد» صباح اليوم شتمتني في الشارع!

لم أعلق، اكتفيت بالنظر إليه في اهتمام منتظراً بقية حديثه أخفي استنكاري وتساؤلي..

ـ لكن تعرف.. أنا الملام والسبب فيما آلت إليه الأمور، لا أستنكر توبيخها

وغضبها، هذا صحيح فأنا السبب، أخذني الحماس في مناوءة الحكومة فملأت الرؤوس بالأفكار والقيم حتى تجرع الشباب في القرية هوان العذاب ولكنني أُحييهم على الحق.

قبل أن يواصل نزيفه قلت له:

- السعي وراء الحق يحتم التضحية.

- أي تضحية هذه امتصت نصف شباب «حداحيد» وجعلت الأمهات غاضبات وحزينات.

- تكبّر الموضوع وكأنك تحمّل نفسك مسؤولية كل المساجين في البلد.

- الأفضل أن أسلم نفسي، صحيح ما قالته تلك المرأة.. أنا شؤم على هذه القرية.

أخذت أتململ في مكاني مُنشداً إليه أحدق في وجهه المشحون بالهزيمة غير مصدق، «هذا جنون» قلت له. عاود ابتسامته المرة وحدق عالياً نحو السماء وقال:

- بالعكس هذا عين العقل، على الأقل حتى يرتاح ضميري، سئمت جحيم السياسة، يا أخي السجون أكلت عمري، أحرقت أحلامي. ما دامت الحكومة تريد أن تتفاوض كما يشاع، فتسليم نفسي سيكون جزءاً من الصفقة شرط أن يتم الإفراج عن شباب القرية.

- وأنت؟!

- تعودت السجون ولا فرق عندي، واعتذر نيابةً عني لأختك، لا أستطيع أن أتقدم لخطبتها، أنا في حكم المنتهي!

- أنت تستسلم، لا أصدق!

- جرب أن تكون حياتك مثلي ستعذرني بعدها.

هذه واحدة من نكسات "أبو جواد" عله في ما ذهب إليه كان.. ربما هو يهذي لا أكثر، أوقعتني في حيرةٍ من تداعيات حديثه الغريب المرتبك أصلاً!

الفصل التاسع عشر

أشعلت سيكارة، أخذت تسرح شعرها على صفحة المرآة. تراه ممداً على السرير يغط في سمفونية شخيره المزعج ثم تسرب صوته..

ـ مادي، أطفئي سيكارتك اللعينة؛ إنها تهيج أنفي.

ـ على الأقل لدي شيء أفعله.

نهض من رقاده واتجه نحوها، قبلها في عنقها بحرارة..

ـ قطتي الشرسة ماذا تقصد هه.

ـ منذ رحيل «حكروش» وأنت ملتصق بي لا عمل لك سوى الشرب والهراء.

ـ وهل تعتقدين أن أصدقاء «حكروش» سيثقون بي بهذه السرعة، أنا وبقية المجموعة أصبحنا عاطلين.

ـ المرحوم كان يهرّب تفاهات صغيرة لا تستحق المغامرة.

ـ وهل عندك أفكار أفضل، تكلمي هيا.

نهضت عن مرآتها ونفثت دخان سيكارتها في وجهه، فعرضت عليه حقيبة يد رياضية.

ـ افتحها.

شرع يتفحصها ولم يفهم شيئاً فهزّ رأسه مستفهماً.

ـ مسكين، أنت لا تعرف هذه الأشياء، ابتعد ابتعد!

هتافها المحذر استفز أعصابه..

قفـز بعيـداً بوجـه مـذهول مـن هـول المفاجـأة، وهـي أطفـأت سـيكارتها وأغلقت الحقيبة بهدوء أعصاب وقالت:

- متفجرات!!

- ماذا نفعل بها؟! هل أنت مجنونة؟

- البلد يغلي بالسياسة، معارضة غاضبة وحكومة متوحشة، أكيد هناك زبائن محتملون، ما رأيك؟

- يا مادي إنها متفجرات، هذا جنون جنون وأنا لا يمكن أن..

- أخلاقياتك هذه لا نفع منها هل تفهم، يجب أن نستفيد مـن وضـع البلـد، تهريـب الخمـرة لعـب أولاد، لكـن «حكـروش» لم يكـن يسـمعني، أنـا سأتصرف، أنا من سيلعب يا جبان.

- لعبة خطرة يا مادي.

- جبان.. «أبو جواد» أرجل منـك، عـرّفني عليـه، لا أذكـر الآن إلا اسمـه، قلت لي إنه ضد الحكومة صح؟

- تظنين «أبو جواد» سكّير منحرف مثلكِ، ماذا يريد بواحدة مثلك ها؟

شرعت تحدق فيه بصمت ثم اقتربت من هدوئه، داعبت صفحة وجهه بود غادر وأمسكته!

اعتصره الألم وجمد مكانه بلا حراك وهو مختنق برجاءاته.

- اسحب كلامك وإلا..!

- سحـ..سحبت كلامي سامحيني سأموت!

تركته يترنح من وقع الألم الفظيع وفي الحـال قصد الحمّام غير مصـدق وحشيتها. غير مكترثة بما فعلت، أشعلت سيكارة جديدة، تلذذت بدخانها وقالت:

- حبيبي «قسوم» في المرة القادمة تعلم كيف تكلم ولية نعمتك وإلا ستستيقظ بدونها، ولن تنفعك أحلى مومس بالمدينة!!

قالت ذلك وهي ترتب زينتها ثم غادرت المكان!

***

داست دواسة البنزين بقوة، بجنون، وبلا مبالاة تخترق شوارع الحزن تصرخ بداخلها المحطم.

سهم مجنون هذه السيارة، كادت تصطدم بشاحنة بالكاد تفادتها.

توقفت، انتابها البكاء وتذكرته هذه اللحظة.. «حكروش» الوغد قالها ذات ليلة وهو سكران.. «لا تتكلمي عن الاحترام، أنتِ مومس تلحس فرجها كالقطط في الأزقة»!

لعنت حظها العاثر، سقطت في حفرة عميقة الغور، عادت إلى طفولتها البائسة وإلى «امرأة» تعبد مرآتها وتلون وجهها كل مساء تستقبل الرجال من كل حدب وصوب.

يأتون محملين بعلب البسكويت والهدايا وقناني خضراء يفور منها الزبد المبهج، تتعالى الضحكات ورقص التأوهات، صغيرة لم تترجم شيئاً مما حصل وكانت تبحث في وجوههم، أيهم والدها؟! ولِمَ أمها تستقبل هذا العدد من الرجال كل مساء؟! ولِمَ تطرد هي وأمها من أحياء العاصمة في نهاية المطاف بعد تجمهر الناس الغاضبة على بابهم؟!

ما من أحد واساها وقت الشدة، جراحها ظلت تنزف وتساؤلاتها وكل قلق الأيام التي مضت وكبرت معها.

هي لا تنسى بكاء أمها، ليالٍ طويلة من العذاب.

بالطبع، عذاب امرأة غرقت في نار الحرام، انجلت غمامة الماضي وتساؤلاته وقد نضجت الإجابات في تنور المعصية!

هي الآن تعرف، خمسة عشر ربيعاً تُزهر في جسدها الغض ينتشي بعنفوان أنوثةٍ طاغية تفور شهوة. كلما دخل رجل، تعمد إلى حبسها في غرفتها

لكي لا تشتهيها أعين الذئاب. وتبقى حبيسة الجدران حتى يغادر البيت آخر زبون! فتطل عليها مبعثرة الشعر جسدها ينتفض من التعب، تهذي حيناً أو تلعن الرجال.

عندما تراها على هذه الحال لا تملك إلا الاستسلام والبكاء، تعرف ألا إجابات ولا ثمّة كلام يقال عن تعاسة هذه المرأة التي أصبحت لبوة شرسة متأهبة للدفاع عن نفسها.

حين تجمهر الرجال الملتحون على بابها مطالبين إياها بالرحيل بنجاستها وفسوقها عن الحي، فتحت بابها وصرخت فيهم.. «لِمَ تتجمعون؟! ألا تستحون على وجوهكم؛ تتمرجلون على امرأة ضعيفة» فصرخ صوت غاضب.. «اطردوا الفاسقة من الحي».

فردت بعنف.. «أنا كما ذكرت لكن لا أنافق أحداً والله يشهد عليّ ومخلدةٌ في ناره إلى الأبد ولكن ماذا عن بعضكم ممن يدعي التقى والإيمان وهو.. من يقترب من هذا الباب منكم أحوّله إلى فحمة».

سرت همهمة في أوساطهم ثم انسحبوا من المكان مهزومين، بعدما رأوها تهددهم بصفيحة كاز وعلبة كبريت.

تتذكر الآن تلك النظرة المشحونة بالتحدي والشراسة والغضب للمرة الأولى ترى أمها بهذه الشجاعة، هذه المرأة المستسلمة لقدرها وعنف الرجال المخمورين لا يمكن أن تكون.. من أين جمعت شتاتها وحطامها؟!

تتذكر الآن.. لا يسعها إلا التذكر واستحضار ما سكن في ذاكرة الوجع القدري التعيس وتحدق في أضواء الشارع يكبلها الآن الانهزام والألم، ألم امرأة أخرى لبست جلباب أمها لتكرر الأيام ذات الحكاية ولتزرع في قلب الشوك ذات الشوك!

ما لم تتوقع حدوثه، ما لم يساورها حتى في أفظع كوابيسها.

ها هو يحدث وبهدوء غادر.

كان صباحاً مختلفاً، لم تتصالح مع سكونه ورطوبته، حنفية مغسلة الفناء الصغير التي تعزف لحنها فوق صحون المعدن من عشاءٍ فائت، كأنها غير موجودة فكل ما حولها بدا ساكناً غارقاً في الصمت الميت!

العصافير الهزيلة التي تحط وسط الفناء، غابت وباب البيت مشرع فاغراً فمه بسؤال. وأول شيء تبادر إلى حسها وشعرت بلسع الخوف يحاصرها، فهتفت «أمي».

بحثت في أرجاء البيت، بيت صغير خاوٍ وتساؤلات ممتلئة بالخوف أكبر من هذه اللحظات المجنونة.

ببساطة، اختفت بلا أثر، خلفت وراءها خزانة ملابس مبعثرة الأشياء. علبة ماكياج، زجاجة عطر، ألبوم صور وعلبة دخان.

اجتاحتها موجة جنونية من الضحك، لا شيء غير الضحك تداوي به محنتها، عبثاً تفعل ولا خيار الآن أمامها، تتذكر هذا جيداً.

تناولت علبة الماكياج وتركت الفرشاة الصغيرة تلعب على سطح خديها المتوردين، رسمت شفتين من نار، روّضت ليل شعرها وهذا فستان ضيق مهجور يناسب جسدها الفتي.

فتحت الباب وفي الحال أعلنت وبلا خجل لأول الواصلين من الشارع.. «هي أنت.. ما قولك في الرمان المحلي»؟! طويل القامة أسمر، تبسم في وجهها ودخل ثم..

أصابع رجولية تنقر زجاج السيارة انتزعتها من شرودها، ردت إلى راهن وجعها وواقعها.

سألها الرجل إن كانت في حاجة إلى مساعدة ما؟

شكرته ثم شغلت محرك سيارتها الألمانية وانطلقت في فضاء الشارع البرتقالي، تاركة موسيقى سيارتها تصخب في مساحة الليل حيث «جورج وسوف» يغني (طبيب جرّاح.. قلوب الناس أداويها).

الفصل العشرون

«حداحيد» ثورة وغضب وجنون، أطل على حزنها من نافذتي ذات مساء. كئيبة المنظر، سكن وتلاشى فرحها أو كف عن زيارة قريتنا!

وحدهم جلاوزة المختار يضحكون بالطرقات ويتمازحون، كلنا نعرفهم، يتجسسون في السوق على أحاديث البسطاء والمطحونين يقيمون حواجز تفتيش على مداخل ومخارج القرية ومن يرتابون منه أو يشكون به ينهالون عليه بالضرب ويحتجز بمزرعة المختار ثم تتسلمه دورية الشرطة.

كل شيء هنا خاضع للمراقبة والتفتيش، استفزازات أعوان المختار أصبحت فوق الاحتمال خصوصاً عندما شرع ضائع الذمة هذا الآثم بالاستيلاء على مزارع الأهالي بصفقات شراء صورية، فحوّل «حداحيد» إلى إقطاعية كبيرة تجثم تحت حذائه!

أصبح يتصرف كما سادته الكبار ولا رادع يردعه!

الأقوى هو من يفرض قانونه هنا. هذه هي لعبتهم القذرة في جمهوريتنا المسكينة.

أراقب حزن هذه القرية، حزن يستهلك من أعمارنا وأعصابنا الكثير، كففت عن عدّ السنين منذ أن بدأ هذا الجحيم في الاشتعال. «حداحيد» مسكينة تنوء بثقل عذاباتها.

اقتحم خيال أمي خلوتي المسائية، اقتربت وشرعت تراقب وجهي بصمت

حنون.

ـ ماذا أمي؟!

ـ كأنك تحمل الدنيا على رأسك.

ـ «حداحيد» تغرق، كلنا نغرق، ماذا يجري؟!

...

ضربت إفريز النافذة بيدي وقلت:

ـ هذه «حداحيد» الأعراس الجماعية وفرح الأطفال في الطرقات، انقلب كل شيء، لا تجزعي لو اعتقلوني، ربما هذا الأمر وشيك.

ـ الشر بعيد، الله يبعد عنا السوء والبلاء لا تقل هذا.

طوقتني بحنانها وأنا لا أزال أراقب هدوء مساء «حداحيد» الذي يخفي في طياته الكثير مما نجهل.

طمأنتها أني فقط أهذي بعضاً من أفكاري السوداء، فلست أمارس ما هو مخالف أو سري ضد الحكومة، قلت لها ذلك وأنا بداخلي خوف يكبر من الأيام القادمة، ليس هو الاعتقال ما يخيفني، لكن أمي المسكينة سيرتاع قلبها الطيب وتتجرع الألم من هؤلاء الأنجاس لو حصل.

أفشيت بوجهها ابتسامة مرحة فقط لكي أزيد من اطمئنانها لا أريد لها أن ترتع في حفر القلق وأفسد عليها ما تبقى من هذا اليوم:

ـ لا داعي لهذا الخوف ثم إن نصيب «كلثم» قريب وكلنا.. أوه ماذا قلت؟!

أدركت في الحال ما أنا فيه من حرج، كيف أفلتت الكلمات من لساني بهذا الشكل، كنت سأخبرها ولكن ليس الآن.

ـ صحيح ذكرتني، ذكرك الله بالخير «أبو جواد» لم يرد علينا خبره.

ترددت قبل أن أجيبها والضيق بادٍ على وجهي، أكره أن أخرب فرحتها ثم قلت:

ـ «أبو فخري» المسكين لقد كسروا..

ـ سألتك عن «أبو جواد» جاوبني..

ـ الرجل اعتذر مني وألغى الموضوع من الأساس، فهو بلا مستقبل والحكومة تطارده.

ـ «كلثم» تدري أم..

ـ لم أخبرها بعد لكنها على أية حال ستعرف.

لم تنطق بعدها أمي بأي كلمة، غادرت بصمت وأنا قبعت في دوامتي وأصبحت أفكر في «كلثم» ستختبر طعم الفشل، سيزداد حزنها الصامت ولا أستطيع شيئاً حيالها لكنها ستعرف، عليّ فقط تلطيف الأمر من أجل تخفيف حدة الصدمة.

ـ «كلثم» تشابه «حداحيد» صامتة ومثخنة بجراحها تغرق في انتظار ما سوف يأتي.. تشابهاً مفجعاً ومريراً.

إلا أنها اللعنة حلت على هذا المكان، لا أحد يبدو قادراً على الوقوف في وجه مخططات الحكومة، أشاعت في الأيام الماضية أنها ستتفاوض مع تيار المعارضة ولكن..

تستمر الأمور في التدهور.

اتضح أنها مجرد مناورة سياسية لكسب الوقت، هذا ما أجمع عليه رواد قهوة «أبو فخري» في حديث الأمس.

وكنت آخر من غادر القهوة وتبعني «أبو فخري» بالكاد سمعت صوته عندما أرادني وحرص على أن نتوارى داخل مطبخ القهوة فقال:

ـ عرفت شيئاً عن «أبو جواد»؟

ـ لم أره منذ يومين.

ـ لا أصدق، سيتخلى عن كل شيء ويصمت هذا الرجل مجنون!

ـ ماذا يعني؟..؟ سيترك النضال كي يغادر هذا الوطن التعيس، ولو فعل.. فمن حقه.

ـ متخاذل وجبان و.. وانكشف على حقيقته.

ـ «أبو فخري» لا توسخ لسانك بهذا الكلام الشنيع عن الرجل.

ـ وما ذنب شباب «حداحيد» الذين جيّشهم خلفه، حملوا شعاراته وأفكاره وزُجَّ بهم في السجون ثم به ينسحب، لم يعد رجلاً وسأطرده من قهوتي، إن رأيته ثانية.

نظرت في عيني "أبو فخري"، أستجلي حدة فعله وكلي حزن على ما يحصل من تصدعات تداهمنا في «حداحيد» تجعلنا نتهم بعضنا البعض ونخوّن ونبرّئ ونزايد على وطنية هذا وذاك، ياه يا لفعل الزمن الساخر وشماتته بنا.

ـ لا تتسرع في حكمك على الرجل.

ـ بالأمس قبل إقفال القهوة، سألتني عنه فتاة.. شكلها مريب، تركب سيارة فخمة، ماذا تسمي هذا؟!

ـ نعم أحسنت.. هذا ما تصفق له الحكومة وأتباعها، نار الشك التي ستحرقنا كلنا وتدمر أهدافنا، يكفي يا «أبو فخري» لا أريد أن أسمع المزيد.

ـ لا تريد أن تسمع الحق.

ـ تُشخّصون شكل الحق على أهوائكم، تماماً كحوادث حرق بيوت العملاء، تأخذون الناس بالظن وهذا حق أيضاً هه؟؟ تشردون الأبرياء من بيوتهم لمجرد الشك!

ـ أنت لا تعرف شيئاً..!

ـ الشك يعمي قلوبكم.. اتهمتم «عباس» المسكين الذي يقاسي عذاب السجن، اتهمتموه بالوشاية ضد أبناء القرية وتقديم معلومات للشرطة، حرام عليكم أنتم.. أنتم تتخبطون و«أبو جواد» أنقى واحد فيكم.

سكت قليلاً «أبو فخري» وحسبته استسلم لكنه قال:

ـ لا تتكلم بهذه الثقة، فقد تعتقل.

ـ ولن أكون أحسن من غيري، أنا لا أخاف هذا اليوم لو أتى.

لمحت لهجة استسلام في عينيه، «أبو فخري» ليس سيئ النية ولا يحمل حقداً على أحد، لكن من بعد تحطيم قهوته في اقتحام الشرطة لها مؤخراً، أصبح حذراً وقلقاً أكثر من اللازم يفتش كل شاردةٍ وواردة وأعتقد أنه خائف أو يتوقع غارة جديدة للشرطة تنتهي باعتقاله. لا ألومه في شيء هذا الخمسيني الذي رضع الخوف من الحكومة قبل أن أولد وعرف الكثير في حياته، الرجل يريد أن يعيش بهدوء ويلاصق حائط الأمان طالباً الستر والنجاة وهذا هو حال «حداحيد» أغلب كبار السن فيها يراهنون على أن حركتها السياسية مجرد ثورة شبابية متحمسة ستقضي عليها الحكومة في النهاية مثلما قضت على سابقاتها.

«أبو فخري» المسكين يحاول أن يقنعني بطعم الخوف الذي عشعش بمفاصل عمره، غير واعٍ إلى أن الظروف الدولية اليوم تغيرت، ديموقراطيات العالم الغربي تراقب العالم الثالث وسكرتارية مجلس الأمن تراقب أيضاً مستوى أداء حقوق الإنسان في دول العالم قاطبةً.

يجهل الكثير هذا الرجل، حدود عالمه «حداحيد» فقط، لا يدري عمّا حوله، سياسة القمع صادرت إنسانيته وعطلت حريته. على الأرجح لا يعرف شيئاً عن ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

مضى من أمامي بصمت.

وأنا، تلمست طريقي وكلي شوق إلى اليوم الذي يعم فيه السلام و الحق والعدل أرجاء هذا الوطن الجريح.

أمشي وسط غابة من الهدوء، «حداحيد» التي يدفنها هدوء الخوف. الطرقات خالية، تعمدت ولوج انعطافة أطول متحدياً أي خوفٍ يقبع بداخلي.

قلت «لأبو فخري» أني لا أخاف المعتقل.

إنها المرة الأولى التي أقول فيها ذلك. أكلُّ من يدخلونه يصبحون بالضرورة أبطالاً؟!

ماذا لو.. قلت ذلك في لحظة انفعال، لكني لا أضمن لنفسي شيئاً في

«حداحيد».

قد تشن الشرطة حملة اعتقالات عشوائية وأكون أحد ضحاياها وقد أتحول في عيني «مريم» إلى بطل.

«مريم» التي تداعب خيالي الآن وتسكن شرفات الروح الظمأى، آه، كم عذبت نفسي بهذا العطش الطويل.

ها أنذا أكرر هذا الاجترار التذكري التعيس مرة أخرى، العجز مسيطر عليّ.

كفي عني يا «مريم» ليتوارى طيفك في غياهب النسيان، فلستُ أريد..

الوجع يطعن الروح وأنا.. ما الذي تتوقعينه من عاطل مثلي؟!

وجدت نفسي بعيداً عن حيِّنا، ساقتني أقدامي دون وعي مني حتى بلغتُ زاوية بيت «ملا عيسى» وكانت سيارة الشرطة تنعطف منها وتدخل الشارع بسرعة، تداركت المفاجأة وألصقت جسدي بأقرب جدارٍ خائفاً أبحلق في الظلمة متسارع الأنفاس.

الفصل الحادي و العشرون

من حسن حظي أنهم تجاوزوا المكان دون أن يروني، لكني رأيت هذه الليلة كم أنا ضعيف هش. كل هؤلاء الذين يكتبون الشعارات الجدارية أو يلصقونها في وجه الخطر، ممن كنت أنعتهم في سري بالمراهقين المندفعين سياسياً هه.. اتضح لي أنهم أشجع الشباب في «حداحيد» مؤمنون بهدفهم لا يبالون بالخوف والخطر.

يا لهذه الحياة الغريبة، نشتهي خيالاتها كما نشاء، وتزرع بدواخلنا الوهم، ينتفخ كما البالون ويستمر بالتضخم، نغذيه بسذاجتنا دون أن نلتفت إلى حسم ساعة الحقيقة التي تنسف زيف البالون وفراغه الداخلي.

ماذا لو أنهم اعتقلوني، أنا متأكد أني حينئذ سأعيش أسوأ كوابيس حياتي كبطل فاشل!

هدأ خوفي وتحركت من المكان بحذر، من يصدق ما حدث؟! اللعنة، دولة بوليسية قمعية تصادر كرامة الإنسان، لا أصدق أننا نغرق في هذا الأتون، نستمر في التدهور هكذا ولا من حلول، يخيل إليّ أنه نفق مظلم وطويل يجمع ضياعنا، فنتخبط في المجهول.

وصلت إلى البيت، دخلتُ مسرعاً تختلط في نفسي مشاعر شتى غير واضحة، ربما تنم عن ارتباكي ومقدار خوفي والشجاعة الورقية التي كنتُ أمتلكها.

أأنا قلت «ربما»؟! ما أتعسني يا «حداحيد» لملمي روعتي، ضمي وجعي.

***

أشرقت الشمس وتصاعد صخب العصافير فوق سعف نخيل بيتنا، وجدت نفسي أهتف.. «الصلاة.. الصلاة»!

توضأت ثم أديت الصلاة، صفيتُ ذهني قليلاً وأنا جالس على عتبة السلم الخارجي إلا أن أحداث البارحة ماثلةٌ في ذاكرتي أسترجعها الآن، كرهت.. كرهت تلك اللحظات.

حضرت أختي «كلثم» وشرعت تلوح بيدها في وجهي، انتشلتني من شرودي.

- أحمد، أمي تناديك، أين وصلت بشرودك؟!

- لا أبداً.. لا شيء.

- قل لي، من هي؟ يا ساكت أنت.

- موضوع بسيط، لا تكترثي..

- أنا متأكدة أنها من «حداحيد» هذه التي شغلت قلب أخي، هيا تكلم.

تردد صوتها تستدعي «كلثم» من الدور السفلي..

- «كلثم» أيقظي أخاكِ ليشتري الخبز، ما بالكم اليوم؟!

فتحت الباب وقلبي ينقبض، في خيالي الآن سيارة الشرطة قد تظهر مثل شبح ومن أي انعطافة هنا في الحي أو ساحة السوق. أنا اليوم أضعف وأجبن من أي وقتٍ مضى ما الذي حصل لي؟!

هذا الصباح ثقيل عليّ، ليتك يا أمي لم تطلبي مني..

أنا كالمعتاد أشتري الخبز للبيت كل يوم، أصبح الأمر روتينياً ولكن..

كنت أتوهم لا أكثر لكن رهاب الشرطة شيء نما وترعرع في ذاكرتنا كأطفال، نحن مقموعون من الداخل، أمهاتنا لا تلجم

مشاكساتنا حين نخرج عن السيطرة إلا بالعصا أو الشرطة! فيكون التهديد واضحاً، هكذا نشأنا، لا نحبها ونكرهها ونخافها.

فنرضخ لتهديدات أمهاتنا الحنونة، انحفرت في الذاكرة وقد ترسخت، لا يمكن أن يكون الشرطي أ.. ما هو الشرطي؟! أهو إنسان أم آلة تسمع وتطيع السلطة طاعةً عمياء؟!

أتلفت في محيط السوق، الناس تتحرك بشكل عادي. لقد تعودوا على غارات الشرطة والمطاردات الليلية وأخبار الذين أُعتقلوا وأولئك الذين حُطمت أبوابهم بحثاً عن شباب «حداحيد» تعودوا غطرسة أعوان المختار وجلافتهم مع الأهالي.

لكن هذا اليوم يبدو.. المنشورات الورقية تسيطر على الجدران متوجة بصور «الشيخ» وكلماته «الرصاصاتية» المنطلقة بعدل الحق وصدق الكفاح ضد السلطة المستبدة، المنشورات اليوم كثيفة جداً وهذه صورة «عباس» صديقي وهو يبتسم من وراء القضبان أسفل الصورة تعليق «استمروا في النضال».

شعارات غاضبة ولعنات تنهال على الظالمين والعملاء و الخونة وتجار الوطن الذين باعوا شرفهم ووقفوا مع الباطل.

بينما أنا أتفقد الجدران وأتابع هذه الجريدة الحائطية الحافلة بحرية الرأي والكلمة التي تراكمت عليها طبقات الدهان، لكثرة ما كُتب عليها وما مُسح عنها، مثل سبورة ضخمة، الشباب يكتبون و الشرطة تمسح!

بينما أنا كذلك، أندس وسط الخباز في طابور الناس المتزاحمة شخص ملثم لا نعرفه شرع في توزيع منشورات باللون الأصفر.

لم أتلفت إلى حديث الناس عن مرض «الشيخ» والضغوط التي تحاصره في سجنه والظروف الراهنة التي تحكم البلد، إنما أخذتني المفاجأة حينما اكتشفته.

ابن عمي «علي الخميسي» يتصدر أحد المنشورات، ملتحقاً بتيار «أحرار الوطن» المقيم في «لندن» وهو يتحدث عن المطالب الدستورية وضرورة تفعيل الديمقراطية، المنشور مشدود اللغة وحافل بالحماس يعرّي الكثير من جرائم وفضائح السلطة.

ماذا أقرأ؟!

المفاجأة تستولي على إحساسي، أنا فخور، متفاجئ، مرتبك، خائف غير مطمئن لما ستأتي به الأيام القادمة. تعجلت خطواتي نحو البيت، بعد حوالي ساعتين ستنطلق في القرية تظاهرة جماعية، هذا واضح من بعض الإطارات المرمية في السوق قرب مكب القمامة، ما هي إلا فورة غضب وتكبير ودخان أسود يتصاعد نحو السماء وحناجر غاضبة وأحداث قمع مفضوح لا تكسب منه الحكومة.. مضيت من المكان متشائماً من هذا النهار ويدي على قلبي.

الفصل الثاني و العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

ابنة عمي العزيزة «كلثم» تحية طيبة وبعد..
ثلاث سنوات في الغربة مرت وها أنا لا أزال متأجج الشوق إلى قريتي، وطن النخيل والشمس الساطعة والناس الطيبين.
نعم تعمدت ألا أكتب لكم، وأنتِ تعرفين أني غادرت البلد خوفاً على مستقبلي.
قبل أن أسترسل في الحديث، أود أن تطلعيني على أخبارك، فاتصالاتي الهاتفية مع البيت لا أستطيع أن أسأل أمي «عنكِ» فهي إما أن تنزعج أو تكتفي بالقول، أنكِ بخير فقط!
أتوقع أنكِ الآن.. ربما تدعكين ملابس زوجك وحولك طفل مشاكس يلعب، عموماً إنها حياتك يا ابنة عمي، حياتك التي خرجت منها حينما قررت التضحية بكِ، سامحيني.
لم أجد أمامي خياراً آخر غير السفر ولكني هنا في «لندن» غارق في حب «حداحيد» ولم تفارق خيالي لحظة واحدة لكثرة شوقي لها واهتمامي بما يجري فيها، حتى أنني هنا في حرم الجامعة أسست مع بعض الأخوة العرب،

حلقة نقاشية أو منتدى دورياً باسم «منتدى حداحيد الثقافي» ولكِ أن تتصوري، تحولنا من الثقافة إلى السياسة.

إنها المرة الأولى يا «كلثم»، تخيلي أني هنا في بلد الغربة قد أصبحت أعرف عن البلد أكثر مما كنت أعلم عنها وأنا على ترابها. الصفقات السياسية لحكومتنا العادلة وتجاوزات حقوق الإنسان وملفات الفساد الإداري، بلادي الجميلة تظهر ما وصلت إليه السلطة المتخلفة وما آل إليه حال الناس. فنحن هنا تصلنا تقارير إخبارية كثيرة عن طبيعة الأوضاع العامة وكل التطورات الجارية. التظاهرات التي تحصل هنا يرفع فيها الإنجليز والعرب صور رموز النضال في الوطن مثل «الشيخ» و«أبو جواد» و«عباس» عباس الصيري صديق أخاكِ «أحمد» تتذكرينه أليس كذلك؟

وبقدر انشغالي بالوطن، لم أتمكن من نسيانك «كلثم» هه.. طبعاً حقيقة، اعترافي بها جاء متأخراً، في الوقت الضائع، سامحيني أنا.. أنا هذه اللحظة لا أستطيع إلا أن أتذكرك فيرقص قلبي.

فيما مضى كنت متهوراً أو أنانياً لا أدري حينها كيف.. يا إلهي. لكن صدقيني، لم أستطع نسيانك أو إلغاءك من ذاكرتي، وقد تسببتُ لكِ بجرح نفسي كبير لمّا تخليت عنكِ. لا فائدة من هذا الكلام الآن، بالتأكيد أنتِ الآن «متزوجة» وأرى أني هنا فقط أكتب وأسطر هذه الرسالة في الوقت الضائع، ولك أن تمزقي الرسالة أو تحرقيها، لا أريد أن أوقعكِ في المتاعب ولكن لو.. يعني ربما تكوني..

يا لي من تعيس يمارس حلماً مستحيلاً، أحقاً «كلثم» لا تزالي..؟! مرة أخرى أتمنى أن تسامحيني، بداخلي اختناقات ظمأ، أنا خسرت الكثير حين فرطتُ بمشاعرك الصادقة نحوي، كنتُ غبياً لم أحسن ترجمة الأمور، كما أني لم أوفيكِ حقكِ.

هنا في «لندن» الجميلات يذبن كالزبدة في الشوارع ولكن.. ابن عمك

«علي» وهذا ما يجب عليك تصديقه، فهو ابن «حداحيد» الطيب الذي لايزال نظيفاً من الداخل محتسباً إلى ربه صابراً. المغريات هنا لا تعد وأنا ولله الحمد لا أزال «أنا» لم تغيرني الغربة لأن أهدافي واضحة.

أود التوضيح «كلثم» أني في الفترة الماضية قد تعرفت إلى فتاة إنجليزية تدعى «كريستين» تعرفين جو الجامعة. لقد كان تعارفاً ضمن جو الدراسة وصداقة بريئة وضعت لها حدوداً لا أتخطاها. «كريستين» هذه في مثل طيبتكِ وتشتركين معها في حرف «الكاف»، ستة وعشرون عاماً عمرها، تحب الأدب ولا تحمل بداخلها نظرة عنصرية تجاه الأجانب، صريحة وحلوة المعشر، قد عرفتني على عائلتها منذ حوالي ثلاثة أشهر.

لها أخ أكبر منها بعام اسمه «ستيفن» مهتم بالتاريخ ولا يفوت المظاهرات أو الاعتصامات الطلابية، الإنجليز وهذا ما أعجبت به، يدافعون عن حقوقهم المدنية ولا يخشون حتى من انتقاد نظامهم الملكي، على عكس أوضاعي في دولة الخوف التي نعيش فيها، من يهمس أو يعطس ضد السلطة يهوي إلى التهلكة!!

الأمور هنا مختلفة، عالم مختلف تماماً. تصوري أن «كرستين» لا تقيم مع أهلها، كونها تمارس خصوصيتها واستقلاليتها. تقول لي أنها ملت جو بيت أهلها، ووالدها مجرد عجوز ثمانيني متعب يكثر من ثرثرته النهارية حول ذكرياته كجندي على جبهات الحرب العالمية الثانية، لكنها تحبه طبعاً! هؤلاء الإنجليز أمرهم عجيب.

ربما انجرفت قليلاً في حديثي عن هذه الفتاة، لا أقصد من وراء ذلك إلا وضعكِ في الصورة، الصورة التي عليها حياتي الآن وأنا بعيد آلاف الأميال عن الوطن وعنكم.

وللعلم.. هذه الرسالة بالبريد المسجل، وإن شاء الله تصل إليكِ وأنتِ والجميع في خير وسلام.

نعم نتمنى لكم الخير، تصوري أن هنا في «لندن» منظمات حقوق إنسان تطلب الحصول على تأشيرات دخول إلى البلد ولكنها تجابه بالرفض والمماطلة. طبعاً لأن الحكومة الظالمة ذات النزعة الديكتاتورية تخشى الافتضاح ورؤية غسيلها الوسخ أمام العالم.

نحن هنا وكل أبناء الوطن الدارسون في جامعات بريطانية، كلنا نعرف أن أجهزة مخابرات النظام تحاول التجسس علينا وعلى أنشطتنا، لكن لا تخافي. وقد علمنا أن الحكومة تريد التفاوض مع المعارضة، إنه وضع مخادع لا أكثر، تحرك سياسي خبيث، احذروا منه. عندي الكثير الكثير لأقوله لكِ «كلثم»، لنترك الباقي للخطابات القادمة. لو كنت تمتلكين جهاز كومبيوتر مزود بخدمة الانترنت لكنا أفضل، المهم أن نتواصل يا ابنة عمي، هذا ما أتمناه حقاً. والآن أختم رسالتي من هذا المكان من «الهايد بارك» حيث كتبتها ولم أشعر بالوقت. سلامي لكِ وللجميع، في أمان الله ومع السلامة.

ملاحظة..

نسيت أن أخبرك «كلثم».. مع الخطاب صورة فوتوغرافية لي وأنا بجانب ساعة بيغ بين الشهيرة. «كلثم» أما زلت تدرسين الأولاد الصغار تلاوة القرآن عندنا في الحي؟

أترقب ردك بشوق، كوني بخير وقبل أن أنسى عندي مفاجأة سارة أخبركِ عنها في الوقت المناسب، مع السلامة.

ابن عمك..

علي الخميسي

لندن 9- 1- 1998م

الفصل الثالث و العشرون

كان ينتفض مثل سعفة نخيل في مهب الريح والعرق ينضح من وجهه بادياً عليه الذعر ترتفع يداه في الهواء، يلوح بهما في فراغ الغرفة وهو يصرخ، «ابتعدي عني، لا أريد أن أحترق، ابتعدي ابتعدي ي ي»!.

في الحال هوت عليه تنتشله من هول كابوسه.

الشحوب يلون وجهه الخائف، بحلق فيها مرتاعاً..

- ابتعدي عني لا تحرقيني بنارِكِ لا لا لا!

تعوذ من الشيطان يا أبي هذه أنا رباب، سأحضر لك الماء. يحدق في الغرفة ولايزال واقعاً تحت رحمة الكابوس، يستشعر أشباحاً تضحك تتقاذفه، ثم تظهر «أم قاسم» اللهب يغطي جسمها وهي مسرورة تضحك، تفتح ذراعيها تهرول نحوه بشوق!

واللهب يتماوج بزحفه المخيف على جسدها، تقترب منه وكأنه يهرول في الفراغ بلا جدوى، تقترب أكثر، تلفحه الحرارة المتصاعدة منها كأنها تنور فاغر فاهه سيلتقمه، يراها الآن ما أبشعها، جلدها يشوى ويتفجر على شكل فقاقيع ترمي الدهن والدم.

وكلما حاول الابتعاد عنها، تقربت أكثر.. كانت تقول بصوت مرعب قادم من العالم الآخر «ألم تقل بأنك تحبني، تعال خذني، أنا لك الآن تعال»؟!

تدخل رباب الغرفة، أخذ منها كأس الماء ورشح وجهه قليلاً، شرب الباقي وهو يتمتم بضع آيات من القرآن وجرس الهاتف يرن.

سارعت نحوه وردت..

- آلو - نعم هذا بيت الملا عيسى، من أنت؟

- المختار حمدان يتكلم، الوالد موجود؟

تجهم وجهه قليلاً، أخذ منها السماعة ورد بخفوت:

- أهلاً أهلاً يا مختار.

- حرام عليك تتجاهل المختار، أنا في الفيلا أنتظرك على الإفطار هيا تفضل عندي.

- أبو جميل، الله يغنيك من فضله، أتركها للمرة القادمة.

- بدأنا بالأعذار من الآن، النفس عنك راضية مُلانا وإلا.. هيا هيا لا تتأخر مع السلامة.

نظر إلى ابنته، أخذها في صدره لحظات.. للحظات تأمل قلق وجهها ثم لبس «بشته» الرمادي وخرج.

حث خطاه سريعاً وقلبه مقبوض، «بشتهُ» يكنس تراب الطريق غير عابئ به، الآن كوابيسه ستزداد لا محالة، يستدعيه المختار صباح يوم سبت، بات يكره يوم السبت كره العمى فقد سبق وأن اقتحمت الشرطة البيت وأخذت ولديه في مثل هذا اليوم الكريه.

***

تباً.. سيارتي معطلة وتحرن مكانها مثل «أبو صابر».

أوقفتها على الشارع وصعدت، انضممت إلى بقية الركاب في سيارة الأجرة اليابانية الصغيرة. مشوار هذا اليوم طويل، السيارة تخترق شوارع البلد، تجد هذه المردة الخرسانية تنتصب في سماء العاصمة، مشاريع تحمل العديد من الأسماء الرنانة وما تراه، يُنسب إلى عجلة التطور وإلى خدمة

الاقتصاد الوطني.

حقاً.. والدليل أن شباباً كثراً مثلي عاطلون عن العمل والحياة!

نبهت السائق إلى شركة (...) التي أقصدها، فاعتذر الرجل عن دخول الشارع كونه يغص بالمتظاهرين ومن المتوقع نشوب الفوضى والشغب بالمكان.

وما العمل الآن؟

نصحني الرجل بتأجيل مشواري، الظرف متوتر ولا مجال للمغامرة. وضع البلد على كل الأصعدة متوتر، ما فائدة التأجيل؟! ما فائدة البقاء بلا عمل؟!

أنزلني في شارع خلفي، حاملاً ظرف الورق الأصفر، تقبع فيه أوراقي حيث مشيت فترة طويلة، ما يقارب الخمسة والأربعين دقيقة.

لقد كذب عليّ، لم يكن شارعاً قريباً كما ادعى، الرجل لم يستحِ من شيبته، كان همه اقتناص نصف دينار من جيبي، دفعتها إليه لتفادي تعطلي عند المحطة. هذا «الـ..» لا إله إلا الله، لِمَ أوسخ لساني لأجله، لنترك الخلق للخالق، أنا الآن في حاجة ملحة لهذه الوظيفة.

إعلان التوظيف المنشور في الجريدة فرصة لا تفوّت، شركة بلاستيك كبيرة سيكبر معها الحلم النائم بداخلي. كلما تذكرت الموقف، كم كان مزعجاً.

أحد أبناء عمي وضعني في زاوية ضيقة ونجح في إيذائي من الداخل. قالها وبكل قسوة.. «المجتمع لا يحترم من لا يعمل، إن كل ما تستهلكه، إن لم تجتهد في الحصول عليه فأنت لا تستحقه».

وهل لي قدرة على الرد أو المجادلة؟!

فراغات تسبح في ذهني، لا شيء سواها، لم أكن أملك رداً حتى أواجهه.. هه، رحم الله تعيساً عرف خيباته فابتلع غصصها وسكت!

نعم، ابتلعت غصص كلماته وسكت، كدتُ أنفجر غاضباً مما

حصل. ومن يكون حتى ينصحني بهذا الشكل الفج، الأقرباء دائماً هم هكذا، يدسون أنوفهم في كل شيء.

يا لها من حياة.. يتصورون بنصائحهم، التبصر في خفايا القدر وقراءة الأيام القادمة، واهمون لاشك بما فيهم ابن عمي السخيف أفسد عليّ يومي.

أتذكر ما حصل وأشعر بماء مالح يملأ أنفي وحلقي، كم كان موقفاً سخيفاً، كبّلني العجز اللعين يومها.

لكن هذا اليوم.. سأفعلها حتماً، الوظيفة في جيبي!

وبلغت المكان، المبنى متوسط الضخامة وعلى البوابة الحديدية السوداء حارس أمن يدخن يبحلق بسيكارته ويتلذذ بتدخينها ثم نهض من على مقعده الخشبي العتيق.

أفهمته أني على موعد مع مسؤول التوظيف.

الحمد الله أنه صدقني، الكذبة أخذت مفعولها بسرعة، أنا أعرف مسبقاً كيف أتعامل مع هؤلاء، بعض الشركات لا تستقبل العاطلين إلا على بواباتها وتترك لحراسها مهمة تسجيل طلبات التوظيف لكي لا تزعج نفسها بقرفهم.

الآن وقد فتح بوابة الشركة، أستطيع إتمام الباقي عند مقابلة مسؤول التوظيف، بدا مرتاباً مني بعض الشيء لكني لم أكترث به أو هكذا مثلت دوري حتى أدخل المكان بكل ثقة ولو بكذبة صغيرة.

دخلت وتجولت في المكاتب أقرأ اللافتات وأنا وسط الممشى، على اليمين مكاتب وعلى اليسار مكاتب ورأسي تدور في حيرة من كلا الجهتين، حتى ناداني صوت امرأة من أحد المكاتب.

التفت إليها وطرف بصري لبابها واللافتة تقول.. «شؤون التوظيف» تنفست براحة وجلست بعد أن أشارت لي نحو الكرسي، كانت في الـ.. لم أحدد عمرها، لا تزال جميلة وهي طيبة اللسان، أعطيتها أوراقي.

- أنا أبحث عن عمل.

أخذت الظرف وأبقته على سطح المكتب ثم ناولتني علبة محارمها الورقية المعطرة. في الحال أدركت كم أن شكلي بدا مُحرجاً وأنا غارق في عرقي وربما فظيع الرائحة!

- ماذا تشرب؟

بدوت متردداً من كرمها ولطف استقبالها. رفعت السماعة وقالت..

- مرزوق، اثنين ليمون، نعم في شؤون التوظيف.

بللت جوفي الساخن بالشراب البارد، تفاءلت وأخذت أراقبها وهي تتفحص أوراقي بعناية.

دقائق مرت ثم قالت:

- إن شاء الله خير، لا أستطيع أن أعدك بشيء حالياً، لكني سأحاول.

حاولت أن أشرح لها ظروفي، وجدت في وجهها بريقاً من الرأفة والحنان والصدق، فاكتفيت بالقول:

- أقدر لكِ تعاونكِ معي.

- راجعنا بعد أسبوع، بالنسبة للعنوان..

- العنوان على قرية «حداحيد» لم يتغير، أنا من سكانها.

وجدتها تهز رأسها وقد شرد فكرها وهي تردد..

- قرية «حداحيد» «حداحيد».

- تعرفين القرية؟!

- أبداً لا لا.. لا تهتم، كما قلت لك راجعنا بعد أسبوع وأهلاً بك.

الآن أمتلئ بشحنةٍ من الأمل يزهر بداخلي، أشعر بأن هذا اليوم مختلف.

اندفعت خطواتي في الشارع، لهيب الظهيرة الصيفي أكاد لا أحس به، فثمة رياح ربيعية تجتاح مساحات الجمر في روحي يسكنها بعض الفرح الآتي.

الفصل الرابع و العشرون

في برج جبروته العالي يضحك بخبث، يؤرجح مسبحته، يتلاعب بفترة الصمت المطبق على خناق الملا عيسى، يرشح العرق من وجهه غير مصدق لِمَا سمعه من «المختار».

كلمة واحدة فقط قصمت ظهره.. «المختار ليس نائماً عمّا يحصل في حداحيد»! هذا يعني شيئاً أو أشياء، جواسيس «المختار» يعرفون ما يدور، نقلوا له اللحظات الأخيرة لأم قاسم و.. لتتساقط السماء عليه كنيران الشهب، إنها اللحظة المجنونة التي سيظل يحاسب نفسه عليها ما بقي حياً!

«المختار» يعرف، وما دام يعرف.. نعم نعم إن كان لابد من حلفٍ مع الشيطان فليكن، أصلاً أهل «حداحيد» باتوا يمقتونه وقد عرف الآن قدره عندهم، سقط كرجل دين منذ رافق حمدان «المختار» وهو فقط الجدار الذي سيحميه.

- «أبو جميل» تم الأمر، خذ رباب على سنة الله ورسوله.

- وأنت «عمي» منذ هذه اللحظة.

وكل ما تأمر به أنت ورباب لا يناقش، أدخلت البهجة و السرور على قلبي يا ملا.. «أشعل سيكارة ودخن بسعادة».

- «أبو جميل»، أنا..

- أنت في حمايتي وأي كان لا يستطيع التعرض لك، خلاص نحن أهل

الآن ورباب..

- رباب سأقنعها، أقصد أنها لن تجد أفضل منك، هذا شرف كبير لنا.

- أحتاج إلى سيكارة هذه اللحظة بالرغم من تركي التدخين من حوالي عام وسجائري.. وسجائري لا زلت أشتريها، تصور يا ملا.

***

أشعلت أنوار شقتها الهادئة، ثم جلست، شغلت جهاز التلفزيون، مكثت أمامه لحظات ونهضت. دخلت حمامها وتركت عريها أمام مرشاش الماء يسكب قطراته المندفعة فوق هذا الجسد. تتحسسه الآن، اللعنة.. أعلى الصدر جهة اليمين محفورة جمرة سيكارته.. «حمدان» الكلب، مدينة نساء فاسقة، فنادق البلد تعرفه وتشتري خدماته. تعرفه جيداً «مافيا دعارة»، تعرفه أكثر من أي إنسان آخر على وجه الأرض.

خبيث وماكر لا يسلم منه أحد، أوقعها في فخ كلماته وهي غضة القلب وطيبة النوايا فأكلت الطعم!

جمرة، جمرتان، ثلاث، أربع، خمس، ست..! يا لجسدها المسكين، الماء ينهمر من المرشاش ولكن هذا الجسد لا يقدر على تطهيره صابون العالم بأسره!

الملعون دبّرها خديعةً في وضح النهار، وهي كانت مجرد فتاة عشرينية متواضعة تحمل من تعب الدراسة شهادة ثانوية تحملها في ملف بلاستيكي وتتجول في جحيم المدينة القاسية تبحث عن عمل.

هو فقط استقبلها في مكتبه بالفندق وكم كان طيباً معها حتى صدقته وآمنت أن دنياها لا تزال بخير.

ويا كل هذا الخير ما أحلاك.. في غمضة عين تسلمت مكتباً صغيراً لا تعرف بالضبط طبيعة عملها ولكن الراتب مغرٍ وتساؤلاتها تتكاثر مثل

حيرة وجهها وهي تطرق باب مكتبه الفخم.

تستطيع طرق الباب فقط، متواضع هذا الرجل، حتى أنه بدون سكرتيرة. دعاها إلى الدخول، رأته مكتسياً بتقواه ومشرقاً بإيمانه، فرغ للتو من قراءة القرآن أو أنها قطعت عليه، أنّبت نفسها.

ـ نعم يا علياء..

....

... أنت تعملين الآن في فندق محترم ولا تزالين على خجلكِ، أنهيتِ ملفات الحسابات؟

ـ سأحضرها لقد نسيتها بس.. يعني، أهذا هو كل عملي في الفندق أنا تقريباً لا أقوم بشيء، أحضر في الثامنة صباحاً وأنصرف في الثانية ظهراً، أنا على هذا الحال من شهرين!

ـ لا اليوم عندك «أوفر تايم» احضري في الثامنة مساءً، سأراجع معك الحسابات وقد نتأخر لا أريد أية أعذار.

ـ حاضر.

ـ علياء، الأيام الماضية كنتِ تحت فترة الاختبار وقد شهدت الإدارة التزامكِ بالدوام الرسمي وهذه أوراق تعيينكِ وقعيها.

الماء ينهمر في حضور أريج الصابون.

يشتد عصف الذكرى، جرحها الآن يفتح وجع الأمس، أخذتها براءتها وهيئته الكاذبة إلى دهليز مظلم، أحرق عشب شبابها ودنس غابتها.. تنزف الآن لحظات الخديعة التي وقعت في حفرتها..

دخلت عليه مكتبه كما طلب، كان متأنقاً ببدلة رمادية ذات خطوط إيطالية، استقبلها بابتسامةٍ عريضة ودعاها إلى الجلوس بالصالون.

جلست على استحياء وهي تحتضن ملفين ثقيلين، تتذكره كيف سحب بهدوء ما عندها وأفهمها أن العمل لن يطير وأن هذه الدنيا الفانية لا

تستحق كل شقائنا.

ثم تدفقت من زوايا الصالون على نحو مفاجئ موسيقى حالمة وخفت شدة الإضاءة تدريجياً، لحظات مرّت وهي صامتة تحاول إخفاء ارتباكها وقلقها، لم تكن تعرف ما سيحدث، تتقلب في نيران حدسها بأن هناك أمراً غريباً.

طرقات خفيفة على الباب، جرسون آسيوي حليق اللحية يدلف إلى المكان مصحوباً بعربة مدولبة، قدم انحناءة مسرحية لبقة ثم مضى بهدوء والموسيقى تتدفق بنعومةٍ آسرة، ثم قال:

- لا تندهشي، كوني مدير الفندق، فهذه الغرفة لها مميزات خاصة، لها نظام الكتروني مبرمج و.. لنترك هذا الآن ماذا تحبين؟

- أي شيء..

- خذي اقتراحي بتجربة هذه الشوكلاته.. سويسرية أقدمها لكبار الضيوف والنزلاء، الفندق يستوردها بشكل خاص، تذوقيها.

وتذوقت طعم شره، دقائق وشرع كل شيء بالدوران، تحاول إيقاف هذه الدوائر التي تحوم أمام عينيها، تحاول الابتعاد عنه وقد التصق بها وفمه يتجول بحركة محمومة على خارطة جسدها الفائر. الملعون سرق ما أراد وما هي إلا ساعة الخراب، وضعت أوزارها فانكشفت رائحة الرماد مع انبلاج الصباح.

طعمها كريه هذه الذكريات.

تشعر الآن بالهزيمة والعار رغم مرور عشرين عاماً.. وضعها في ماخور في حي شعبي فقير، حولها إلى رقيق يبيع المتعة الحرام وقد قذف بها إلى جحيم عالمٍ آخر.

تخرج من الحمام وهي لا تزال ترمق جسدها باحتقار وتراه غارقاً في عفونة الدنس والمعصية. يهديها تفكيرها إلى خزانة الملابس تعرف أين

خبأتها بالضبط.

الصورة آخر شيء بقي معها بعدما فرّت من ذاك الحي البائس، كم كانت صغيرة الملامح، تتفتح على ربيعها الـ.. نسِيَتْ!، قربتها من فمها وقبلتها بكل شغف السنين العجاف وشرعت تبكي.

وفجأة.. انتفضت بغضب وصرخت.. سأجدك، هذه الدنيا بطولها وعرضها لن تخفيك عني يا حمدان النجس.

تذكرته، ذاك الشاب من «حداحيد» هو الخيط المطلوب. وهي الآن تكاد تتوصل إلى شيء.

تعتصر أفكارها عن تلك الليلة المشؤومة، هناك في الفندق نعم نعم، الروزنامة المكتبية التي نزع منها صفحة من شهر مارس، كانت تحمل إعلاناً عن «صندوق حداحيد الخيري»، أيكون «حمدان» من قرية «حداحيد»؟!

الفصل الخامس و العشرون

كم هـي لحظـةً رائقـة تغـني ـ في أعمـاق القلـب، لا شـيء الآن يعـادل هـذا الإحساس الرائع.. حقاً إن الرسالة معنونة باسمها وهذا الطابع البريـدي الـذي يحمل صورة الأميرة ديانا تخليداً لذكراها، يؤكد إن الخطاب من لندن من ابن العم الغائب والحب الذي..

قبّلت الرسـالة في حب وتلاحقت أنفاسـها وهـي تقـرأ، الفرحـة تحيطهـا الآن، تسـتعيد تلـك الأيـام ويتلاشـى ألمهـا مـن فـراغ الصـمت الـذي حاصـرها وكاد يقتل بداخلها ذاك الاخضرار.

أتمت قـراءة الرسـالة وكـان الحمـاس قـد سـيطر عليهـا، هـي الآن مثـل فراشةٍ نائمة أيقظ نومها ندى الصباح، في الحال قامت تبحث عن دفترٍ ما لتكتب، يستبد بها إحساس اللهفة والفرحة، هذه الرسالة حركت سواكن نفسها وأشعلت ما خمد طوال تلك السنين من الخيبة التي استوطنت نفسها، الآن لا شيء يقف في طريقها لتفجر كل هذا الشوق المحتبس.

وجـدت في أحـد الأدراج الـدفتر الـذي كانـت تبحـث عنـه، انتزعـت مـن أحشائه البيضاء صفحة وتركت مساحة عطشها ترتوي من حضور الضوء الذي أطل على عالمها فكتبت..

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن عمي العزيز - أهلاً وسهلاً بك بعد هذا الغياب، إنها والله لفرحة لا توصف، فرسالتك المفاجئة بعثت الحياة في عروقي مثل نبتةٍ برية يابسة باغتها المطر.. وكل كلماتك اليوم مثل عذوبة المطر يزور عالمي المجدب.

كم أنا سعيدة بهذه المفاجأة.. خصوصاً وأننا هنا في الوطن لم نعد نعرف الفرق ما بين الأشياء لأن ألوانها استحالت إلى اللون الأسود أو الرمادي.. الحزن يعشعش هنا ولا نكاد نتنفس إلا لغة القمع. كنت مُحقاً حينما غادرت البلد، نظرتك صحيحة، فها هنا الشوك يملأ الدروب والكل يبحث عن نهاية لهذا الكابوس.

لكن.. لا تقلق، كلنا بخير وعافية.

بالنسبة لي، فلا أزال في بعض "العصاري" أُدرّس طفلاً أو ثلاثة تلاوة القرآن الكريم، هذه أنا «كلثم» ابنة عمك التي لم تتغير، المهم أنت، لا تترك «كرستين» هذه الإنجليزية تؤثر عليك وأ.. أعتقد أنك تفهم قصدي جيداً.

«حداحيد» بخير مهما اشتد ظلمهم، «أبو جواد» الذي تتحدث عنه لم يتأخر في شيء، إنه حقاً شجاع ومناضل رغم كل التضحيات التي دفعها. تصور.. تقدم إلى خطبتي من فترة ثم تراجع فجأة!

وها أنا أخيّب ظنك الآن.. أنا لازلت كما أنا، هيا اجتهد في دراستك وستجدني أنتظرك، بالنسبة لي لا شيء يستحق العتاب، سامحتك يا ابن عمي، كل جوارحي تنطق هذه الكلمات والله تعالى يشهد عليّ.

أثق بك تماماً وأؤمن بأنك.. أنت تعرف..

الآن فقط لا أدري لماذا تذكرتُ قصة القطة الشقراء التي كنت تحتفظ بها وأنت لا تزال طفلاً، هل تتذكرها؟ في كل مرة تنهاك امرأة عمي عن إدخالها إلى الحجرة لكنك عنيد تصر على تنويمها

معك تحت لحافك القطني المزركش حتى جاء اليوم الذي تبولت فيه عليك وأنت نائم!

الآن.. أخمن مدى إمارات الرضا على وجهك وأنت تقرأ كلماتي، ستجد حالة من الإرباك ما بين السطور، هذا لأن المفاجأة فعلت فعلها وتوقيت رسالتك رائع حقاً كوني سئمت الحياة.. أستغفر الله، لا أعني الكلمة بحذافيرها لكن بشكل ما، قصدي أن الأمور بعد سن الثلاثين أو أكثر، تستولي علينا فتطاردنا الأحزان أو نحن نفرط في الكآبة لا أدري على وجه التحديد لكن.. هذا ما حبسته في سري طيلة سنوات غيابك يا «علي»، شعور أنثوي قد تجده محيراً بعض الشيء ويحتاج إلى ترجمة.. أليس كذلك؟!

تماماً مثل رياضتك الصباحية التي كنت تمارسها في فناء بيتكم، إلى اليوم لا أزال أستغرب من مواظبتك عليها وإن كنت لا تزال تمارسها فسوف تسلم من لغة «الكروش» وتبعاتها.

ها أنذا معك، مستعدة للثرثرة مهما طالت الرسالة، فعندي حديث طويل وأول الغيث قطرة كما يقولون، فقط تصبّر عليّ قليلاً.. اتفقنا؟

بالمناسبة.. أصبحت مدمنة تماماً ومواظبة على الاستماع لإذاعة B.B.C البريطانية، من هذه اللحظة تستطيع مناقشتي في شؤون الساحة الدولية، لتتصور «علي» كم اكتشفتُ الفرق ما بين إعلامنا والآخر.. هناك بون شاسع في كلا الخطابين، الخطاب الإعلامي لدينا يُجمل نكسات واقعنا ويخفي حقائق الأشياء، بمعنى أدق، خلق ماكياج إخباري يساعد السلطة على الكذب والضحك على ذقون المواطنين!

أما الإعلام الآخر، فهو يحمل مصداقية الطرح والنزاهة، على الأقل B.B.C تنقل ما يدور هنا وتسمي الأشياء بمسمياتها دونما مراوغة أو تحايل يمارس الكذب والاستغفال.

أتعـرف..؟ لـولا خـوفي مـن (الحكومـة) لكنـت تزعمـت هنـا في «حداحيد» تظاهرة نسائية محتجة ضد إعلامنا الموجه، فمن يدري.. ربما تُرفع صور «كلثم» في العاصمة البريطانية؟! أنا أمزح فقط.. يهمني أنك بخير، شكراً على الصورة، تبدو رائعاً بهذا المعطف الإنجليزي.

أما عن موضوع الكومبيوتر والأنترنت.. فما دمت أستطيع التواصل معك بالرسائل البريدية العادية، فلن أقلق بعد اليوم وسوف تجد خطاباتي طريقها إليك حتى تمل مني! ومرة أخرى أقول لك.. إن أوضاع «حداحيد» لا تسر، فالمختار حمدان، تضخم وأصبح مثل الحوت، هو صوت القمع في قريتنا وسوط الحكومة، لديه حثالة من المنتفعين مسلحين بالهراوات يعيثون فساداً ورعباً باسم السلطة التي ترفع شعارات الدجل والكذب.

مهما يكن، سنكون بخير أما أنت يا علي، لا تُغرق نفسك في بحر السياسة، أريدك أن ترجع إلى وطنك سالماً، أنا و«حداحيد» وأهلك ننتظرك بفارغ الصبر.. أستودعك الله وألقاك في خطاب آخر فلا تبطئ - مع السلامة.

ابنة عمك الوفية..
كلثم 1993/2/7

غمرتها الفرحة وقامت تدور حول نفسها في رقصةٍ مفاجئة هنا في صمت الغرفة حيث يحدثها إحساسها بأن ذاك الاخضرار الذي كسا قلبها وحبها ها هو يعود بعودة الأمل، متجدداً يرسم الفرحة ويطرد ظلام الروح والأيام.

هي الآن تعرف هذا جيداً وتتقب إحساسها محاولةً إنعاش ما انطفأ. فتقدمت من مرآة غرفتها وشرعت تسرّح شعرها وتتفقد خارطة وجهها المكتسي بالسعادة وقد انزاحت عنه غيوم الحزن.

ولمَ لا تتـزاح هـذه الغيـوم؟! وهـا قـد رفعـت صـورته الآن وأخـذت تتأمـل ملامحـه الوسـيمة، تحـاول بأصـابعها اختـراق ورق الصـورة، فهـداها حدسـها وحنينها إلى تقبيله الآن بكل عنفوان الشوق المحبوس في صدرها وفجأة..

وقع انفجار مروع هز سكينة نهار «حداحيد» التي لا تعرف بعد إلا المزيد من الأسئلة والخوف على خلفية الصدمة.

الفصل السادس و العشرون

بعد أسبوع وها أنذا عند باب مكتبها، كانت تواصل العطس في نوبة إنفلونزا على ما يبدو.

ـ السلام عليكم.

ـ أهلاً.. تفضل تفضـ..

عطست ثانية وكم كان وجهها محتقناً وأنا كلي شوق وترقب أتمنى أن أحظى بفرصة عمل لأتخلص من حالة البطالة التي تكفن أيامي، فلا تفتأ الناس تتطفل وتسأل وتسديك نصائحها المجانية أو هدايا تقريعها اللامبالي، فقط لأنك عاطل، وهكذا حال لا يُحتمل.

أمي بالذات هي أكثر ما يحزنني، أرى في انكسار نظراتها وحيرتها أحلاماً تتمناها الأمهات لأبنائهن، ينتظرنها بفارغ الصبر وهي أكثر من صبر عليّ ولاشك فهي لا تتمنى أن تحترق هذه الأحلام في النهاية.

ثم عطست بعنف هذه المرة، انتابها شيء من الإحراج فقالت:

ـ ماذا أفعل، الإنفلونزا ذبحتني، ها ما هي أحوال «حداحيد»؟

ـ جرائد اليوم كتبت عن الانفجار!

ـ انفجار عندكم في قرية «حداحيد»؟!

ـ استهدف السور الغربي لفيلة المختار «حمدان» وقد مات أحد رجاله في الحادث أمس الجمعة، تعرفين حال البلد.

ـ سياسة الحكومة التي لا تريد التوصل إلى حلول مع المعارضة، دوامة لعينة و.. كأنك ذكرت «حمدان» أو شيئاً من هذا القبيل.

.....

ـ أوه، آسفة إن كنتُ قد أخفتك، اليوم الواحد يُحاسب على هذيانه هنا في هذه الجمهورية المشحونة بالظلم، تكلم ولا تخف.

ـ هل حصلت على الوظيفة؟

ـ أوه أخذني الكلام ونسيت ـ هذا ملفك الوظيفي، وقّع هنا.

ـ حصلت على الوظيفة؟

ـ نعتمد على موافقتك بالتأكيد، وحاجة صغيرة أطلبها منك، حدثني عن «حمدان» هذا من يكون؟!

أخذتُ أتفحص هذا الاهتمام على ملامح وجهها وقد طمأنت نفسي بعد أن كنت مرتاباً في تساؤلاتها، فأنا لا أحب المفاجأة أو إقحام نفسي والتورط مع أحد، البلد تمر بظروف دقيقة والسجال السياسي يسيطر على كل شيء، الناس لا هم لها إلا الحديث عن غارات وزارة الداخلية وقانون أمن الجمهورية وصفقات الفساد السياسي والسجناء السياسيين والضغوط الدولية على البلد حيث نترقب انفراج الوضع البائس ولو أني متشائم نسبياً ولا أرغب في الحديث عن أي شيء، فماذا يمكن أن أقول عن «حمدان» فزّاعة السلطة وبعبعها في قريتنا.

وما علاقتها به؟!

لماذا؟!

ربما هو.. علها قريبته أو معرفة أو..

اللعنة.. لا أريد أن أورط نفسي مع أيٍ كان، ، لم لا تأتي هي بنفسها إلى «حداحيد» وتسأل ما شاءت، ما دخلي أنا في هذه القصة؟!

لا، المرأة ساعدتني وتعاطفت معي والوظيفة في جيبي الآن، أأقبلها على

نفسي وأنكر الجميل، سأحدثها بشكل عام، معلومات سريعة وحسب، لا أعرفها تمام المعرفة و«حمدان» هذا يملك من سلطة ونفوذ لا يجدر بي مجرد التفكير بالحديث عنه لا بشرّ أو خير.

ـ عفواً، اعفيني من الحديث، بإمكانك القدوم إلى القرية وستعرفين الرجل وتتحدثين إليه إن أردتِ، يسكن فيلا ذات لون ترابي معروفة بطرازها الإنجليزي الفاخر، إنها تجثم على أنفاس القرية كما هو حال صاحبها الـ.. هذا هو كل ما عندي.

ـ أنت خائف؟!

ـ لا أخاف من الحديث بشأن السياسة، فحتى كناسي البلدية يتحدثون في السياسة ولكني أخاف ما بعد الحديث، «حمدان» سلطة من الجبروت والخوف وأنا مجرد شاب يبحث لنفسه عن جدار يداري به ضعفه، صدقيني فالسنوات المتأزمة التي مرت علمتني أن ملازمة الخوف أهون الحلول مع تقبل مرارة الهزيمة التي تكوي أرواحنا.

ـ أنت مخطئ.

ـ كسر هيمنة الخوف تحتاج ثمنها الباهظ.

ـ «حمدان» أو الحكومة بمختلف أجهزتها السلطوية هي في النهاية واقع خوف وهيمنة ديكتاتورية تستنزف مجتمعنا وتؤثر في مستقبله ومصيره، أنترك على عبثها هكذا؟!

ـ لا، ولكن..

ـ أتعرف ما الفرق بيننا وبين أولئك المحجوبين خلف جدران المعتقلات؟! الفرق، شجاعة الموقف الحاسم لرفض قبضة الاستبداد والشعارات الكاذبة والركون إلى الاستسلام.

ـ أشعر بأن حديثكِ تنظير لا أكثر لا يمسّ الواقع.

ـ بالعكس، لو أنك عشت مرارة التجربة التي مررتُ بها لعرفت معنى

التمسك بالحرية والقتال في سبيلها.

ـ كنت سابقاً أتبنى مثل هذه القناعات ولكن وجدت القتال في سبيلها يرمينا إلى اللا شيء!

ـ مغزى كلامك أن «نيلسون مانديلا» كان مخطئاً في نضاله ومبادئه التي آمن بها؟!

ـ قلت لكِ، مرارة الهزيمة، أنا مهزوم من داخلي ولن يفاجئني أن أتعرض للاعتقال، ما بين هذا المصير مسافة قصيرة فاصلة أترقبها في كوابيسي، أتحدث في السياسة أحياناً وأمارس الخداع لكي ألبس قناع الشجاعة الفارغة ليس أكثر!

.....

ـ أراكِ ساكتة الآن.. أيسعدكِ هذا الاعتراف من رجل؟!

أدنت مني علبة المحارم الورقية وأنا لاأزال في ذروة اللحظة وقد عجنت مشاعري كوجبة خيبةٍ تقيأتها روحي المتعبة، فمسحت عرق هذا الخائف الذي يقتات من جسدي وغادرت المكان ملتحفاً بصمتي اليابس، أتوق إلى جرعةٍ من الماء وأتمنى لو تُطفئ كل حرائق خيباتي فأستريح.

***

ـ البضاعة متوفرة ولكن..

ـ سندفع!

ـ أمهلوني أسبوعاً.

ـ هذا كثير، أنتِ خائفة؟! ثم إن الموضوع يحتاج إلى صلابة الرجال!

ـ مادي عن عشرة رجال، أمهلني وإلا سأجد زبوناً غيرك!

ـ أسبوعاً واحداً فقط!

ـ هذا وعد، على فكرة في المرة المقبلة لا تحدثني بعجرفة هكذا.

ـ أنتِ مغرورة ومتطلبة.

ـ تريدون البضاعة أم لا؟!

ـ طبعاً.

ـ إذن يا أغبياء لا تناقشوني فيما أقول، أدوسكم تحت حذائي ولا تعترضوا، مع السلامة يا.. حثالة!

ـ لحظة.. ومكان التسليم؟

ـ لا شأن لكم بتحديد المكان، أقفل السماعة حتى لا نُكتشف.

أنهت المكالمة الهاتفية، تناولت ورقة وكتبت..

«الزبائن يحتفلون، ننتظر الشيكولاته بعد أسبوع على الأكثر، الطلبية عاجلة!».

دعست زر جهاز الفاكس فأصدر أزيزه المنخفض وابتلع الرسالة، تقف ها هنا عند حافة شرها كما قطةٍ شرسة تمسح دم ضحاياها عن مخالبها المنتصرة.

يتقيأ الفاكس الرسالة، تطالعها وتضحك بصوت مرتفع لا يضاهيه سوى ارتفاع وتيرة حقدها. تنتبه إلى جرس باب الشقة وصوت قاسم، فتدعك ورقتها وتدفنها في جيب سترتها السوداء واستفسرت بحذر.

ـ نعم؟

ـ افتحي بسرعة أنا قاسم.

فتحت الباب ولكن ملامحها مغلفة بتجهم بارد حيث استقبلته بلا ترحيب وكانت تعرف أن سذاجة هذا الشاب موضع استثمار جيد، كانت متأكدة من أنه سيرجع كما توقعت، فقالت:

ـ طردت نفسك وها أنت ترجع، مللت من "حداحيد" البائسة أو أن خرابة منصور لم تعد تؤويك؟

ـ «حداحيد» مقلوبة، ماذا فعلتِ؟!

دخل سريعاً ورمى بجثته على الأريكة وأشعل سيكارة متأرجحة ما بين شفتيه وقال:

- المتفجرات أُستعملت ضد المختار «حمدان» يا مجنونة، أنا وأنتِ نعمل لديه، نسيتِ أم ماذا؟!

- لا أهتم!

- المختار يد السلطة.

- مادي لا تخاف من أحد.

- كوني حذرة على الأقل، تهريب الخمرة أقل مخاطرة من هذه المتفجرات، فقط لو تسمعي..

- لا أريد سماع نصائحك الرائعة، أصبحت مملاً.

- تطرديني مادي؟!

صمتت بضع لحظات وهي تراقب انكساره لتتأكد من إحكام سيطرتها عليه ولتمتص قلقه، فاقتربت منه في الحال واختطفته في قبلةٍ محمومة، حتى استوى من حماسة اللحظة وثمالتها وقال:

- كم أنتِ غريبة!

- وأنت طيب وأنا كريمة، أسفل الكنبة.. افتح الحقيبة عندك.

- أوه.. ما هذا؟!

- أربعة آلاف دولار نصيبك من آخر عملية.

- كل هذا المال لي، شكراً ألف شكر مادي يا أحلى مادي. وغرق في عمق اخضرار الأوراق منتشياً بصدمة المفاجأة، ثم تأكدت أكثر من أي وقت مضى أنه الآن طوع إشارتها وشهوة الدولار أكلت عقله العصفوري الضئيل، تتأمله بنظرات خبيثة وتضحك على سذاجته القروية السهلة الانقياد، حيث طار بفرحته الطفولية وجعَرَ بصوته القبيح يغني.

الفصل السابع و العشرون

اغتنم تسرب بعض فتات النور الشاحب من كوة السجن القضبانية الغليظة وبحث عن غنيمته المهربة، تأملها في مساحة الضوء وشكر غفلان الشرطي المتثائب ليلة أمس حينما سقط منه سهواً قلم حبر رخيص.

الآن يستطيع أن يتوحد في محراب وجعه الداخلي.

علبة سكائر من قمامة السجن فردها على مهل، فترك رأس القلم ينزف ما يهجسه من جفاف الأيام..

وها أنتَ..

لقمة لأوجاع الأيام

ما بين قسوة الجدران

قلبٌ..

تذوي منه الأنفاس

مثل مدينة..

بلا فرح!

وهنا..

تخلع الريح وهي تعوي

أبواب البهجة..

لا تأتي..

وهذا الحلم كسير
يكدس حقائبه هنا..
حيث لا سفر
ولا مفر..
حينما تأكلنا الخيبة..
وأقدام العسكر
فكيف لاشتهاءات الحلم
ها هنا حبيسةً..
ها هنا ظمأى ولا مطر

وفجأة.. ترددت في المكان صيحات العسكر تطفو في موجة استفزاز طارئ مع اندلاع الأضواء والجلبة وانتشار المفاجأة بين السجناء.

دس كنزه الثمين وحبس أنفاسه وسط الهجوم الضاري الذي استهدف العنبر.. عنبر رقم عشرة، يقصدون مكانه!

وما هي إلا لحظات خاطفة عصفت بالمكان في قسوةٍ مفرطة تشبه الآن الصفعة التي جعلت وجهه يلفظ عرقه البارد، ينتفض في غضبٍ مكتوم ومعتقل بلا حراك.

تتمهل خطوات الضابط وهي تصعد كالدبيب في جلده، تتسرب منها رائحةً كريهة تقترب وتقترب..

- ها عباس.. مفاجأة جميلة ما رأيك؟!

....

أوه، هذه الحشرة تحاول احتقاري، أترون؟!

فانهالت عليه الهراوات ترض جسده المقيد بلا هوادة، حتى أوقفهم..

- كفى.. كفى، يا لكم من وحوش خرقاء، تريدون قتل النزيل المسكين؟!

- سيدي وجدنا عنده هذا..

حملوه على مغادرة العنبر مصحوباً بالضرب والشتم. بحلق في العلبة الكرتونية الصغيرة، تمشّى بضع خطوات في حجرة التحقيق وأشعل سيكارة ونفث دخانها في وجهه، اختنق وضاقت مناسمه.

- سامحني، نسيت أن التدخين ممنوع، افهم.. افهم أني أشد ما أكره في هذا المعتقل هو أمثالكم من المثقفين، تصفون الحكومة الموقرة بالفساد، منشوراتكم مليئة بالأكاذيب ضد أسيادكم يا كلاب!

- أكاذيب تصدقها «لندن» التي لن تنفعكم، أؤكد لك هذا يا ابن الفاجرة! تكلم.. تكلم قبل أن أطفئ سيكارتي في عينك الوقحة.

- إراد.. إرادة الشعب ستجتاحكم يا.. يا طغاة يا.. آه ه ه

- لحظة لحظة.. اتركوا المناضل الهمام يتكلم، الرجل تُرفع صوره في مظاهرات «لندن» لا عليك منهم «من لا يعرف الصقر يشويه» نعم نعم أسمعني هيا.. .....

- هيا يا ديمقراطي، السلطة أمامك قُل ما عندك، اللعنة تكلم يا حمار..

وانتُزِعَت من قفص روحه صرخةً مروعةً، وتلوّت آهاته في فضاء العذاب المسلط، لا ينجيه الآن شيء غير رب السماء، وها هو متلاحق الأنفاس متشنج الوجه.

يقترب منه الضابط ويرمي عقب سيكارته ويضحك بلا مبالاة..

- سامحني، كنت أظن يدك القذرة منفضة سجائري، ماذا أفعل؟! مطلوب مني السهر على أمن البلد وقد سهوت.

رفع رأسه بهدوء وهو ينتفض وقال:

- أمن البلد أم أمن النظام المعتمد على حماية «....» ستتخلى عنكم عندما تستنفذ أغراضها ومصالحها منكم، تراهنون على من لا صديق له و.. آه ه ه.

- هيه.. ما بالكم؟ أتضربون الرجل؟! إنه في ضيافتي الليلة وسأجهز له عشاء خمس نجوم، جهزوا السرير.. الآن، اسمع، شعاراتك هذه لن تنفعك في

شيء فأنت تتصل بجهات أجنبية وتوزع منشورات ضد الحكومة وتحرّض ضد النظام و.. ملفك أسود فساعدني واعترف، صدقني ستكفر بريك وأنت فوق السرير لا تعاندني.. ماذا قلت؟

.....

- للأسف، ضيعت الفرصة والحفلة لا تزال في أولها، لا تريد أن تعترف هه، دواؤك عندي.

استدار نحو باب حجرة التحقيق ومشى خطوات متمهلة، أشعل سيكارته ثم فتح الباب وهو يخطو خارجاً دون أن يلتفت لأحد قال آمراً جلاوزته:

- ابدأوا الحفلة شباب، بطلنا «عباس» يستحق الاحترام والتشريف.

- مجرمون، مجرمون سيفضحكم العالم، اتركوني، اتركوني..

وكأن كتلة من عذاب الجحيم ابتلعته، ملثمةً وجوههم بالعار لتعوّدهم ظلام الإجرام، أوثقوه فوق هذا السرير ومرروا الأسلاك فوق أطرافه ثم..

تقيؤا حقدهم وفتحوا أبواب الجحيم، لحظةً بلحظة يسري التيار الكهربائي الشرس بأنحاء جسده وهزة العذاب تنتزع الألم من كل خليةٍ بداخله بلا رحمة. يحيطون السرير، يراهم في محيط بصره المهتز وقد اخترق الآن حاجز اللحظة على نحو غريب، فما بال الألم يتوقف ويتحول المشهد إلى مساحةٍ من صفاءٍ هادئ وها هو.. ها هو طفلاً عند جذوع النخيل يجمع الطين ويبني قصراً للحلم وعلى شفتيه أغنية وقد بنى غرفة ثم غرفتين وبعدها شيّد قصراً تركه بسرعة ولبى نداء أمه وهي تحمل سعف النخيل ثم..

ثم باغتته صورة أخرى.. كان يقف عند ذاك البيت، بيت من؟! لا يدري؟! لكنه قذف حجراً وكسر إحدى النوافذ وهرول هارباً يضحك وإذ به يسقط متعثراً.

تعبر في ذهنه المشاهد بسرعة، كأن الموت يزحف، كأن النهاية تسحقه ما بين كفي القدر وها هنا، فضاء أبيض خرافي لا يشبه أيما بياض آخر يستولي عليه ويحاصره بهدوء موحش فيتوقف كل شيء!

الفصل الثامن و العشرون

وقد التم شملهم رغم كل شيء وعلت ضحكاتهم أحياناً، يشربون الشاي ويثرثرون بعضهم مع بعض، لا أحد يبالي الآن هنا في قهوة «أبو فخري» فالأجواء المتوترة مهما اشتدت خطورتها لا تثني هؤلاء عن مواصلتهم عزف لحن الحياة.

ها هو يثرثر كسالف عادته مع رواد القهوة، حيث لا همّ لهم إلا الحديث في السياسة والتوغل في مصائبها فقال «أبو فخري» من على طاولته غير مبالٍ بشيء:

- وزير التجارة فضحته الـ B.B.C ألم تسمعوا الخبر؟!

هدأت القهوة وأنصت الجميع بمن فيهم «أنا» رغم اعتباري «أبو فخري» لا يفقه شيئاً في السياسة غير التهويل والضجيج وضحالة الطرح، لكن لا ضير من سماعه كالبقية ولو لتمضية الوقت حيث قال:

- نعم: إنها فضيحة، والله إن هذه الحكومة المنبوذة لا يهمها شيء، صدقوا.. تم استيراد نفايات سامة من دولة أجنبية في صفقة سرية موقعة من وزيرنا المحترم!

رد آخر وقد قلل من أهمية الخبر ليفتح موضوعاً آخر:

- فليذهب إلى الجحيم هذا الوزير، اهتموا بمن هو قريب منكم «أبو جواد» يقال أنه هرب من «حداحيد» وربما من الجمهورية بأكملها، أهؤلاء

مناضلونا الأشاوس «تف»!!

اللحظة التي بصق فيها على الأرض، أحسست بشيء ما داخلي تصدّع، لم أكترث بهم وآثرت الابتعاد وأنا أغلي غضباً على جهل هؤلاء الأغبياء، سهام ثرثراتهم العمياء مجنونة الاتجاهات، إنهم.. إنهم لا يعرفونه.

ولكن.. هل حصل هذا حقاً، فعلتها يا «أبو جواد»؟!

***

حاصروها في حلقةٍ مقفلة وهي داخل سيارتها، هذا ما أرادته تماماً، حيث تم اقتيادها إلى صالون الفيلا، كانت مستسلمة، أما هو فقد أُفسد عليه صباحه الرائق ونزل السلم وهو يشتم غاضباً. فمن هي هذه التي تجرؤ على فعل.. كانت أمامه ولا تزال تلبس نظارتها السوداء الأنيقة مرفوعة الوجه لا مباليةً بشيء ولا قلقة حتى.

فهتف أحدهم.. إنها كانت تحوم بسيارتها حول القصر ووجودها أقلق الحراس فتم اعتقالها وهي..

هز المختار رأسه وهو يتفرس بها محاولاً إخفاء دهشته الأولى. هي الآن على يقين من ذلك، وتهيئ نفسها إلى الصدام، تختبر ردة فعله تجاه الصدمة، أخيراً وبعد كل هذه السنين الطويلة المشحونة بالعذاب، النيران المتقدة في صدرها تعود إلى تأججها كأول مرة حينما التقم طهارة جسدها وأعلن على بقاياه عار الخراب، خراب لم يُبقي منها شيئاً.

الآن.. تعتريه مشاعر مختلطة، هذا ما تراه ماثلاً في انكسار بعض هيبته المزيفة.

صرفهم عن بهو القصر بعصبية فبادرته ساخرة بضحكةٍ مرة:

- أعصابك لا تحترق، أنت «معرس» جديد ورجل وطني يحمي البلد و.. و.. هنيئاً لك يا أنظف الرجال يا مناضل.

- هذه أنت يا وسخة؟!

ـ تكرمتَ حضرتك أخيراً وعرفتني، أنا «علياء» يا وحش يا حقير، هل اعتقدت أنك تهرب مني للأبد ها؟!

ـ هيا، قولي كم تريدين ولا تمثلي عليّ هذا المشهد السخيف.

ـ هذه هي قسوتك الحديدية الباردة، أنا «علياء» حبيبتك، هل نسيت..

واقتربت منه في لحظة ثم أمسكت بيده وقالت:

ـ هذه اليد احتوتني بحنانها وهداياها وهنا قلب أعرف أنه لا يزال.. لا يزال يشتهـ..

وجذبته في الحال إلى صدرها وقبلته بوحشية مفاجئة تاركةً شفته تنزف!

ـ عاهرة مجنونة، مجنونة لعنكِ الله يا وسخة ابتعدي عني.

ثم دوّت الصفعة في المكان.

فجلست على أقرب أريكة وتحسست موضع الصفعة ووجهها ينتفض، تراقب ملامحه الثلجية المتحجرة وتصمت كأنما تتأهب لعاصفةٍ ما ووجهها محتقن.

ـ هيا، فارقي المكان يا نجسة، أنا لا أعرف أشكالكِ، لا تنظري إليّ هكذا.

ضحكت وتعالى صوتها في أرجاء الصالون الفسيح ثم رفعت وجهها متحدية غطرسته:

ـ نعم يا نظيف، طبعاً فمركزك المرموق فوق الشبهات، أوه بالمناسبة مبروك على الخطبة والزواج مؤكد أنها بعمر ابنتك مديحة التي كتبت لعنتك عليها، هل نسيت؟!

ـ مخبولة، ماذا تقولين؟! من مديحة هذه؟!

ـ نعم، مثّل عليّ يا مسكين وكأنك لا تعرفها، مديحة يا مجرم ابنتك من لحمك ودمك وعارك.

ـ مؤكد أنتِ سكرانة أو.. أخرجوها من هنا.

ـ سأنتقم من غرورك يا «حمدان»، علياء «ستجعلك» تركع ولن ينفعك مال أو منصب، حسابي معك لم يبدأ بعد أتظن.. أتظن أني نسيت، نار نار في جوفي خلفت.

ـ تعالوا شاهدوا هذه المرأة المفجوعة البائسة، اسمعيني.. أعرف أنك الآن مجرد مومس عجوز غير مرغوبة ومحبطة، لذا خذي مني هذا المبلغ حسنة لله هيا هيا لا توجعي رأسي.

استبد بها اليأس وفار غضبها فجأة واندفعت نحوه بشراسة تهاجمه لكنما الفرصة أفلتت منها حينما تفاداها وسيطر على جموحها وصفعها وألقى بها أرضاً.

وأثناء ذلك بدلاً من أن تصرخ وينتابها الإذلال وقد خسرت معركتها من جبروته.. كانت تحدق إليه وفي نظرتها كل البغضاء المحتشدة في إحساسها، تصر الآن على الاحتفاظ بكبريائها كأنثى.

فنهضت من مكانها وهي تبتسم وقالت له:

ـ هذا الكعب العالي سخيف ويوقعني في الإحراج، أتعرف يا حبي.. سأدفع بساقه المدببة في مؤخرتك يوماً ما!

كان صلداً في وقوفه الصامت متقززاً منها ورجاله يأخذونها خارج الفيلا وهي تصيح.. «ستركع عند أقدامي يا كلب، ستركع.. لن تفلت، اتركوني..».

راقبهم حتى اختفوا بها وتم رميها عند سيارتها وهي تواصل شتمهم بلا هوادة.

لايزال واقفاً يحاول قراءة أحداث هذا الصباح، هذه المجنونة كيف وصلت إليه بعد كل هذه السنين؟!

نسي أنه الآن من كبار الشخصيات المرموقة.

اللعنة.. يبدو أن هذه المومس التي ظهرت كما العفريت فجأة، قد أربكت تفكيره وخلطت أوراقه وهو الذي يحسن اللعب في التوقيت الحرج

ويعرف كيف يهزم خصومه دون أن يلوث يديه. أحقاً هذه التافهة التي جمعته معها علاقة سرير عابرة قادرة على تركيعه هو بكل ما يملك الآن من نفوذ؟!

وهل تملك هذه المخبولة إلا التهديد، نعم هذا أكيد، التهديد الفارغ لغة الضعفاء المسحوقين. هاتف واحد، إشارة واحدة تكفي الآن لو أراد أن.. «ضحك عالياً» يُطمئن نفسه أن هذه السفاسف التافهة لا تهزه قيد أنملة، يستطيع وفي أي وقت سحقها متى ما أراد.

إذن.. لِمَ هو الآن يذرع الصالون جيئةً وذهاباً؟!

تفاجأ بما كان يفعل على غير انتباه من حواسه الضائعة والقلقة وكأنما زلت قدمه و ابتلعته حفرة بلا قرار! تهاجمه تساؤلات شتى، يكاد يسقط ورأسه توجعه فجلس وأشعل سيكارته محاولاً تخفيف بعض من خوفه المتضخم. أتتمكن من إرعابه وإقلاق راحته بهذا الشكل؟!

إنها نكرة، لا شيء!

اختلقت بالتأكيد كل كلمةٍ قالتها، تهدد بوجود ابنة غير شرعية! هذا كل ما قدرت عليه، وإن يكن، فلا أحد يهزم «حمدان» هذه الجاهلة لا تعرف ولكن..

تلك النظرة الشرسة والشامتة في عينيها تخفي غموضاً مخيفاً يستولي عليه الآن، شيء ما مثل قنبلة موقوتة أسفل كرسيه شيءٌ سينفجر لا محالة تلك النظرة الانتقامية التي حققت الانتصار عليه ولا يعرف كيف أذعن لسطوتها. أطفأ سيكارته ولم يزل قلقه يتصاعد، فشل في إطفاء ناره الملتهبة. ثم أشعل سيكارةً أخرى ولم يجد سبيلاً آخر غير الخروج إلى رجاله.

ثم صاح فيهم عند بوابة الفيلا:

ـ هل سجّل أحدكم رقم سيارتها؟

ـ لم تطلب منا.

ـ وهل أنا بحاجة إلى أن أطلب منكم يا أغبياء، مجموعة مهابيل، أنتم

رجال هه، اللعنة عليكم كلكم.

ـ نستطيع اللحاق بها إن أردت!

من فرط قلقه ضحك فيهم ثم جذب محدثه بصرامة وقال:

ـ هه تحاول السخرية من سيدك يا تافه، مضت نصف ساعة منذ غادرت هذه الملعونة وأنت يا «سوبر مان» تظن أنك قادر على اللحاق بها، أعتقد ستطير خلفها صح؟

ـ سـ.. سنراقب المكان لا تخاف يا مختار.

ـ نعم، يبدو أنه قال.. سمعتم هذا الأهبل..

أنا أخاف، ممن؟! اللعنة عليكم أدبوه قبل أن أسلخ جلودكم.

انهالوا عليه يضربونه في قسوة.

وهو توقف عند باب الفيلا الحديدي الضخم وكان يراها الآن مثل وحش يتضخم ويتضخم تماماً كمطارق وجع رأسه تكاد تنفجر من هذا الصباح الكريه وهو يفكر، ربما هي وراء عملية تفجير السور الغربي للفيلا.

يقلب الفكرة ويصدق أو يتراجع، أم هناك أحدهم لا يعرفه وراء هذه المصائب تلد بعضها بعضاً على نحو غريب، من يتربص به إذن؟!

يعرف أن أعداءه كُثُر وهذا ما يقلق عليه الآن لا، لا..

يجوز أنه «أبو جواد» وهذه التعيسة «علياء» تحالفا ضده في صفقة سرية. فحدث نفسه بصوت مسموع:

ـ أحقاً «أبو جواد» فعلتها ونزلت إلى مستوى العاهرات؟! أعدك بأني.. أنا أعرف كيف أواجهكما، «حمدان» لحمه مر ليس جسراً تعبرانه هكذا بسهولة.

ثم استيقظت ذاكرته، نعم يتذكرها جيداً تلك النوتة الصفراء ودخل إلى صالون الفيلا ثانية وشرّع يبحث عنها، حواسه تعمل بسرعة، ثم توقف قليلاً وفكر في دُرج سري صغير أسفل المكتبة.

وجد النوتة كما توقعها هناك وبحث عن رقم الهاتف الجوال، وكان قد سجله بنفسه، و جد الرقم ولعبت أصابعه بسرعة على وجه الهاتف وهو يتلهف الجواب.

- آلوو..

- أهلاً «أبو جواد» أهلاً برفيق النضال، حقاً تهبط لهذا المستوى يا خسارة، كنت أظنك تقاتل بشرف.

- ولا زلت كما أنا ولكنك يا «حمدان» لم تعد تفرض وحدك شروط اللعبة، البلد - ما لم تتحملوا مسؤولياتكم تجاهها - ستحترق فوق رؤوسكم.

- كالعادة، الهراء الذي تكررونه في منشوراتكم السخيفة.

- كنت توزعها معي.. هل نسيت؟!

- اسمعني جيداً.. أنا أعرف أنك تحاول الانتقام مني وقد تحالفت معها لكني لن أ..

- لا أعرف عن أي شيء تتكلم يا.. يا رفيق النضال السابق.

- لا بأس.. تنكر الأمر على مزاجك، سترى كيـ..

- تهديداتك تثير شفقتي وتجعلني أضحك حقاً، ألم تتأكد من نغمة الهاتف وأنت تتصل بي؟!

.....

- لا عليك يا «حمدان»، إهانة صغيرة لذكائك العظيم، لا تهتم.

- أنت في «لندن» وما يقال في «حداحيد» صحيح إذن.

- تخمين موفق، هيا بلغ أكبر رأسٍ تعرفها يا عميل.

حوقل في الفراغ الفاغر فمه، محاطاً بتيار الصدمة يحاول استيعاب ما حصل مكوراً غضبه في قبضته وهو يحترق غيضاً.

- «حمدان».. خياراتك لن تنجح وستتورط معهم وهل تضمن الحماية منهم؟! صدقني فلست إلا ورقة لعب سيحرقونها عندما تُستهلك وأنت أذكى

من أن تتزلق هكذا.

- وفر هذه النصائح البائسة يا جبان، تهرب من المواجهة هكذا بسهولة، خاب ظني بك يا مغشوش، خل المعارضة في «الندن» تنفعك!

- وجهة نظر أراهن على فشلها وستثبت لك الأيام كلامي، الشعب الصابر سينتصر ولن تنالوا غير هذيان السراب.

- فرّحتكم «الندن» يا أغبياء، تستعملكم لأغراضها فقط باسم الديموقراطية وستقدمكم قرابين في أي صفقةٍ سياسية تخدم مصالحها، مساكين أنتم!

الفصل التاسع و العشرون

أعرف طعم هذه النسائم الرقيقة التي تمتص شراسة الصيف، بداية الشتاء ليس غيراً، حيث تطرز الغيوم البيضاء والرمادية المتجهمة سماء «حداحيد» والوطن، تغسل بعض أحزاننا وتذكرنا أن رب السماوات في عليائه لطيفٌ خبير يحسب وراء الظالمين فواتير شرورهم وفسادهم.

هذه النسائم تذكرني الآن.. يا الله ما أحلى طيفك «مريم» يعود فينتعش بذاكرتي هذه الساعة المسائية الرائقة، يفاجئني مثل نسمة بخور تباغت إحساسي، يستيقظ في غمرة الغواية يهيم باحثاً عن الفتنة الشهية مرتسمةً في طيفها الأنيس إلى النفس، أحبه وأذوب في تفاصيله، أراني إلى قربه في جنة صغيرة.

ليتك «مريم» تسمعين همس قلبي المرتعش.

لا أدري.. كيف يتكاثر عليّ الحزن عندما يحل المساء وأكاد أغيب عن كل الأشياء، فقط يعاودني الحنين والعطش إلى إطلالتك من أطلال خوف «حداحيد» التي هجرها الفرح.

هذا الأمل المستفيق من غيبوبته، هو ما يحرضني على قدح خيالك مرة أخرى في ذاكرتي. أعتقد الآن أنه بعد أسبوع من تسلمي للوظيفة أستطيع الوقوف على أرضٍ صلبة لكي أضع أول لبنات الحلم حيث يزج الله تعالى روحينا في ملكوت العشق الأخضر ونعبر دروب الشوك فيكون العمر أجمل

ويكون.. ويكون كل هذا الفيض من السعادة ملكي، لا أعرف كيف لي الآن أن أغترف من إحساسي كل هذه الأحلام الحلوة وأنا لا أزال على الضفة الأخرى وأنتِ طيف صغير لم يتضح بعد، ولا يزال دخاناً على تخوم شكي؟!

رنين جرس الهاتف قطع عليّ تدفق جدول الحلم وردني إلى حيث أنا في مواجهة جفافي، ثم رفعت أمامي السماعة:

- آلوو..

- عندنا طلبية مسبقة من حلويات الجمهورية لو سمحت على عنوان..

- لا، الرقم خطأ يا عزيزي.

- هذا الرقم على العاصمة، أنتم في العاصمة صح؟

- لا، هنا قرية «حداحيد».

أقفلت سماعة الهاتف ثم وجدت «كلثم» تسألني عن المتصل وقد أقبلت مسرعة ولكني كنتُ الأقرب للهاتف، أخبرتها أنه اتصال عرضي خاطئ ولا شيء مهم في الأمر. استمهلتني بإشارة من يدها واختفت قليلاً ثم حضرت وهي تحمل صينية شاي وقالت:

- عندي معك موضوع يستلزم كوب شاي لنعرف كيف نتحدث.

أخذتُ الكوب ورشفتُ منه رشفة وقلت:

- أي موضوع؟!

- تذاكى عليّ وكأنك لا تعرف ما أقصد، عموماً أنا من واجبي إخبارك لكي تكون على علم فقط.

- على علمٍ بماذا؟!

- «مريم» نسيتها؟! ما أحلاك الآن تتوقد حماساً عندما ذكرت اسمها ولكني سأ..

- «كلثم» هذا اللعب بالأعصاب لا أحبه، تكلمي الله يستر عليكِ،

بدأت أخاف منك.

- عرفت من إحدى صديقاتي أن «مريم»..

اضطرب كياني وأخذت ضربات قلبي تصخب في صدري بخوف وقلق أترقب بقية كلامها المتردد وبالمخيلة أمواجاً هائجة تكتسح روحي ألتمس لها النجاة مما سيأتي.. هل أصابها مكروه؟ هل وهل؟ لا أدري تماماً ما الذي يتوارى خلف هذه الجلسة حتى فكت عني هذا الحصار الخانق وقالت:

- «مريم» خطبها شاب من العاصمة ووالدها متهم بالعمالة وسيغادر «حداحيد».

......

- «أحمد» لا تغتم، لو كنت أعرف أني سأراك عابس الوجه ومحبطاً هكذا ما أخبرتك، لم يكن لك في البنت نصيب ونظرة إعجاب واحدة من لقاء عابر لا تصنع لنا قدراً نركن إليه، خُذ الأمر بواقعية بعيداً عن الأحلام.

....

- أوف، ليت الله أخذ عمري قبل أن..

- جزاك الله خيراً، أيقظتني من أحلامي، على الأقل عرفت أنها مجرد أحلام، حدثتك عن «مريم» وكنت.. انتهى الآن كل شيء ولا فائدة.

- حصل كل هذا في نفس الأسبوع الذي أجريت فيه مقابلة الوظيفة.

قلتُ لك «كلثم» انتهى كل شيء، ما فائدة هذا الكلام الآن؟! قصة حب تعيسة مثل حظي، ضخمت خيالاتها في رأسي حتى انهارت أوهامها، لا فائدة لا فائدة!

دخلت أمي علينا وعلى صفحة وجهها سؤال:

- ارتفع صوتك يا ولدي، عسى ما شر؟!

أنا و«كلثم» كلانا تخندقنا في حفرة الصمت. لم أكن حينئذ أتحمل أكثر وما كنت راغباً في إجابة أمي عن تساؤلها، فالصدمة وحدها

كافية.. أحس أنها شلت أعماقي بشكل مباغت وأورثتني مرارةً حادة في الحلق وكنت على وشك تقيؤ كوب الشاي وقد تحول في أحشائي إلى دوائر غثيانية جعلت رأسي تدور. «كلثم» أخذت أمي معها من الحجرة وغادرتا.

فظللتُ وحدي، أعالج أثر الصدمة وأحاول الالتفاف على ما جرى وأوهم نفسي مرة أخرى، إن النتيجة أصلاً في حساب توقعاتي، تصورت حدوثها وأن الأمر انقضى ولا علاقة لي بمريم هذه! وكما قالت «كلثم»: «نظرة إعجاب واحدة لا تصنع قدراً نركن إليه».

إنها محقة فيما قالت، هذه هي حقيقة الأمر ولا وجه آخر للموضوع، عليّ فقط أن أكنس حطام الحلم المحترق من ذاكرتي المنكوبة بالحادث وأعود إلى مواجهة كل هذا الآن كواقع أتقبل قسوته وأواصل حياتي كالمعتاد وكأن شيئاً لم يكن.

حاولت أن أشغل نفسي بأي شيء، آه..

عندي هنا كتاب جديد مر عليه عام وقد أكله الغبار ولم أفتح وحدة صفحاته لأقرأه بعد.

«نشوء وسقوط الأنظمة الديكتاتورية» أخذته من على الطاولة وحاولت أن أقرأ..

ما أسخف المحاولة بحد ذاتها، كأني ذاك المناضل الهُمام الذي سيقلب الطاولة على خصومه بحركة سياسية بارعة ويحقق النصر! قراءة الكتب وتكديس الأفكار والجهر بها لا يكفي لإسقاط الدكتاتورية.. هل سيتحقق النصر إذا ما..

ما أسخف الفكرة، تركت الكتاب مكانه وعافته نفسي ثم وجدتني أنساق إلى استحضار خيالها مرة أخرى «مريم» لا تعذبيني؟؟!

شبحك يطاردني ولستُ أستطيع انتزاعك من أفكاري وكم كنت مطمئناً إلى الأيام، لم يساورني شك أنكِ لي في نهاية القصة. كم نتطامن

إلى الفرح الذي نشتهيه ونشيّد في أوهامنا أماني جميلة تذوي بسرعة عندما يحين حينها ونحن غافلون عن صفعات القدر، تتدلق مواقيت خساراتها فتصيبنا بالندم!

وهل يجدي الندم الآن؟!

طيرك فر منك يا عاشق الغفلة وقد فتر كل هذا الثوران الأنيس الآن.

ولكن.. كيف حصل كل هذا في «حداحيد» وأنا لم أعرف إلا الآن؟!

تيقنت أني وقعت في هذه الحيرة اللانهائية وأن أفكاري ستطحن في رأسي بين مدٍ وجزر، وها قد شارفت على الثانية والنصف، ساعتان وينبلج الصباح يا «مريم» ها أنذا أحاول النوم، عبثاً أحاول ولا يطاوعني هذا الإحباط المعشعش في أعماقي وما من مخرجٍ ألتمس طريقه خارج دوامة الأرق، سيطر عليّ بحصاره حتى الصباح، حينما طرق سمعي أذان الصبح من مساجد «حداحيد».

وهي ذي أمي أسمع حفيف رداء صلاتها يقترب من بابي على مهل وأسمع كذلك بسملةً خافتة من لسانها وطرقاتٍ خفيفة على سمعي بغية إيقاظي لأداء الصلاة، كم أفتقد مثل هذه اللحظات الطيبة المذاق على ذاكرتي حينما تكون مسافرةً إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك العمرة، أتخيل أنها مثل كل الصباحات عند عتبة بابي، لسانها يلهج بالدعاء لأجلي، توقظني لكي أغتسل بقداسة الصلاة.

طردتُ ما تراكم من قلقي وتوضأت عن وساوس إبليس، يعاودني الاطمئنان وتهدأ روحي ومعاركها فيهيمن السكون عليّ وتصالحتُ مع بداية صباحي الجديد.

ومضيت إلى المسجد فصليتُ وقرأتُ من السور القصار ما تيسر ثم غادرت وفي الطريق التي لا تزال معتمة يهيمن عليها الهدوء لحظت أشباحاً تتحرك في المكان ثم اصطدم بي أحدهم فجأة!

اللثـام الـذي كـان يحجـب وجهـه انحسـر وتسـاقطت منـه.. أحسـبها منشورات على ما أظن. عرفته في الحال فقلت مندهشاً:

ـ «أبو فخري»، هذا أنت؟!

ـ مـاذا، هـل أنـا عفريـت؟! لا تخـف، هيـا هيـا سـاعدني إن كنـت تحـب وطنك، والله إني ظلمته، أتذكر «عباس»؟! تسرعت في الحكـم عليـه، ألم تسمع بالخبر؟!

ـ تقصد «عباس الصيري» أهو بخير؟؟!

ـ نعـم صـديقك المعتقـل، دخـل في غيبوبـة مـن بعـد التعـذيب، جـلاوزة الحكومـة الأنـذال يحـاولون سـحق القضـية بـأي شـكل، أوه سـوف أتـأخر أعطني هذه الأوراق يجب أن توزع قبل طلوع الشمس.

ـ «عباس»؟! الخبر أكيد؟!

ـ لا أستطيع أن آخذ وأعطي معك، لسنا في القهوة يا أخي مع السلامة.

شعرت بالأسف وقد اجتاحني الغضب.

ماذا؟! إلى هذا الحد أجهزة النظام لا تقيم وزنـاً للإنسـانية؟! أو تحسـبنا بلا قيمة هكذا؟!

مستعدة لحرق كل شيء فقط من أجل أن يسلم برجها العاجي المتكبر.

تلجأ إلى زرع التبعية في كل مفصلٍ من مفاصل الحياة، فكل شيء هـا هنـا مراقـب. يبررون أفعـالهم تحـت ذريعـة محاربـة الفتنـة وهـم أول مـن يبـث شـرارها في صُحف الأقلام الحكوميـة المـأجورة الـتي تطبـل لسياسـة الـرئيس الهمام المتشدق بشعارات العروبة والحق والثورة والعدل!!

«عباس الصيري» أدخلتموه في غيبوبة بشـعاراتكم الفارغـة الـتي سـتقبع في مزبلـة التـاريخ مـثلكم، لأنكـم لم تؤمنـوا بهـا ولم تصـدقوها.. أتظنـون أنكـم بالمزيـد مـن القمـع سـتدخلون الـوطن في حالـة غيبوبـة لتحتكـرون مستقبله؟!

كل الشعارات التي ترفعونها بريئة منكم يا تجار الوطن.. وأنا أرى أمامي الجدران مليئة بصور الشهداء والبيانات التنديدية، أكتشف زيفكم السلطوي.

لا أدري.. ثورة حماسي أنستني نفسي، ألفيتني كما كنت هنا، واقفاً قرب المسجد حيث تركني «أبو فخري» وها هي الشمس أشرقت وانتشر نورها. أشعر وكأن وجعي الداخلي الذي خرجتُ من البيت وأنا أنوء بحمله قد ذاب يا «مريم»، أتمنى لكِ حياة سعيدة وما حاجتك بتعيسٍ مثلي يرسم أحلاماً وردية في مهب الريح؟!

ارحلي من ذاكرتي يا «مريم»، أرجوك، ارحلي!

الفصل الثلاثون

ـ طرفٌ ما مجهول يعبث بالأوضاع في البلد، القنابل التي تستهدف دوريات الشرطة وبعض بيوت العملاء، مؤكد لها مصدر أجنبي أو.. هناك عدة أمور تُطبخ في الظلام ولا نعرفها، «علي» أنت هنا في «لندن» ولا تعرف البلاوي التي تحصل.

ـ الحكومة تنهار من الداخل، أقطاب المعارضة هنا في «لندن» تعرف هذا وتعرف حتى أجندة دول الجوار ومساعداتها المقدمة لهذه الحكومة الديكتاتورية.

ـ ولكن ما لا تعرفونه وهو أسوأ ما أتوقعه.. عندما تفشل الحكومة في قمع الحركة الدستورية وتشعر بأن الخيوط تفلت من يديها عندها، ستشعل صراعاً مذهبياً يحرق الأخضر واليابس في جمهورية مضطربة ومتأزمة أصلاً وقابلة للانفجار وغداً إن كنت حياً أو ميتاً وحصل ما حصل ستتذكر كلام «أبو جواد».

ـ أقصيت الجيش من اللعبة بهذه السهولة، إنه.. إنه صمام الأمام بالنسبة للبلد.

ـ تم إبعاد القادة الوطنيين وتحجيم تأثيرهم داخل الجيش وزادت أعداد المرتزقة، السلطة باتت تستورد الولاء السياسي بالدولار، بلادنا مقبلة على مستقبل مجهول أتعرف معنى هذا؟!

- معناه.. أن «الشيخ» لا يمكن من الداخل أن يتحمل ضغطاً أكثر، الناس ضاقت بها الحال من بعد خمس سنوات، معتقلات النظام اكتظت بالشباب، زادت أعداد العاطلين، فُرضت المزيد من الضرائب، استشرى الفساد في الأجهزة الحكومية والفوضى تعم كل شيء ونحن ماذا قدمنا؟!

نهض «علي الخميسي» من مكانه وفتح نافذة غرفته على سماء «لندن» الغائمة وهو يقول:

- نحن الطليعة التي تقود الجماهير نحو ثورة التغيير.

- لو أننا فقط نكف عن تداول هذه المسميات لكنا في خير حال، تعال أحسب معك منجزات الثورات العربية الماضية، أؤكد لك أن نصفها مجرد شعارات هوائية جيشت الجماهير العربية ولم تحرر الإنسان أو تعتقه من تخلفه وجهله وخدرته بالشعارات الحزبية والأحلام الوردية وما هي إلا بضع سنوات حتى نكفر بالشعارات التي حاربنا من أجلها فيتحول الساسة من حكام أو معارضين إلى تجار يستثمرون أزمات شعوبهم بالدجل السياسي!

- «أبو جواد» تصوّر القضية تصويراً كارثياً، المعارضة الوطنية أكثر من تيار ولا أعتقد أن هناك من يتاجر بمعاناة الناس عندنا غير السلطة، لا، لا تصويرك للقضية كارثي مبالغ فيه يا أخي.

- حسناً، لن أجادلك في هذا، الأيام وحدها هي التي تُتضج الأمور وتكشف كل مستور.

- أنت فيلسوف حقاً.

- لا فيلسوف ولا هم يحزنون، هذا الأربعيني الواقف أمامك ذاق مرارة التجارب وامتلأت ذاكرته بندوبها.

.....

- «علي»، ما بك تحدق بي هكذا؟!

- لا أبداً، فقط كنت سأسألك، إن كنت تزوجت؟!

- تريد أن تجعلني مثل العجوز الندّابة، لا أرجوك انسَ هذا الموضوع،

معدتي فارغة الآن.

- «أبو جواد» يطلب ونحن في الخدمة، لحسن حظك أني أعرف مطعماً عربياً سيعجبك بلا شك، هيا معي فأنا جائع أيضاً.

***

- أتعرف يا «علي» «لندن» مليئة بالمعارضين.

- خصوصاً من الوطن العربي!

- الكوارث التي تتسبب فيها الأنظمة، ماذا تتوقع؟!

- أتوقع أن تتعقل هذه الأنظمة قبل أن يفوت الآوان ولكن.. نظامنا المحترم ديناصوري وصعب، ولا أدري إلى أين سوف يصل بنا وبمستقبل البلد.

- أتعرف أن النظام يتاجر في عمليات غسيل الأموال وأغلب وزرائه متورطون مع عصابات عالمية منظمة؟!

- مناقبه كثيرة لا تخبرني أرجوك! بالمناسبة، هل استجد شيء بالنسبة لمجلس اللوردات البريطاني؟

- سينعقد المجلس في الأسبوع القادم وهناك اتصالات بيننا ومن المتوقع أن يندد المجلس بسياسات القمع ومصادرة الحريات التي يمارسها النظام، وهذا الضغط السياسي سيعطينا الدعم المعنوي الدولي المطلوب.

- علّ وعسى أن يخجل قادتنا الأبطال الذين حولوا البلد إلى إقطاعية يملكون فيها كل شيء، ما أتعسهم!

- قبل أن أنسى «علي»، جهز نفسك يوم الاثنين لجولة صغيرة في «لندن» كما وعدتني.

- تغير الجدول يا عزيزي، يوم الاثنين عندك أمر آخر تهتم به.

- تكلم يا حضرة السكرتير المحترم.

- أشكرك على هذا التشريف «أبو جواد» يوم الاثنين هناك اعتصام قبالة سفارة بلادنا ويجب أن نكون في الصفوف الأمامية ونقتلع آخر جدران

الخوف في دواخلنا.

«علي الخميسي» منفعل بحماس الكلمات ويتفجر بداخله تيار جارف من الحرية المحلقة التي يتعاطاها.. «أبو جواد» يتأمل هذه الروح الحماسية وتهاجمه الأسئلة، نحن هذا التيار الشبابي المعارض الذي غذته تجارب الجيل السابق، هل سيكسر؟!

هو يعرف.. أن النظام الظالم، يراهن على كسب المواجهة ومن يحبس نفسه أسفل سطوة الضغط أطول مدة ممكنة ويواصل التحدي، هو المنتصر.

ما هو طعم هذا الانتصار «أبو جواد»؟! ومتى يولد؟!

محطات هذا العمر الشقي وكل المعارك والنزالات الماضية ترميك هنا في برد «لندن» فماذا تحمل الأيام القادمة من مفاجآت؟!

لقمة مبلولة بالخوف في جحيم البلد ولا لقمة في وحشة الغربة وبرودتها تنهش من سكوت النفس يعذبها الحنين.

- «أبو جواد»، سرحت بعيداً عني ولكني أعرف.. أعرف أنك تفكر في وضعيتك الرسمية هنا، لا تقلق إن شاء الله من بعد أن نقدم أوراقك الثبوتية ستحصل على حق اللجوء السياسي، هيا هيا امسح هذه النظرة الواجمة من على وجهك يا أخي، أصدقاؤنا هنا سيتكفلون بالموضوع ونحن مستمرون في النضال بعون الله.

- نضال طويل ومرير وأخاف أن.. هل ننتصر؟؟!

- معقول.. أتشك في هذا «أبو جواد» لا أصدق ما أسمع، لا أصدق!

- هناك أيام سوداء، لا يعلمها إلا الله، أنا أقصد.. سنتحدث لاحقاً في هذا الموضوع.

- سأخرج، توصيني بشيء؟

- اشتر لي جريدة، أي جريدة ناطقة بالعربية، المهم أن تكون نظيفة!

شرع يتأمل ما حوله، غيوم داكنة تسد الأفق، كما هذا الضباب يمرح في الطرقات العمياء، هو الآن في وسط هذا الفراغ. يمد بصره «أبو جواد»

ثانية إلى سماء لندن وتتعاظم مخاوفه وهواجسه، ريح باردة تصفع وجهه، يفكر في الخطوة التي اتخذها، حيث جاء إلى هنا.. أيكون قد قضى على نفسه بهذا الهروب؟!

أيكون قد تسرع هذه المرة في حساباته وأقدم على مجازفة حمقاء؟! القضية هي كل همه، إنها الظروف ولكل نضال ظروفه الخاصة التي تحكم تفاعلاته، نعم يستطيع تطمين نفسه الآن، هذا مُقنع ولا مزيد من التساؤلات القلقة، المجيء إلى «لندن» ليس إلا تدبير وقائي، والعمر واحد.

يحاول الآن تفادي هذه الأمواج التي تطيش على صخور واقعه وتبرير الإشكاليات التي يعرفها، بمقدوره الآن خدمة القضية بشكل أفضل، لن يسمح لهواجسه التي تحاصره بالتمادي أكثر، لن يسمح!

مجرد الشك، تدهور لا يستطيع تحمله، «حداحيد» ستتفهم أنه مناضل كما عهدوه دائماً وفياً عند وعوده بحمل آلامهم وأوجاعهم و الانتصار للحق الذي يفتشون عنه. لن يتهمه أهل «حداحيد» بالخيانة، هم يعرفونه كما نخلةٍ صامدةٍ في وجه العطش الكافر، كما جدول ماء في بستان يوحي بالخير والطمأنينة، يعرفونه جيداً ولا يمكن أن يسقط في أعينهم. روحه تعشق الوطن وتشتاق التضحية، هم يعرفون، يعرفون هذا تمام المعرفة.

ولكن.. حمدان المختار، يعبث في وحل الخسّة ويتحين الفرصة الملائمة كي يلدغ كالعقرب. أشاح ببصره عن النافذة وها هو يسقط في متاهات قلقه ثانيةً يكاد يفقد الاتجاهات.

ركز نظراته على حقيبة السفر، يحدق فيها بصمت، لا يزال غبار الوطن على حوافها ويطلق آهةً حبيسةً من صدره، يطلقها في فضاء الوجع الذي يتملكه الآن.

دار قفل الباب في تجويفه النحاسي، فأدرك «أبو جواد» أن صديقه على الباب وهذه نحنحته ذات الشيفرة المعتادة كإجراء احترازي متفق عليه بينهما.

«علي الخميسي» يهز رأسه بحركة مسرحية باتت مألوفة لـ «أبو جواد» وهو يقرأ فيها طيبة هذا الشاب القادم من وجع «حداحيد» والمعجون بطينتها، فقال:

- أعتقد أن هذه الجريدة توفر ما تريد.

- طلبت جريدة عربية يا أخي ولم أطلب «الصاندي تايمز».

ضحك «علي» وأحنى رأسه للأمام وترك الجريدة على كنبة الصالة وقال:

- فضيحة جديدة.. أنا، لم أتصور أن تهبط رموز هذه الحكومة إلى هذا المستوى المنحط.

- زمن العجائب.

- طبعاً.. الخبر المنشور هنا عن شركة بريطانية غذائية أُكتشف أنها تدفع رشاوى لوزير التجارة من أجل الحصول على توكيلات احتكارية لحليب أطفال وأغذية أخرى لا تطابق معايير الجودة الأوروبية، يستوردها وزيرنا التعيس ويسترزق من مستقبل بلده بلا حياء ولا ضمير!

- الضمير دفنوه، الغلاء مستفحل في الوطن، الناس تقتات من المزابل وتتسول على صفحات الجرائد طلباً للمال من أجل العلاج أو.. أو.. سنغرق في هذه المصائب، أعان الله الشعب على بلائها، فليلطف الله بك يا «عباس».

- أي «عباس» تقصد؟!

- «عباس الصيري» ابن عمي، جلاوزة النظام.. هه، المسكين دخل في غيبوبة بسبب وحشية هؤلاء المخنثين أرباب الإجرام، حتى أهله منعوا من زيارته.

- يا عزيزي أدرك ما تمر به وأتعاطف معك، خفف عن نفسك ألا تلاحظ حدة انفعالك، علني سألجأ إلى حضر الكلام عليك في مصائب السياسة والمعارضة وهموم الوطن، هيا معي، جو الشقة مخنوق يا أخي، غيّر ملابسك ولنخرج.

ـ قبل مجيئك «علي» كنت أفكر في «حمدان المختار» وما يمكن أن يفعله المجرم، «حداحيد» تحت سطوته كما تعلم وأنا..

ـ أنت يجب أن تصفي ذهنك من هذه الضغوطات ولو مؤقتاً قبل أن تتعب، حرام عليك.

ـ بشكل أو بآخر أنا متعب بالفعل وأفكر بالعودة إلى الوطن، أعرف أن كلامي هذا يصدمك ولكني أعتقد أن ما قاله «حمدان»..

أنصت «علي» بكل اهتمام واقفاً ينتظر لحظة الصمت المستعدة لمغادرة المكان و«أبو جواد» يجلس في استسلام المتعب الذي أحرق أوراق لعبه ولم يعد يراهن على شيء وهو لا يملك الآن شيء!

«علي» تجتاحه الصدمة ويأكله صمت هذا الرفيق، تتقلب أحواله فجأة، إنه.. كتلة معقدة من الغموض تحتاج إلى تشريح دقيق ليسبر غورها.

فقال «أبو جواد» وهو يحضن رأسه بكفيه:

ـ نعم، «حمدان المختار» محق، أنا هربت من المواجهة في الوطن، والعجوز التي كلمتني في «حداحيد» محقة، أنا ورطت أبناء القرية وحرضتهم والنتيجة.. الاستسلام أمام ضعفي والهرب، أنا.. أنا فاشل كبير وغلاف براق خادع يغلفني أنا.. آههههه.

تقدم «علي الخميسي» نحو رفيقه وربت على كتفه بهدوء وقال:

ـ اجلد نفسك إن كان هذا يريحك، أنا لا أصدق ولا كلمة واحدة مما قلت، «حمدان» ماكر يحاول تدميرك من الداخل باللعب على نقاط ضعفك التي يعرفها عنك كرفيق نضال سابق ولكنني.. أؤمن بشهادة «الشيخ» وتزكيته لك.. بأنك شجاع تحب وطنك وتحارب في سبيله.

الفصل الحادي و الثلاثون

ترتعد كما سعفةً في مهب الريح وهي مستسلمةً فوق هذا السرير الأبيض وهي تنتظر من الطبيب إنهاء مكالمته الهاتفية، ترتعد الآن وتشعر بهذا الخواء الوحشي يطويها، يا لجدران هذا الليل مشبع بحرارة هبوب رياح "الكوس" الصيفية، هبوب قاسٍ يمتحن صمود الزرع الأخضر وأنى له الصمود!

أنى لها الصمود وهي الآن على حافة الهاوية، تعرف بالأمر ملامح الطبيب في آخر لحظة من لحظات الكشف قالت الكثير. المكالمة الهاتفية إنذار آخر بطوفان النار الذي تنزلق نحوه فيبتلعها.

نهاية تعيسة لم تخترها، نهاية الآن سيضع الدكتور آخر سطرٍ لها في الختام المر.

- علياء، أعراضكِ متأخرة وال..

- لا تكمل دكتور، مرحلة اللاعودة أليس كذلك.. هه كنت أعرف هذا منذ زمن!

- أنا سأحولك إلى طبيب آخر لتأكيد النتائج ومن ثم..

- إنها لعنة الإيدز، أوجز يا دكتور، الموضوع لا يحتمل.

.....

وأطلقت ضحكاتها الساخرة في فضاء العيادة، لم تكترث بشيء وقد

غادرت السرير وحملت حقيبتها وصففت شعرها قليلاً وقالت ببرود:

ـ متى سأموت؟! أو.. لا داعي لهذا السؤال السخيف، شكراً على اهتمامك مع السلامة.

ـ لحظة لحظة سيدة علياء، خذي الوصفة العلاجية.

ـ سيدة؟! سيدة القذارة، نعم ممكن، اسمع.. أنا أعرف كما أنت تعرف، هنا فجّر القنبلة التي تحملها وخلصني.

ـ أعراضك متأخرة، أنت مصابه به، أريد إجراء فحص شامل لزوجك إن أمكن.

ـ قل لي أن جسدي أصبح مكب زبالة، حسناً اكتب التقرير أعتقد أن زوجي يجب أن يعرف، من حقه!

ـ ما اسم زوجك؟

ـ حمدان!!!

تفرح وتبتهج!

تتذوق انتصارها، انتصار من رماد، تراقبه وهو يكتب التقرير، تواتيها فكرة فقالت:

ـ لا أستطيع مفاتحته بالأمر، أعطيكم عنوان السكن وتتكفلون بالموضوع فأنا سأسافر غداً.

ـ لا مشكلة، نبعث التقرير بالبريد وسأضمنه رسالة شخصية لزوجك من أجل سرعة الحضور بسبب خطورة الوضع، أنا آسف سيدة «علياء».

انصرفت تحمل خرابها، نهار اليوم محرق، تبلغ سيارتها مثقلةً بتركة الحرام الذي تتجرع كأسه الأخيرة، وعلى عتبة الكارثة تنهار باكية وهي تطارد أشباحاً تصدر طنيناً في رأسها يكاد ينفجر.

كأنه يتعمد السخرية.. «سيدة علياء»!

لا علياء ولا أي شيء، أصبحت في الحضيض، لم تعد بريئة النوايا، مجرد هيكل من الخراب تكسوه ملابس أنيقة.

أطلقت آهة متعبة وكأنها تلفظ نفسها الأخير، انطلقت بسيارتها وغادرت المكان وهي على موعدٍ مع حتفها لا تعرف توقيت زيارته الجهنمية.

توغلت في شوارع المدينة، لا تزال تحفظ المكان، الآن تندفع بإحساسها الغريزي وقد أرادت هذه المغامرة. وصلت إليه وولجت بابه الزجاجي، أفضل صالون نسائي في وسط المدينة.

طلبت من العاملة بعد أن انتقت تسريحة شهيرة، أفضل ما يمكن. وماذا تخسر هنا، لم يعد يهمها شيء ولا يفيد الآن أن تبكي شيئاً، كما حبة برَد إلى ذوبان موتها تمضي بلا أسف، فلتستمتع بهذه اللحظات المتبقية.

لطالما زارت هذا المكان، تتبرج هنا من أجل زبائن الخمس نجوم الذين يأتي بهم «حمدان» آخر الليل. تعرفهم جيداً حينما يخلعون.. تتبدى حيوانيتهم في أشكال شاذة ولكن الكل ينهي مهمته بسعادة ويدفع بسخاء. كم أصبحت حينها آلة صماء تمارس غرقها المبرمج والمجنون ومساحات الظلمة تتسع بداخلها كل يوم!

هو هذا النجس فقط عرف كيف يحولها إلى دجاجة تبيض ذهباً، فتحتَ ستار مركز المساج استقدم المومسات الأجنبيات الفاتنات.

وهي واجهة الأوساخ التي يكدس خيراتها.

في واجهة المحل المزعوم كانت. أصبحت دميته المحببة والمدللة ما الذي بقي منها؟! تتفقد وجهها على صفحة المرآة، ندوب الذاكرة لا تبرأ، نار غضبها عليه لا تخمد وجراحاتها طرية الألم تنتفض من جديد. هو وذراعه الأيمن في الشر والقذارة، «حكروش» وكيف تنسى وحشيته الخسيسة، بأوامر سيده «حمدان» زج بها في كل مكان نجس.

الذكرى تعود إلى التوهج الآن.. ذات أمسيةٍ خريفية في منتجع سياحي ضمهما، كانت قد تمكنت من ترويضه بعض الشيء، شرب وشرب حتى فاض به السكر. تتذكر كيف بدأ يفضح سيده ويعريه في تلك الأمسية، الجلف لم يكن يعي ما يقول.

«حمدان»، عالم مغلق مليء بالأسرار والتناقضات، في الليلة الواحدة يتلون في شخصيته بشكل مذهل، من مناضل سياسي تطارده أعين المخبرين في أزقة القرى حيث يوزع المنشورات المحظورة ويتصدر المظاهرات الجماهيرية المتفجرة بالغضب والشغب والمطالبة بالعدل والحرية ومحاربة الفساد، إلى قوّاد يبحث عن زبائن محتملين لمومساته المنتظرات في حي شعبي رث في أطراف المدينة، يدخل في شجارات لا تنتهي مع المشبوهين ويعقد الصفقات ويوزع الأدوار على مجموعته الإجرامية الفاسدة التي تهرول وراء الربح من وراء كل شيء وسخ ينمو في الظلام.

عصي على التفسير، نعم نعم.. أكدها مرتين «حكروش» السكران الذي انطلق في هذيانه المتدفق عندما قال:

كأني أراه بطلاً في فيلم أجنبي، يمارس كل الأدوار فمن شيطان إلى ملاك، هذا الرجل لغز كبير. ذات مرة وفي إحدى صفقاته القذرة، حقق أرباحاً طائلة، أخذني معه إلى سوق العاصمة وتوقف عند دكان لألعاب الأطفال اشترى بضاعة المحل كلها وانطلقنا إلى أحد ملاجئ الأطفال المشردين ومجهولي النسب. حينها فقط أذهلني إحساسه الأبوي الهادئ وهو يوزع الفرح على الأطفال! مديرة الدار عرضت عليه التقاط الصور الفوتوغرافية لمكافأة صنيعه الإنساني الحنون إلا أنه رفض الفكرة بهدوء رجلٍ تقي يرجو لطف الله في الخاتمة ولا يريد أن تُنشر صوره في الجرائد فيبطل سعي العمل الصالح ويتلوث بالرياء المجتمعي المكشوف!!

توقف كل شيء فجأة...

أُوقظت من شرودها المحدق في المرآة وتبخرت الصورة التي شاكستها. تتفقد نفسها، امرأة أخرى تماماً لا تشبه صاحبة الوجه المتعب التي غادرت العيادة بقلب محطم وأنفاس محتضرة.

وجه آخر ملؤه التفاؤل، فتاة ملتهبة الجمال تأكلها أعين الرجال تخافها النساء، تهزأ بما حولها، مستعدة الآن لتدمير جنس الرجال، جميعهم

سيقعون في غوايتها، جميعهم سيتذوقون طعم الخراب والندم.

الآن هي في كامل استعدادها لتقطع المسافة الأخيرة، تسترجع مواهبها القديمة في الصيد وما أحلى الصيد!

تعرف كيف تصطادهم، تعرف أين تجدهم، يحومون كما الذباب على قطعة الحلوى الدبقة، جميعهم يشبهون «حمدان» فليذهبوا إلى الجحيم.

أجل.. لتكن الآن على استعداد.

لكن محرك السيارة يرفض الدوران، اللعنة على هذا الحظ السيئ، تحاول ثم تحاول والسيارة مكانها كقطعة الحديد الميتة ترفض الاستجابة!

لكنما وقوفه الفضولي المترقب عندها، استرعى انتباهها حينما انزلق زجاج سيارته الرياضية الأوروبية الفارهة وهو يقول:

- الحلوة تحتاج مساعدة؟؟

التفتت إليه، شاب متوقد الحماس وحدسها لا يكذبها أبداً تعرفهم جيداً، هؤلاء المهابيل الذين لا يفكرون إلا من أسفل! أيقنت أن سحرها القديم عاد إلى الحياة والصيد في متناول يدها فردت:

- توصيلة قصيرة الله يخليك وخذ ما تريد؟!

- هذا يعتمد على..

- أكيد تحب الرمان المحلي!

غمز بعينه اليسرى وقال:

- أفضل من المستورد.. مغشوش ولا طعم له، اصعدي.

الفصل الثاني و الثلاثون

بسط يده على الطاولة الزجاجية الأنيقة التي تزين طقم الجلوس الإيطالي الفاخر وقال:

- أساليبك هذه.. خوّف بها المراهقين الذين يحرقون الإطارات ويوزعون المنشورات على الجدران والجوامع، الموقف يتعقد في الـ..، أنا كوزير داخلية مطلوب مني تقارير شهرية عن الحالة الأمنية في البلد أرفعها للرئيس، أنا.. أنا لا أملك إجابات لأسئلة فخامته وكل البلاوي على رأسي، المصيبة أن وزير الخارجية يطوف عواصم العالم ويوزع ابتساماته الدبلوماسية ولا يجد حرجاً من تطمين الرأي العام الدولي بالمزيد من الكذب إن ما يجري في الجمهورية مجرد قلاقل أمنية بتدخل أجنبي تحت السيطرة، هراء مجنون سيحرق كل شيء، أيدري وزير الخارجية عن الاستثمارات الأجنبية التي انسحبت من السوق وارتفاع كلفة الدين العام؟! سفارات كبرى في البلد تجتمع مع رموز المعارضة وتتدخل في شؤوننا، و.. والصحافة لا هم لها إلا التطمينات الساذجة ونفاق الـ.. سمعة الحكومة يا إخوان أصبحت صفراً في المجتمع الدولي، أتدرون.. مدير السجن المركزي في وزارتي بعد حادثة المعتقل «عباس الصيري» ودخوله في مأزق الغيبوبة يريدني أن أنقذه من «منظمة العفو الدولية» التي ستزور الجمهورية بعد أسبوع، أنا وزير زراعة لا أفهم إلا في الزراعة ما شأني بمصائب الداخلية ولماذا قبلت التوزير في هذه الوزارة؟!

- تتحنح «حمدان المختار» ولوّح بملف ورقي أمام المجتمعين وقال:

- أحاول جهدي يا سعادة الوزير وهذا الملف أمامك به كل أسماء المشبوهين في «حداحيد» ثم إن هذه الأمور السياسية تخص أصحاب القرار ولو أني أرى.. النظام في الظرف الراهن بحاجة إلى بعض الماكياج المدروس.

- هذه المسميات الصحافية لا أحبها، ماذا تعني «حمدان»؟!

- سعادة الوزير، باختصار.. على الحكومة أن تعيد الحياة الديمقراطية إلى البلد كما تريد المعارضة، يجب أن نفري رموزها ونملأ البلد بالشعارات والتهويل الإعلامي، نعطيهم ديمقراطية جوفاء لا تفك ولا تربط وبعدها ليطمئن الرئيس! يعني.. لا مانع من إطلاق حرية الكلمة والرأي والموقف، فلينشغلوا بمعارك كلامية فارغة فيما بينهم والحكومة هي صاحبة القرار على الأرض تستطيع تمرير مشاريعها وبالوجه الديمقراطي الحضاري الذي يشرّف حاضر البلد ومستقبل السلطة.

مدير مكتب الرئيس نهض عن كنبته المريحة واتجه إلى «حمدان» وربت على كتفه وهو يخاطب الوزير قائلاً:

- سعادة الوزير، «حمدان» محق وأنا كنت من مدة أرجح هذا الحل لخروج الجمهورية من مأزقها السياسي مع المعارضة، المواجهة المسلحة لا تحل القضايا العالقة وعلى سيادة الرئيس أن يتخذ موقفاً في هذا الشأن، ما المانع من إعادة تفعيل الدستور وبمواد جديدة تساعدنا على ترتيب الماكياج المدروس واحتواء المعارضة في الداخل والخارج.

أشعل الوزير سيكارة ونفث دخانها وصوب نظره إلى سقف فيلته المبهرج وقال:

- وماذا عن المعارضة التي تريد إسقاط النظام، نسيتها من حساباتك؟

- تيارها ضعيف لا يشكل عقبة تذكر، في حال توصلت إلى تفاهم مشترك مع القسم الآخر من المعارضة وحسب البرنامج تستطيع السيطرة على الوضع وتلعب وفق شروطك، يعني.. أنت من موقعك كوزير داخلية اقنع

حضرة الرئيس بتكون لجنة حقوق إنسان شكلية لا أكثر، مجرد ديكور إعلامي وبصلاحيات محددة شرط أن تختار ممثلين يتقمصون أدوارهم بكفاءة أمام التلفزيون والصحافة وخذ بعدها ما تريد!

- ونستطيع بعدها امتصاص الضغط والتفكير في إدارة الشأن العام بشكلٍ أفضل بدل هذه الفوضى التي تحرق البلد ولا تعطي نتيجة بتاتاً غير المزيد من التخبط والعشوائية، سأغتنم الفرصة غداً مع حضرة الرئيس بمناسبة قدوم العام الجديد وأتحدث معه.

انتصب «حمدان» قائماً واستأذن قائلاً:

- شكراً على الدعوة، لا أريد أن أتأخر، عليّ ارتباطات مؤجلة ومصالح أقضيها، أتمنى لكم سهرة ممتعة.

وشيعه الوزير حتى باب الفيلا وهو يثرثر معه ثم ودعه.

لحظة صعود «حمدان» لسيارته الأمريكية الفخمة، أمر سائقها بالتوجه إلى الفندق.

فصعقه الموقف على غير انتظار وهو يتلقى الصدمة حين جاءه الرد:

- حاضر.. حاضر يا عمي «حمدان».

- من.. «حكروش»، هذا أنت «حكروش»؟!

ش ش ش.. سائقك الغبي نائم لا توقظه يا عمي، أعرفك صلباً وأعرف أن إرادتك حديدية و.. خائن.. مصالحك فوق كل اعتبار، لكن كيف فعلت هذه الفعلة القذرة معي؟! هل قصرت في خدمتك؟!.. تكلم!

لحظات وهو يلملم أثر المفاجأة، ماذا يمكن أن يفعل الآن مع هذه الورطة «حكروش» يماثله في الخبث ويزيد عليه بشراسة الطباع والفظاظة، من الأفضل الانحناء لقوة العاصفة حتى تمر، اللعنة.. كيف أفلت من العملية، طوال هذه الفترة الماضية، كان يعتقد أنه مات فعلاً والآن..

ها هو كالعفريت يشق الأرض ويطلع!!

- لا بأس.. صدق هذا نعم صدق واعترف هذه المرة بفشلك، اعترف بأني

أذكى منك وجعلتك تأكل المقلب. «قاسم» طلع أشرف منك، نعم «قاسم».. ليس مهماً أن تعرفه، الحمد لله أنه رتّب جنازة مقنعة حتى وقعت في الفخ وتأكدت حينها من كل شكوكي، أعرف أصغر ذرة قذرة فيك «حمدان»، حرباء تتلون أينما اتجهت مصالحك، لا تستطيع خداعي لأنه ببساطة طينتي معجونة بالنار مثلك!

- حسناً.. سأعترف إن كان هذا يريحك أني لم أنجز المهمة كما يجب.

رفع «حكروش» كفيه وابتسم وصفق ثم قال:

- طبعاً.. تستعمل هذه اللهجة الديبلوماسية المراوغة، لا عجب فأنت والحكومة في سروال واحد ولكني صعب.. مثل الموس لا تستطيع بلعي يا.. يا عمي الكبير!

- مللت من محاضرتك النارية «حكروش» خذني إلى الفندق وهناك نتفاهم، لا تحدق في هكذا هيا تحرك ولكن.. قل لي كيف تجاوزت نقطة الحراسة عند فيلا الوزير؟!

- عيب عليك عمي.. أنت تقلل من مواهبي.

- هيا هيا إلى الفندق لا تكثر من الكلام.

- سأسمع كلامك هذه المرة.. أنا لا أهتم لا بوزير ولا حكومة، كلهم واحد، لصوص مثلنا لكنهم عندما يسرقون لا يبالون بشيء فالقانون في جيوبهم، اسمعني.. أنا وأنت في مركب واحد فالأحسن أن..

بتر جملته الأخيرة وأصدر خرخرة كريهة من حلقه، امتلأ فمه بالبصاق وهو يحدق بضع لحظات في «حمدان»، تأكد بأن رسالته وصلت، فتح باب السيارة وبصق خارجاً.

***

نهض من رقاد سريره، تُسكره نشوة المغامرة، منتعش الإحساس قام يتمشى عارياً يثمل من زجاجة «الفودكا» وهي تراقبه بصمت فالتفت إليها

وجلس عند السرير وسكب لها كأساً وقال:

ـ أنتِ رائعة رائعة، لو.. لو كنت أعرفكِ قبلاً لما ضيعت وقتي مع الأجنبيات التافهات.

ـ لا تمتدحني حتى لا تندم بعدها.

ـ من يعرفك لا يندم، حتى أنكِ لا تريدين مقابلاً وأنا لا أريد أن أكون بخيلاً مع امرأة جميلة مثلك ولكن..

صمت هنيهة ثم نهض وأخذ سترته من على الشماعة، ارتدى ملابسه وبحث عن علبة سجائره حتى وجدها ثم عاد عند حافة السرير وقدم لها العلبة وقال:

ـ هيا، هيا «علياء».

ـ لا رغبة لي في التدخين شكراً.

ـ مدي يدكِ في العلبة فقط!

ـ إن لم أكن سأدخن فماذا أفعل بالـ..

ـ ما رأيك «علياء»؟

ـ من.. من أعطاكِ صورتي؟؟

«حكروش» مثل الشبح الذي يطارد ظلها وكأنما هو لعنةَ مسلطةً عليها أو وباء ينتشر في أنفاسها لا يفارقها لحظة واحدة في أفكارها القلقة الخائفة.

كيف عاد للظهور فجأة هكذا؟!

«حمدان» الكلب أرسله، هذا أكيد، هؤلاء الملاعين يريدونها مثل العبدة. لن يتمكنوا من مسعاهم وسيرون من هي «علياء»؟! ستحرق فوق رؤوسهم الأخضر واليابس بلا رحمة. أيظنون أنها لقمة سهلة؟! لقد ولى ذلك الزمن إلى غير رجعة، هؤلاء الأنجاس سيرون.

ـ وكم أعطاك «حكروش» لتتجسس أو لتبحث عني؟!

ـ لا تغضبي مني «علياء»، من المفروض الا أخبرك بهذا ولكن هذا

الرجل.نذل وحقير ولم أرتح له إطلاقاً و.. «علياء» أين تذهبين؟!

ـ يجب أن أذهب الآن، ما دام «حكروش» قد ظهر فلا أريده أن يتغذى بي، أنت لم تعرفه بعد، حسابي معه طويل.

تناولت سيكارة من علبته، أشعلتها ودخنت بهدوء ساهم وهي تفكر في هذا التطور، لن تترك القلق يتدلى فوق رأسها ولن تهاب سطوته، كل خطوة قيد الدراسة، هي تعرف هذه المرة كيف تكون الصياد المطارد وليست الضحية!

الفصل الثالث و الثلاثون

قبضةً من الجمر تتشب حرارتها في جلده، يصدر هسيس الاحتراق، مذعوراً يغادر سريره، ظهره يحترق ورجلاه، النار تأكله بشهيتها الفائرة وهو يصرخ مرتاعاً من ظهورها في حجرته، كتلةً من اللهب الباهر.

لا يشعر بشيء بتاتاً، غير أن النار تستولي على جسمه وهو عاجز كلياً مثل كل مرة عن إطفائها!!

تقدمت إليه وهي تضحك، مارد قادم من الجحيم يتفجر بالشرر، فخاطبته:

ـ ملا عيسى، ألا تشتهي شيئاً ما.. عن طيب خاطر أنا مستعدة لك ولو أني لا أزال غاضبة عليك، سرقت شرفي ثم أحرقت جسدي الفاني، أتظن أن الموت أخذ روحي؟!

ألا تريدني من جديد؟! لمَ أنت خائف هكذا؟! هيا اخلع جلباب تدينك المزيف، أكثر من تلاوة القرآن وتهجد بالدعاء، صدقني لن تستفيد! أنت وضيع وفاسق والله يشهد عليك ويلعنك.

حاول الابتعاد عنها والخوف يأكلها كما النار لا تتوقف عن التهام جلده، ينتفخ وينضج في فقاقيع دهنية تتفجر الآن بعد أن اختفى شبحها، هاجمته الآلام الفظيعة وخرج الحلم من رأسه.

بحث عن «أم قاسم» فلم يجدها في محيط غرفته، يتصبب عرقاً وخوفاً ويتحسس جسده المنتفض.

نار الحمى ترتع في كل شبر منه، العطش يباغت حلقه اليابس كقطعة خشب، لا يستطيع تحريك جسده.

حاول مرة أخرى ووقع في أسوأ مخاوفه، بات جسداً يابساً يتصلب فوق سرير بارد.

وليل «حداحيد» يسدل ظلامه الدامس يغزو القلوب محاصرة بوجعها تتوه في طاحونة الأيام.

***

بكت بصوتها المخنوق، تبرّحها آلامها المتراكمة ثم قالت:

- لا تتبرئي مني «كلثم» لا تتخلي عني كما فعلت بنات «حداحيد» أنا الآن أصبحت.. أصبحت منبوذة بسبب زواجي من المختار «حمدان» ما ذنبي تعاقبني الناس هكذا؟!

لا يعرفون بأنه زواج مدبر وجاء عكس رغبتي، أنا أُعطيت مثل الشاة لحمدان، وافقت حتى أخلص إخوتي من السجن، هكذا أقنعني أبي وأنا قبلت التضحية.

وضعت «كلثم» أمامها علبة المحارم الورقية وهي تقرأ انكساراتها، كانت تتشظى بمرارة وتحترق وتختنق وتتسحق بما يرزح فوقها من حزن.

ليست هذه «رباب» التي تعرفها، كانت مثل الوردة المتفتحة منطلقة بعفويتها تضحك وتفرح والآن.. كتلة من الحزن والقنوط بوجه شاحب لامرأة متعبة متخشبة الروح يهرب منها الفرح.

فجأة.. رن هاتفها الجوال، ارتبكت في جلستها..

- نعم.. أنا عند صديقتي و.. حسناً حسناً سأرجع!

بدا الضيق واضحاً على ملامحها المنكمشة واعتذرت عن مواصلة الجلسة بسبب ظرف ما.. كأن الكلمات تختنق على طرف لسانها. شدّت على يدها بمحبةٍ وصدق وقالت:

- أعانك الله رباب على ما أنت فيه، اعتني بنفسك.

- مع السلامة، سأزورك كلما قدرت.

توارت في محيط الحي بعباءتها السوداء تتماهى مع هدوء الليل، يشبه هدوءها محاصرةً ما بين أنياب هذا الرجل. «حمدان» هذا.. مما هو مخلوق؟! تحاول نبش مكنونه، إنه بلا شك نموذج للرجل الشرقي المتشهي والمزاجي صاحب «الأنا» الذكورية المتضخمة التي تقمع الأنثى ولا تنظر إليها إلا كوعاء للرغبات الجنسية ينتظر التفريغ المبرمج.

إذن.. ما الفرق بينه وبين السلطة؟!

السلطة الحاكمة التي تستعبد الناس وتُجير الشعارات الوطنية لتخدم مصالحها و«حمدان» هذا يمتص رحيق هذه الزهرة الندية ليرضي غروره وتفوقه فيفرض قوانينه من منطلق القوة فقط!

القوة هي التي تحكم على الأرض والرجال هم التروس المحركة التي تدير هذه العجلة العملاقة في السلم والحرب. كل سلطة فاسدة دائماً ما تنصّب لها طوطماً تعبده وتبجله وتذوب في نفاقه إلى حد الكفر بما سواه فهو القائد الضرورة وصاحب الفكر العظيم والرؤية الشمولية ونجم الخطب الجماهيرية، من فوق برج سلطته العاجي هو العارف الوحيد في ظلمات الطرق التي تفرض التحديات الحضارية!!

سقطت علبة المحارم الورقية من على سطح الطاولة الصغيرة، استيقظت «كلثم» من حديث أفكارها، تكتكة عقرب الساعة في هدوء الصالة نبهتها على الوقت وقد انقضت بضع دقائق على وقوفها وغرق أفكارها. لا تدري كيف يمكن لـ «رباب» أن تصمد؟؟

وإلى متى يستمر ليل الظلم الطويل؟! وكم سيطول انتظارها لابن عمها «علي الخميسي» ترتقب عودته إلى الوطن وهذه الأيام تنصرم بسرعة تتشكل كما غيوم سوداء تحجب الفرح، تبحث عنه. «علي».. تأخر في رده هذه المرة، فعاودتها الفكرة إياها من جديد في الرسالة السابقة ترك رقم هاتفه الخاص في ذيل الصفحة المزخرفة.

كما بعث مع الرسالة كارت تهنئة بقدوم العام الجديد يضوع عطراً ويضج بالألوان. ضحكت من نفسها قليلاً، لا تدري كيف انجرفت

بأفكارها هكذا، منذ قليل كانت مع صديقتها «رباب» متألمة لحالها ولا تعرف كيف تواسيها والآن تحلق بعيداً نحو «لندن»!

تستطيع الآن.. إنها خطوة بسيطة لا غير، خط الهاتف ينتظر وهذا قلبها يتحرق شوقاً تريد أن تعانق صوته فالجمر الذي يسكنها لا يبرد، إن كانت «رباب» لم تنصفها الأيام في سعادة حظها بفارس الأحلام الذي ترقبته طويلاً وطالما رسمت ملامحه في أحاديث الفسحة بالمدرسة الثانوية وعرفته طويل القامة طيب القلب لا يحب الكذب، لا يدخن ولا.. ولا...

إلا أنها مختلفة.. هذا «علي» ابن العم الساكن في القلب و الروح، طيفه الطيب لا يغيب، مثل شذى الكارت البريدي تشتاق الآن لشم نسيمه والذوبان في حالة العشق الذي طالت به السنين.

ثم فاجأتها وخزة خوف مباغتة، تذكرت تلك الشقراء «كرستين» التي ترافق «علياً» ويكثر من الحديث عنها وعن ثقافتها وذكائها وأهلها، تقريباً بات معجباً بها دون أن يصرح بذلك!

لا.. «علي» ليس من هذا النوع إطلاقاً.

لكن تلك الأجنبية هي الأقرب إليه الآن، تُبعد عنه شبح الغربة وتصطحبه إلى بيتها وتدرس معه في مكان واحد، فما الذي يقف بينهما حاجزاً من أن يحبا بعضهما؟!

وهي هنا رهينة الأحلام والذكريات.

أبداً.. مجرد هلوسات تنتابها ولا شيء آخر، هواجس عابرة لا يمكن أن.. هذا غير معقول «علي» مخلص في مشاعره ومعدنه مثل الذهب لا يتغير، فأمسكت سماعة الهاتف وقررت أن تنظف كل مخاوفها ولم يعد هناك مبرر لترددها.

ترددت من قبل بإجراء المكالمة ولكن الآن.. تساؤلات القلب لا تؤجل وحنين الروح الظمأى لا يرويها السكوت.

الفصل الرابع و الثلاثون

ودعها بابتسامة لطيفة وترك سائق سيارة الأجرة يأخذه إلى أقرب مقهى في المنطقة. حواسه مرتبكة وتتناهبها مختلف التفاعلات، حصل كل شيء بسرعة!

مرت عشر دقائق، فنبهه السائق إلى مقهى محلي صغير وهادئ، ترجل من السيارة دون أن يدفع الأجرة، اعتذر للسائق ونقده حق التوصيلة ودلف إلى الداخل، اختار لنفسه طاولة منزوية وغرق في لحظاته يستعيد ما حصل.. وكيف حصل؟!

كل ما قالته «كريستين» عن مزرعة عمها في الريف الإنجليزي، إنها كبيرة ورائعة، صدقت فيما قالته وهو تجوّل في أرجاء المزرعة وتفقد إسطبل الجياد وحظيرة الخنازير. وهي كانت تملأها السعادة ملتصقةً به تضحك تشاكس تتحدث عن كل شيء في المزرعة وعن الغابة القريبة هناك.. تشير بأناملها البيضاء الطويلة وشعرها الذهبي تلعب به الريح، تشير إلى حيث تعود عمها جلب شجرة عيد الميلاد وهي التي تتزعم دائماً الأولاد والبنات في تزيين الشجرة مع كل عيد وتصر على الاحتفاظ بزعامتها هذه بتشجيع من أمها التي كانت تصدقها حينما كانت تخبرها.. أن «بابا نويل» هو من كلفها شخصياً بهذه المهنة!!

تضحك «كريستين» وتصف نفسها بالطفلة الساذجة آنذاك، تتحدث

عن نفسها وذكرياتها هنا في المزرعة وهنا في حقل القمح.. توقفت لحظة عن الكلام وأخذت تقلب عينيها وهي صامتة، احتار في تفسير تصرفها.

يتذكر أنها أمرته بحجب ناظريه عنها بشريط أزرق أعطته إياه. وفي بضع لحظات كان عليه أن يستجيب لصوتها، يتسرب من بين سيقان السنابل الذهبية تطلب منه عدم فك الشريط حتى تُكمل تحضير مفاجأتها.

تجمد مكانه في سكون رائحة السنابل يحركها الهواء هكذا يشعر بها ولا يدري أي مفاجأة تحضّر هذه الإنجليزية المشاكسة، إنما هناك مفاجأة وهو يتذكر أنها وعدته بها مع مقدم العام الجديد. لحظة السكون تلعب بأعصابه، ربما ستهديه قبعة من القش.

«كرستين» بارعة في الأعمال اليدوية وتصنع بيوتاً خشبية ملونة للعصافير في المزرعة كلما زارتها.

الشريط القماشي قاتم اللون ولا يُرى منه إلا بصيص بخيل من النور، يدور حول نفسه ويداه تتحسس الفراغ ثم يطمئن ثانيةً إلى صوتها الذي عاد يتسرب إلى مسامعه وهي تدعوه للاقتراب، تصفعه سيقان السنابل ويتوه في دوامة الحيرة والاتجاهات تراوغه حتى وصل إلى تيار أنفاسها المتدفق بدفء ولامست يداه نهدين عاريين من الحياء مشتعلين بالشهوة! فسرى في جسده تيار كهربائي صاعق وقبل أن يرمي العصابة التي تحجب عينيه، اندفع الجسد الغض في عنفوان، نحوه بكل الجنون الذي انفجر سريعاً في أنفاس «كرستين» العابثة أمامه بعري شبابها الطري الفاتن تأخذه إلى صدرها، نزع العصابة اللعينة وتمكن من تجميع رباطة جأشه واحتواء الصدمة ودفعها إلى الأرض فتهاوت، تسيطر عليها الدهشة والصمت!

مرت الدقائق وهو يقرفص عند الإسطبل صامتاً بوجه ممتقع يحدق في الفراغ، استعاد بعض هدوء نفسه ثم قرر أن يترك المكان في اليوم التالي.

اعتذر لعمها على مشاغله التي تلاحقه وشكره على حسن الضيافة

وحملتهما سيارة الأجرة وهما صامتين.

والآن.. يحاول نسيان أحداث المزرعة، طلب كوباً من الشيكولاته الساخنة وراح يفكر في جهات أخرى بغية طرد شبح «كرستين» من مخيلته لكنه سرعان ما تهاجمه صورتها، فتاة ذات شعر أشقر تعبر الشارع، يلمحها من واجهة المقهى الزجاجي، تشبه «كرستين» في هيئتها الأوروبية، صعدت سيارة أجرة واختفت.

لكنها تشاكس ذاكرته بمرحها، «كرستين» التي أولاها ثقته وصداقته تتحول إلى.. ولمَ يُشغل تفكيره بها؟! أتعني له شيئاً؟!

علاقة ظرفية تنتهي بانتهاء الظروف الموجبة لبقائه هنا في «لندن» و.. وهي مجرد.. بات رأسه صلداً كالحجر لا يسعفه بأي تفكير وينظر إلى الواجهة الزجاجية مرتاباً من وجود ثلاثة رجال فوق الرصيف.

صرف انتباهه لجرسون القهوة وشكره بإيماءة بشوشة منه واطمأنت نفسه وهو يحتسي كوبه الساخن بهدوء وملامح وجهه تنعكس على سطح الزجاج الباهت للطاولة، تبسم لنفسه متأكداً أنه مازال نفس الشخص... «علي الخميسي» ابن «حداحيد» الذي يرفض الغلط، ثابتاً على قيمه لا تهزه المغريات المتاحة.

ترك المقهى وسار بضع خطوات يبحث عن سيارة أجرة تقله لمحطة القطار، فالمساء قارص البرودة في الريف الإنجليزي، انكمش في معطفه الصوفي يتفقد الشارع، بدا مهجوراً والساعة لا تزال الثامنة في هذه البلدة الريفية، اضطر للمشي قرابة العشرين دقيقة ولايزال خواء الشارع معلناً قسوته في وجهه كغريب، حتى وجد سيارة أجرة أخيراً، التقط فيها أنفاسه وأراح رأسه وسرقته غفوة قصيرة لم تدم طويلاً.

وصل لمحطة القطار، قطع تذكرة إلى «لندن» بضع دقائق ويقلع قطار التاسعة، جلس ينتظر مرور الوقت ففوجئ بها تخرج من حمام السيدات في

المحطة. حدقت فيه بصمت ثم نبهته إلى أحلى صدفة في حياتها وهي سعيدة لأن رقم تذكرتها المتسلسل يجمعها معه في مقعدين متجاورين! قبل أن يتفوه بأي كلمة، بلغ القطار رصيف المحطة، فأمسكت ذراعه وأراحت رأسها على كتفه وصعدا معاً.

لم يكترث لحركتها وتركها تتصرف كما يحلو لها.

جلست إلى جانبه وشرعت بترتيب زينتها والصمت يسود المساحة الفاصلة ما بين روحين في عنق زجاجة.

لا يدري الآن كيف يمكن أن يبدأ حديثه لها.. أيتجاهل كل شيء وينسف من رأسه كل هذا الصراع المحتدم. «كرستين» كأي فتاة غربية تعيش قيم ومخرجات حضارتها البيضاء المتفوقة وتمارس حريتها الشخصية باستقلالية تامة عن وصاية ذويها، كيف يمكن أن يبدأ معها؟

هي من كسر طوق الصمت.

تحدثت عن جرح قديم وغائر لا يزال ينزف في عمق ذاكرتها.. كانت لا تزال بعد في فترة تفتح الصِّبا حين كانت تقطن في الريف وهي تناهز الرابعة عشرة. ذات يوم خريفي خبزت أمها فطائر التفاح وجهزت سلة صغيرة وأمرتها بإيصال الفطائر إلى القس «دونالدسون» راعي أبرشية البلدة التي كانت تبعد نصف ساعة فقط، وقداسته كان متعوداً كرم أمها ولطفها ولم تكن المرة الأولى التي تهديه فيها فطائرها البيتية.

القس «دونالدسون» ودود وطيب، شعره الرمادي الوقور وعيناه الزرقاوان الهادئتان، فهو مصدر فخر البلدة، لا أحد يشك بنواياه الطيبة في خدمة «يسوع» التي نذر لها حياته بإخلاص وصبر منقطع النظير.

«أطلقت زفرة حزن وبكت»..

واسى حزنها وقدم لها منديله.. شكرته وهي تغالب ألمها واصفةً ما حصل، وقد وصلت بدراجتها إلى الكنيسة واستقبلها القس استقبالاً

مختلفاً عن كل مرة!

أخذ سلة الفطائر وأسبل جفنيه يصلي صامتاً ويطلب لنا البركة، تحدث عن طيبة أهل البلدة ولاسيما عن أمها الكريمة.

«توقفت قليلاً عن الكلام وحدقت به» وقالت كيف سلخ الرجل براءته وكشف زيف تقواه وفجَر بها في بهو الكنيسة أمام الرب، أوهمها أن الرب يتفهم خطايانا ويعطينا الفرصة للغفران لأننا بشر لنا أخطاؤنا ولسنا ملائكة! وأنها لا حرج عليها أو عليه فيما حصل!! فقط عليها كتمان كل تفاصيل بهو الكنيسة في ضحى ذلك اليوم ولتأخذ بركتها منه.

ظل «علي» متسمراً يراقب أنفاسها المضطربة ويتعاطف معها. أوضحت له بأنها لا تستحق عطفه وحادثة حقل القمح كانت في الأصل رهاناً أحمق من صديقتها «جورجيت» التي كانت تصف «علي» بالعربي المتزمت دينياً وأنه لن يرفض أول فرصة تأتيه لممارسة علاقة جنسية. «جورجيت» وبقية الصديقات تحدينها أن تفعل وتثبت أن «علياً» كذلك. ومن باب المغامرة والطيش فعلت ما فعلت وأوهمته بأنها مفاجأة سارة!

ثم قالت.. أنها قررت أن تفعل هذا لمجرد المتعة وأنها لم تكن تريد أن تُثبت أمراً ما هنا، لكن «جورجيت» أغاظتها حينما وصفتها بالسحاقية الشاذة التي تتجنب شباب الجامعة!

هي الآن نادمة على طيشها واندفاعها المجنون «تقول».. أن القس «دونالدسون» خُصّ بجنازةٍ مهيبة منذ عامين وبقية صورته ناصعة بيضاء، هو خادم الرب المخلص. كم تحتقره الآن وتزدريه، تشعر بالغثيان كلما ورد بذاكرتها، وهو يستغل طفولتها البريئة.

«سكتت للحظات وتحسست بأناملها قسمات «علي» وروحها شفافة الحضور و الشعور بهذه اللحظة الصادقة».. أعربت له عن احترامها لشخصه وأنه لو كان مسيحياً.. لا حاجة لهذا، فهو في نظرها «قديس»!

رجل آخر كان حرياً به أن يقتنص فرصة مضاجعة عابرة من فتاة غبية ومن يهتم؟!

لكنه لم يفعل لأنه نظيف من الداخل وصادق مع ضميره وإنسانيته ولا يدعي الزيف والبريق الكاذب.

لا رغبة له في تأنيبها أو قول أي شيء، لكنه طالما حدثه إحساسه أنها قد تغرم به يوماً ما، ها هو أمام خوفه مستسلماً، لربما أصعب ما يواجهه الآن سؤال يُلح عليه.. «علي»، هل تحب «كرستين»؟! تتذوق حب امرأةٍ من حضارة أخرى وعالم بعيد بقيمه وعاداته عن ما تربيت عليه.

وتشغله الأسئلة، ينزف مخاوفه ويبحث عن مخرج أو مساحة للهروب من كل هذا، فيشرد إلى تأمل الظلمة الحالكة التي تلف الريف تتناثر فيه الأضواء كالنجوم اليتيمة مثله الآن، يتيمٌ بشعور الوحدة تلتصق به أنثى جميلة يستطيع الذوبان في أحضانها والارتواء من مسكها لو أراد ولكن..

استمر محدقاً ومسافراً في ظلمة البعيد وهي.. دسّت رأسها في صدره ونامت كطفلة، تجاسرت أصابعه فداعبت شعرها فخفق قلبه بسورة الظمأ المتروك في غياهب حزنه المخبأ.

الفصل الخامس و الثلاثون

السكين حادة بنصل يلمع بين يدها وهي مستغرقة في التحديق ثم رمتها على سطح الطاولة وهي تقول لنفسها: ستموت يا «حكروش» الكلب، عش لحظاتك الأخيرة أنا آتية إليك.

فقامت تضع لمسات ماكياج سريعة، تأكدت من أناقتها، تجاهلت ظهور بقع حمراء منتفخة تتناثر على عنقها. لن تكترث بشيء ولا حتى موتها القادم من فم الوباء الذي يزحف بطيئاً نحوها وينهش عافيتها.

ستسعى خلفه وتعرف أين يتعفن ويتسكع في الغالب، لربما هو الآن في الفندق الذي يملكه «حمدان المختار» أو ربما في مركز المساج، هذا الفأر لا يغادر جحوره القذرة، يجني المال والشهوة والعبث.

خبأت السكين في حقيبتها، انطلقت بسيارتها إلى وسط المدينة، تحفظ هذه الشوارع كما تحفظ صور دناءته وشره، لا ينبغي له أن يعيش، إنه فيروس خطير، حشرة يتوجب سحقها.

خمسة عشرة دقيقة فقط وتصل، غير أن اكتظاظ الشوارع وإشارات المرور تجعل الأمر مزعجاً، هذه الدقائق تطول وكأنها دهر.

انتظار ضوء الإشارة المرورية ممل.

يبرز في ذاكرتها، تلعنه وتتمنى موته خصوصاً حينما يفرقع تلك الضحكة الساخرة وهو يعد أرباحه الفاحشة من أنشطته القذرة، اليوم ستهديه ما لا يقدر على رده، تعرف كيف تصيبه في مقتل. «حكروش» من

ذلك النوع النهم جنسياً، إنه أربعة رجال في رجل واحد هذا الداعر.

انفتح المسار فانطلقت بسرعة.

اتخذت انعطافة مختصرة فوصلت إلى الفندق وركنت سيارتها وقلبها يخفق لا تدري لحظتها أي شعور ينتابها، علها قلقة ولكنها ليست خائفة منه على الإطلاق.

كما توقعت.. ها هو يثمل عند البار وإلى جانبه مومس أجنبية صفراء ذات أنف أفطس يعابثها.

تقدمت من البار واتخذت مكاناً وقالت للساقي:

- كأس "شيري" لو سمحت.

وكأن صوتها غاص في جلده كالحديد المحمي، أفاق من نشوة سكره وحدق بعينين محتقنتين مندهشتين..

- «علياء»، نعم أنتِ هي.. «أبعد عنه فتاته و اقترب مندهشاً وشرب آخر جرعةٍ من كأسه» ثم قال:

- أهلاً.. أهلاً بدجاجتي التي تبيض ذهباً، أنا..

- أنت.. أنت لا تزال تحب الرمان المحلي صح؟!

توقدت عيناه بفرحةٍ منفلتة وفزّ عن مقعده، طلب من ساقي البار زجاجة «فودكا» وتأبط ذراعها وهو ما بين السُكر والهذيان يقول:

- سنحتفل، سنحتفل الليلة «علياء»، الرمان المحلي لا يفوّت!

وقبل أن يستقلا المصعد أشار عليهما الساقي بعد أن أقفل سماعة الهاتف، أن السيد «حمدان» يريدهما في المكتب حالاً.

مسترخياً في كرسيه يدخن ويحتسي قهوته الإيطالية، يحدق في فنجانه ثم يأخذ نفساً طويلاً من سيكارته وهما وقوفاً عنده، تناول سماعة الهاتف وتكلم ببرود..

- دعه يدخل!

«حمدان» هذه المرة تحيطه هالة غموض تملؤه قوة غريبة في حديثه وعدم اكتراثه، لا تدري لمَ كبّلها صمت الموقف وشل حركتها هكذا وكأنها

نست ما خططت له قبل مجيئها، تسلل الخوف إلى قلبها.

فتكلم «حكروش»..

- ماذا تريد؟ اتركني أقضي أشغالي، عندي احتفال مع هذه الحلوة و.. فو.. فودكا على حساب البار إن.. إن لم يكن عندك مانع، أنا سأتفاهم معها، «علياء» فتاتنا صح «علياء»؟ لا يمكن أن تبيعنا ببساطة، تفضل ها.. ها.. ها هي رجعت إلى الشغل لا داعي للمشاكل «حمدان» آآسف.. عمي «حمدان»، أنا أضمنها هذه المرة صدقني لن تهرب.

استنفذ سيكارته ودعسها في المنفضة.

- وأنا أضمن هذه المرة.. أنتما الاثنان لن تفلتا مني، خلاص لا حاجة لي بك «حكروش» أصبحت سكّيراً عديم الفائدة كثير المتاعب. وأنت «علياء» مومس تثير الشفقة تهدد ولي نعمتها بتقرير طبي تافه، على فكرة.. محاولة جيدة ولكنها لن تمرّ على «حمدان».

دخل أحدهم وهو يحمل حقيبة، فأمره «حمدان» بفتحها..

- لكما الخيار.. هذه الحقيبة بها مائة ألف دولار تقاسماها.. لا أعرفكم ولا تعرفوني من أصل.. أنصحكما بقبول العرض وإلا.. إشارة واحدة مني تورطكم في قضية سياسية مع وزارة الداخلية هه ما قولكما؟!

مشت «علياء» بضع خطوات والتفتت لـ«حمدان»..

- أعرف أنك.. حسناً لا يهم، سلمني حصتي ولتذهب إلى الجحيم.

- هيا.. لا توجعي رأسي، وأنت بسرعة تكلم ولا تضيع وقتي.

يتلفت كما الضائع، بدت على وجهه إمارات الانكسار والخيبة لأول مرة ترى «حكروش» بهذا الضعف.

ـ عمي «حمدان» اتركني سأبقى أخدمك، أنت لا تستغني عن «حكروش».

- يا حثالة ألا تفهم؟! هل أعيد كلامي حتى يفهم رأسك اليابس؟!

- أنا من دونك أضيع يا عمي، عندي خطة جديدة ما رأيك في تنشيط العمل بمركز المساج؟ سأجلب فتيات جديدات أكثر شباباً و... ولنتاجر

بالمشروب المحلي نصنّع ونبيع و.. عندي أفكار كثيرة فقط لا تستغني عن خدماتي، الله يخليك عمي.

بقي صامتاً في كرسيه الوثير ثم تنحنح، صاحب الحقيبة أعطى «علياء» نصيبها وفتح لها الباب ولكنها قبل أن تخرج، حدقت بغضب في وجه «حمدان» حملت نظرتها تلك كل كرهها واحتقارها له ثم بصقت فوق سجاد المكتب و«حمدان» جامد لا يرف له جفن.

***

تلعب الأضواء الليزرية في جنبات الصالة، تصخب الموسيقى بإيقاعات الفرح، تُلهب الأجساد المتمايلة في رقصها المحموم، همسات حب واشتهاء وضحك يعانق روائح العطر المتطاير حيث إحدى الفتيات توشوش في إذن «قاسم» وهما يرقصان بفرح.

فتحدث «حمدان» وهو على إحدى الطاولات..

- منذ قليل كنت أنوي طردك، قلّت كفاءتك في العمل ولكن..

- عمي أنا طوع إشارتك و«علياء»..

- لا تنفعني في شيء، هذه الأفعى لا تذكرها أمامي مفهوم؟ أنا أريدك أنت.

- أنا نسيت كل شيء.. نحن متعادلان و.. لا غالب ولا مغلوب، اشرب اشرب عمي هذه ليلتنا.

- مركز المساج.. هل..

- لا تقلق الخطة بالتفصيل عندي، سأجعله.. يكسب ذهباً، هل ترى الفتيات هنا؟!

- أعرف قصدك تماماً.. نفّذ الخطة واعمل، البلد فوضى وهذا أنسب وقت لاقتناص الفرص. «استخرج من جيب سترته صورتها وشرّع يسبر عمق «مادي» يا لها من فتاة»..

أمعن النظر فيها وكأنها المرة الأولى التي يقع بصره عليها، يعرفها منذ كانت كتلة لحم بيضاء تضج صراخاً، ما عاد يطيق رؤيتها، لا يدري تماماً

السـبب وراء ذلـك ولكـن.. «عليـاء» في فـورة شـبابها فعلـت الكـثير أكيـد تكـذب، نعـم تكـذب ولا يمكـن أن تكـون هـذه الفتـاة مـن صُلبه. أنوثتهـا تتفجـر نضـجاً وحـلاوة، هـاتـان العينـان بهمـا نظـرة متحديـةً لا تُهـزم وكبريـاء غريب.

من تشبه هذه الفتاة؟؟

أحقاً مـا تدعيـه «عليـاء» لا لا هـذه المجنونـة بـدافع الانتقـام تبحـث عـن أي شيء لتبرد نارها المشتعلة بالحقد والانتقام.

استمر في مراقبتها وهو جالس إلى طاولته لا تنفك عنه هواجسـه السـوداء يجاهد كي لا يسقط في حفرها.

أنهى «حكروش» كأسه وهو يترنح، فقال:

- حسناً.. سأرجع بعد قليل أنا سأخرج.. سأخرج يا عمي.

ومشى مترنحاً من فرط ثمالته حتى بلغ الشـارع، توقـف محـاولاً التماسـك يهتز كما الفزاعة الرثة التي تلعب بها الـريح، بحـث عـن علبـة سـكائره حتـى وجـدها ولكنهـا سـقطت علـى إسـفلت الشـارع. انتظـرت طـويلا وهـا هـو الآن أمامها، شغلت محرك سيارتها واشتعلت عيناها بالحماس. صوت ما يصـرخ في روحها «الآن يا علياء.. الآن وبسرعة» فأطلقت العنان لصراخ الإطـارات المجنونـة وهـي تحـترق علـى الإسـفلت تنهب المسـافة المتبقيـة، تأخـذه الآن.. «حكـروش» الذي لم يكد يدخن سيكارته الأخيرة سـكنت جثته علـى الإسـفلت كومـة من العظام والدم.

وانطلقت بعيداً تهرب من كابوسها وقد أحرقت خوفها القـديم، لا يهمهـا الآن شيء، تصرخ بفرح انتصارها وهناك الجثة تتحلق حولهـا الوجـوه والأسـئلة وهول المفاجأة.

الفصل السادس و الثلاثون

يذرع الصالون محملاً بالقلق ولا يجد مفراً من قراءة ساعته وتفقد النافذة حتى اندلع من فرط توتره صوته الحانق وهو يلعن ما حوله!

أضواء سيارة «حمدان» من النافذة أشعرته براحة الهواء يغمر رئتيه المختنقة من الانتظار.

تباً.. إنه يتمهل في مغادرة سيارته ويتصرف بأرستقراطية زائفة يمثلها السائق الآسيوي حيث تعوّد على فتح باب السيارة لسيده المغرور!

صاح حانقاً.. «هيا يا أيها الطاووس المغرور من تظن نفسك.. الأمير شارلز»؟!

تقدم الخادم من الباب، تنحنح «حمدان» وهو يسوي ربطة عنقه فدخل..

- المعذرة سعادة الوزير على التأخير فالـ..

الوزير يقلّب بعض الأوراق وهو جالس لم يرفع رأسه..

- لا فائدة، التأخير تأخير اجلس اجلس.

....

خذ اقرأ هذه المصائب.

لحظة صمت لم تعجب الوزير، غادر كنبته الوثيرة وهو مشدود الأعصاب.

- تكلم، قُل شيئاً، بلعت لسانك أم ماذا؟!

ـ سمعت عن التشكيلة الوزارية الجديدة بالأمس فقط.

ـ فلتذهب التشكيلة وهذا البلد إلى الجحيم أنا أتحدث عن تعب عمري وحلالي، الصحافة الأجنبية تتحدث عن أرصدتي المالية وعن.. ملفات فساد.

ـ كلام صحافة يا سعادة الوزير.

ـ اسمع «حمدان» التغيير الوزاري الجديد في هذا الظرف الحساس لن يخدم الجمهورية والرئيس متمسك بقانون الطوارئ والأوضاع تتدهور أكثر فأكثر والذكي الفاهم..

ـ لا يضع بيضه في سلةٍ واحدة.

صمَت قليلاً وهو يحدق إلى سقف فيلته وتوقف خلف الكنبة التي يجلس عليها «حمدان»..

ـ هذا الكلام بيني وبينك، الرئيس..

ـ مريض!

ـ ألم تلاحظ الصور الأرشيفية التي تعرض في نشرات الأخبار، فعلياً فخامته غائب لتلقي العلاج والمعارضة ستعلم أنها مسألة وقت.

ـ نبرتك متشائمة ومخيفة.

ـ ليس إلى هذا الحد ولكن.. بقاء الرئيس على قيد الحياة أمر حيوي لمؤسسات الجمهورية وبقاء هيبة السلطة.

ـ تتحدث على المكشوف في هذا التوقيت بالذات، أنا أقصد..

ـ لا بأس، حساسية المرحلة تتطلب أن يحافظ كل طرف على مصالحة البلد مقلوبة و الشاطر من يحلب الضرع قبل فوات الأوان، ففي غمضة عين قد تخسر كل شيء.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ «حمدان» أنت أذكى من أن تطرح هذا السؤال الغبي.. اسمعني جيداً، قرارات الحكومة منذ أربعة أعوام في ملف «التجنيس» لم تكن قراراً سياسياً

حكيماً، المراهنة على ولاء المرتزقة انتحار سياسي.

قام «حمدان» من مكانه ومشى بضع خطوات قصيرة، تماماً هي الآن اللحظة التي حسب حسابها وخاف من دفع فاتورتها، لطالما أراد الكسب والمراهنة على الأوراق التي لا تخسر في اللعبة، الأوراق التي لا تحترق بسهولة ولكن..

الجدار الإسمنتي الشاهق لا يمكن أن ينجو من سطوة الطوفان، إذاً.. بمَ يراهن في ما تبقى من الوقت الضائع؟! وها هم أقطاب الحكومة يتصدعون من الداخل! لا لا، تفكير الوزير مشوّش أو ربما هو ثمل ولا يفقه ما يقول هذا العجوز الخرف!

- اسمعني جيداً «حمدان».. المزيد من الضغط يولد انفجاراً مضاداً قد لا يمكن استيعابه، أعتقد أن الرئيس لابد أن يقبل ببعض التنازلات التكتيكية خصوصاً وأن الـ.. أتعرف ما مشكلة هؤلاء؟! الكثير منهم لا يقرأون التاريخ، يا رجل خَلِ عنك الضجيج الإعلامي الذي يثار عنهم، مجرد تطبيل فارغ كالشعارات النهضوية والثورية التي يجعجعون بها، أنا لا أدري لماذا..؟

- تصريحاتك أمس في الجرائد عن القضاء على الفتنة ومحاربة الذين يهددون الوحدة الوطنية قوية بالفعل.

- واليوم أيضاً على حدود الساعة التاسعة هناك لقاء تلفزيوني مباشر، إنها أوامر فخامته، على فكرة مقدم البرنامج سيتصل بك أريد منك وقفة وطنية من العيار الثقيل وشكراً على جلسة المساج الـ..

قهقه ضاحكاً يتردد صدى ضحكته في المكان ومشاعر «حمدان» تنمو كالفطر الأسود لا يرى أن هذا العجوز تُرجى منه فائدة غير أوامره المتكررة والاستعلائية وصراحته الفجة الفارغة تماماً مثله.

- فيمَ تفكر «حمدان»؟! أكيد تفكر فيها ومن هو مثلك!

ـ تعني زوجتي الجديدة.

ـ الرجل يحتاج من وقت لآخر شيئاً من التغيير والـ.. تجعلني أعود بذاكرتي لثلاث سنوات مضت قبل التوزير، أنا لا أذكر بالضبط، اقترح عليّ أحد الأصدقاء آنذاك أن نجرّب شيئاً من المتعة، أنت تعرف لهفة الرجل إلى تجربة الأمر، أتذكر تلك النظرة الجميلة الحادة من النوع الذي يُحفر في ذاكرة الرجل، فتاة حلوة اسمها.. اسمها نعم نعم قد أنسى الدنيا لكن اسمها وتلك الليلة المذهلة التي قضيتها معها لا يمكن أن تُنسى، «مديحة» هذا هو اسمها الأول، كانت أروع تجربة في حياتي، أول جنون تتصاع إليه حواسك وكل ما فيك فلا تعود تفكر إلا في الهرب إليها ثانية ولكنها بعد الزيارة الأولى اختفت، اختفت وتركتني معلق الإحساس ومتورطاً في غوايتها اللذيذة وكأنها أول كأس «شمبانيا» تنتشي بجنونها ولا تعرف من أين يأتيك الفرح ولا تريد مفارقتها!

نصف حياتي سلسلة فاشلة من التعاسة مع النساء، أتعرف.. توصلت إلى أن الزواج مؤسسة اجتماعية فاشلة وأنا لا.. هل تستطيع «حمدان» أن تجد لي هذه المرأة؟ وخذ مني ما تريد!

نحن أصدقاء «حمدان» انسَ كوني وزيراً وتذكرني كصديق يحتاج إلى.. فهمتني طبعاً؟!

دارت برأسه الدوائر وها هي الآن لحظته الحاسمة، يستطيع أن يحقق المكاسب ويجني العسل!

أنتِ مثل أمك ذهب آه ه ه يا مديحة.. ولا أحسن من هذه الفرصة، ليبقَ هذا الوزير الشهواني رهن حيرته وشبقه فلينضج على نارٍ هادئة، ليبقَ هكذا محترقاً بذكرياته، قليل من المراوغة تؤتي نتائجها مع بعض المهابيل الذين تبتلعهم المصايد بسهولة، والله وجنيت الذهب يا «حمدان».

ـ أعتز بصداقتك «أبو راغب» تاج على رأسي والله، لا أستطيع أن أعدك

بشيء ولكنني سأحاول وكل ما دار بيننا في هذه الجلسة يبقى سراً لا تقلق.

ـ خلني أستريح «حمدان» وابشر بالخير ولكن كيف..

ـ لا تقلق ولا تسأل كيف سأجدها ، أنا أخبر بعملي وملزم برعايتك يا عمي «أبو راغب» ولك مني حفلة لن تنساها ، عندي في الفيلا.

ـ والله فكرة ، تعبت من وجع رأس الحكومة والاجتماعات المغلقة والرسميات ، أضع ثقتي فيك وأعتمد عليك.

ـ ولن تندم عمي «أبو راغب» ، خادمك «حمدان» موجود.

الفصل السابع و الثلاثون

تكاد الحمى تفتك بي وأنا محاط بقلق أمي، ترابط بحنانها عند حافة سريري أخجل من كوني مصدر كل هذا القلق المتراكم في نظراتها المرتبكة، ولا حيلة لي وأنا هنا طريح الفراش لا حول ولا قوة لي، مسجوناً ها هنا لليوم الثالث، نصف إحساسي مشلول وساعات النهار والليل متسقة في عذاب المرض والهلوسة لا تنفك عني وكل ما أراه أمامي مجرد خيالات ضوئية تجوب غرفتي.

أتعب في تفسير ما يحصل، أرى فيما يراه النائم وكأن سيارة الشرطة تكسر باب البيت وتفرّ أمي بصياحها مرتاعة تحاول تخليصي من قبضات العسكر وقد أحكمت حصارها عليّ أنا المذهول ضائع النظرات والإحساس مستسلماً أرى دموع «كلثم» لا تنجح في فعل شيء!

ثم تقفز أمامي صورة أخرى، أرى جلاوزة المختار ينهالون عليّ ضرباً وسط السوق وهناك مرتادو قهوة «أبو فخري» يضجون بضحكهم الآثم، البعض يبصق عليّ والآخر ينعتني بالعمالة والخيانة وآخرون يتراكضون وقد كدّسوا كتبي فوق أسفلت الشارع وأشعلوها حسرةً أمامي، فيطفر «أبو فخري» في وجهي وهو يضحك ويقول: «فليحترق قلبك على هرطقاتك الملحدة يا.. يا شيوعي»!!

لا أكاد أستوعب تدفق الجنون هذا حتى تدخل عليّ الغرفة مريم،

مريم؟! فلا تطالعني إلا بنظرة غاضبة يعقبها بكاء مكتوم يتوارى في قتامة عباءتها السوداء يخفي نصفها وجه طفل يضج ببكائه وهي تشتم عار رجولتي التي استمرأت الحرام، تشتمني وتترك الطفل على حافة سريري فتنظر إليّ شزراً وتحملني مسؤولية ثمرتي المحرمة وتمضي!

تاركةً إياي متوغلاً في أعالي الهواء والسراب لا أدري أين أنا؟!

وها شوكاً نارياً حارقاً ينزرع في لحمي، المرض يجرب خيوطه فيّ وأنا يباسٌ غزير ينهشني بقسوة وكأنني صخرةً تتردى في قاعٍ سحيق، لا أدري لِمَ أصابع أمي باردة، أنهكها سهر الليل ونامت ومسبحتها تتشبث بالخرزة الأخيرة من الدعاء والرجاء.

لكن الصور تعود لتشوّش إحساسي والوخز الناري يتمادى لاعباً فيّ ما الذي جاء به الآن إلى هنا؟!

هذا النجس «حمدان المختار» يفتح في مساحة دهشتي حقيبةً سوداء يضيئها بالمال ويقدمها بكل ثقة وهو جالس إليّ يدخن سيكارته، لا أفهم من صمته وجماد وجهه الشمعي شيئاً وحينما أردت مغادرة السرير..

فأوضح لي ضاحكاً وهو يطفئ سيكارته على كامدينو سريري، أنه عليّ أن أوقع على ورقة صغيرة ويسلمني الحقيبة بدسمها وشحمها أو..

محمد الأسمر الذي خرج من جهة اليسار وهو يحمل سلكاً كهربائياً يفرز شراره البرتقالي المتحفز كمثل نظرات الشر في عين حامله، لن ترحمني من العذاب الوشيك.

ينصحني بالتوقيع قبل أن ينفذ الأسمر جنونه المنفلت، خصوصاً وأنه يكرهني ويتلهف لحظة انتقام سريعة تبرد حقده الأسود!

ثم تساقط شرار شره وخوفي اندلع حينما اقترب مني وأنا لا أمسك صوتي المفزوع ينطلق لاءاتٍ هستيرية لا تدرأ الموت القادم ولا..

لا أجد في مساحة خوفي إلاها وقد أقبلت عليّ تدخل غرفتي وهي تنادي ربها، تستفتح بسورة الفاتحة مستعيذةً من أوساخ وهمزات الشياطين وهي

تنظفني من هلوسات الحمى، أرقب خيالها ضبابياً غائماً يسقيني الدواء، مرارته النافذة في جوفي تتسلل ببطء، تذكرني بما تبقى لي من إدراك وأنا أصارع للخروج من حفرة المرض، إني لا أزال هنا ملتصقاً مسجوناً بين زوايا الغرفة تعبق برائحة الدواء وبعض الذباب الذي يشاكس صفرة وجهي تصطاده المرآة وتفضح تعبه. في حضرة أم مغمضة العينين لا تزال تقرأ في سماوات عطفها وتتهجد من فيض تقواها كل جهات الفرج تستمطر رحمة كونية تتلطف بي.

***

شعاع ينفد إلى بصري، شجرةً تتسامق في تمو، شتلات خضراء ينفرج ربيعها من انتكاسة العطش إلى العافية، أتنفسها هذا الصباح تعلنه خيوط الشمس تتسلل من نصف ستارةٍ مفتوحة.

أنهض من رقدتي، أستجمع حيوية الروح، أشكر رحمته تعالى، أكنس وسوسات وهلوسات الشيطان الرجيم، أجد صوتي ضعيفاً ولكن «كلثم» سمعتني فأوقفت غسالة الثياب ورغوة الصابون منتفخة فوق يديها تهتف..

- الحمد الله على السلامة يا بطل، أجر وعافية، هل تريدني أن أزغرد؟!

تبسمت وأنا أنزل ببطء عتبات السلم، سألتها عن أمي..

- في السوق تتبضع حاجيات البيت، مرضك جعلنا نخدم أنفسنا، اجلس اجلس يا رائحة أبي، وضعت الشاي على النار ستفطر من يد أختك حبيبتك فطور.. (وهزت رأسها) بنظرةٍ مبتسمة ومضت إلى المطبخ تفوح منه رائحة الشاي توقظ جوعي، ها هو يستقبل تحريضه الصباحي الأول، صينية بلاستيكية عامرة بالروائح الطيبة.

- أمي وصتني، اسمع ولا تعترض هيا كُل.

- زيتون وبيض مقلي ومربى وفول و.. «كلثم» على الأقل اجلسي وشاركيني الفطور.

عند أصيص فخاري أحمر توقفت تروي ظمأ زنبقةٍ حمراء، أعطتني قفاها وهي تتكلم..

- إفطارك أحمد مقاولة واجبة التنفيذ، لا شأن لي هذه أوامر أمي.

- أينهم هم طلابك الصغار اليوم لا أسمع لهم صوتاً، هل ختموا القرآن؟!

- صرفتهم من حوالي نصف ساعة، أجد بعض الصعوبة في لجم مشاكساتهم إنهم يكبرون.

هجست كلمتها في باطن شعوري المتألم من أجلها.. نعم «كلثم» وأنت أيضاً تكبرين في وحشة العمر الراكض يستولي على أحلامنا المؤجلة الاستحقاق والمعاقة عن تحليقها المشروع، تكبرين يا «كلثم» وأنت جدول فارغ من الماء ذابل فرحه، تموت في جفافه جثث الياسمين تتهاوى في صمت الوجع، معصوبٌ نزف جرحه يتوكأ على حزن الصبر، مرٌّ طعمه في سكون الطريق.

طريق مسدود أو.. من يدري إلى أي جهة يفتح سعته؟!

وهل من وقت نلتقط فيه شظايا أحلامنا نرمم أنفسنا يا «كلثم»؟!

أني لأراه فارغاً «علي» هذا أسرته «لندن» وقد أسر قلبك وتركه رهينةً في أمواج القدر، إنه يعبث فقط لا غير. إلى الآن لم أقرر بعد الإفراج عن الرسالة، تسلمتها من ساعي البريد عند باب البيت قبل أربعة أيام.

ابن عمي، وإن يكن، لن أسمح لهرائه العابث بتحميل أختي أحلاماً دخانية كاذبة، من يحب يضحي.

لا شيء خلفه ولا جدوى من انتظاره وامرأة عمي ستحشد كل طاقتها لتقف ضد هذا الارتباط، لا فائدة.. حب محكوم بالتلاشي والفشل، استيقظي من دخانك الواهم «كلثم» احذري حفر وعوده، على الأرجح سيرتبط بزيدته الإنجليزية «كرستين».

نعم أعترف ولا أخجل، التهمت سطور الرسالة، أمرني شيطاني، استفزتني مشاعر الأخوة، يا ربي أنت تعرف مبرراتي ونظافة نيتي، سامحني

على ما بدر مني.

- وهذا هو الشاي، ماذا بك؟! إلى أين وصلت؟! نحن هنا هيه. أيقظتني فتفرقت غمامة أفكاري، أخذت منها كوب الشاي..

- شردت بعيداً وتركت إفطارك يبرد، هيا شاركني قليلاً من هذه الخواطر التي تفكر فيها.

- أنا.. لا شيء لا شيء، أ وه برد الأكل، بيتنا أصبح مليئاً بالحشرات المزعجة. (رمقتني بنظرة عتاب وقامت)..

- قلت أتحدث معك قليلاً ولكن لا يبدو عليك الحماس، نصف واجبات البيت لم أنجزها بعد، نسيت إخبارك أن «أبو فخري» سألني عنك أول أمس وأنت تعرف لا نستطيع استقبال أحد فلا رجل غيرك في البيت.

- ألم تعرفي منه ماذا كان يريد؟

- استفقدوك في القهوة، أخبرته أنها مجرد وعكة صحية عابرة وستعود إليهم متعافياً وأبلغني توصيل السلام وذهب إلى شأنه ولكني لاحظته يحمل ورقة واضح أنه متردد وعنده غرضٌ ما..

- ورقة؟!

- أنت تختلط بهم هذه الجماعة التي تثرثر في مصائب السياسة، ربما يطلبك حتى توقع على العريضة الشعبية التي تنتشر في الجمهورية هذه الأيام.

- عريضة من.. الشيخ؟!

- فيصل المقادي المحامي يتزعم تكتلاً من محامي الجمهورية وخرج في مظاهرة حاشدة في العاصمة وأطلق العريضة التي سترفع إلى المفوضية العليا لحقوق الإنسان بمجلس الأمن.

- العريضة، فيصل المقادي أم م م.. سبحان من يغير ولا يتغير.

سكتت قليلاً وهي تحدق فيّ ثم شهقت.

- أحمد، اترك عنك الموضوع، إياك أن..

- والله أوقع وأنا مغمض العينين، هذا أقل القليل أن نعلن انتفاضة

كرامتنا وحقوقنا من هذا الرئيس (الـ..).

ـ وهم أيضاً أعلنوا عن تحويل ناقلة نفط ملغية من الخدمة ستحولها وزارة الداخلية إلى سجن عائم لاستقبال أفواج جديدة من الأبرياء.

ـ خلِ عنك هراءهم، عرض عضلات فارغ من المصداقية تسوقه الصحافة الحكومية لنشر الخوف في أوساط المجتمع، ما أتعسهم لا يزالون يطبقون نفس الأساليب القذرة من الترهيب، معقول.. فكري فيما تقرأينه، لعبتهم مكشوفة ولا تنطلي على أحد.

ـ تقصد أن الحكومة..

ـ أفلست سياسياً أمام الشعب ولا تقدر على الخروج من مأزقها بشكل مشرف والأيام القادمة ستحمل المزيد.

ـ في هذه أتفق معك، نعم ستحمِل المزيد من المصائب، سترك يا رب.

ـ هذا الوطن الغالي سيعود مطمئناً.

ـ وأنا أريد الاطمئنان على غسيلي، يكفي كلام في السياسة.

ضحكت بخفة روحها الطيبة، مرت على زنبقتها الحمراء وداعبتها في وقفة صمت، داخلها المخنوق يتحدث كلاماً لا أسمعه، ولكني أعرفه، سامحيني «كلثم»!!

الفصل الثامن و الثلاثون

قلت لك كفى، لا توجع رأسي، تسمعني قصة حياته التافهة، «حسين الحكروش» انتهى خلاص، أياً كان المتسبب في مقتله لا.. أعداؤه كثيرون، يرحمه الله.

ـ مديحة لمّا عرفت بالخبر استجنت يا عمي «حمدان».

ـ العبدة تبكي سيدها وما الغريب في هذا؟!

اسمعني.. يكفي ثرثرة، الآن تنزل من الفندق وتذهب إلى مركز المساج لتستلم مكان «حكروش»، ما هذا؟! ستبكي من جديد يا «قاسم» مثل الأطفال؟! هيا هيا اذهب إلى عملك لا تضيع وقتي، لحظة لحظة.

ـ نعم عمي «حمدان».

ـ استدعي «مديحة» على مكتبي قبل أن تذهب.

دعس سيكارته وهو يضحك ظافراً.

ـ إلى جهنم يا «حكروش» الوغد.

يتفرق دخان ضحكه قام يتمشى في مكتبه الفسيح، يهز رأسه يدندن أغنية فرح في هذه اللحظة الحاسمة، يفتح الثلاجة، يفتح علبة البيرة الباردة ولا يزال يدندن انتصاره..

ـ أنا.. أنا تهددني، جاء أجلك وانتهيت منك.

نغمة الهاتف تستحوذ على لهجة انتصاره، يرفع السماعة ويجيب بصوت

مسترخٍ..

ـ نعم..

ـ تعازيّ الحارة على مصابكم الجلل في فقيدكم «حكروش»، يا حرام.. شفت كيف مات ميتةً شنيعة؟!

ـ ممتاز «علياء» والله خدمتيني خدمة العمر، النجس كان يبتزني هيا تعالي إلى المكتب واستلمي المكافأة.

ـ لعبك مكشوف يا نذل.

ـ «علياء» نحن ناضجون وأكبر من حركات المراهقين هذه، تعالي نعود إلى أيامنا الخوالي سأنفذ جميع طلباتك. (ضحكت)..

ـ «علياء» الوسخة تستحق كل هذا العطف، لا.. هذا كرم كبير منك لا تستحقه مومس منتهية الصلاحية يركبها العار، «حمدان» اعترف بخوفك، الأمر عادي جداً.

ـ مثلكِ لا يهز شعرةً في رأسي وسوف.. ملعونة أقفلت الخط سترين من هو «حمدان»!

التفت إلى الباب، أفرغ ما تبقى من علبة البيرة في جوفه..

ـ تفضل.

دخلت إلى المكتب محملةً بحزنها وإن بدا عليها التماسك.

ـ «مادي» الحلوة ما كل هذه الدموع؟!

ـ أنت قتلته!

انتصب واقفاً، عبث في غابة شعرها الليلي المعتم، دفع إليها علبة سكائره، أخذت سيكارة فتكرم بإشعالها وهو يهز رأسه بخبث الشياطين.

ـ من وقت إلى آخر نختلف ولكن هل يعقل أن أقطع يدي اليمين، رحيل «حكروش» بهذا الشكل الفظيع كان.. كان كومةً من اللحم والعظم المعجونة بالدم وأنا حرصت ألا تعرفي بالخبر إلا بعد الدفن، لقد خسرتُ

صديقاً وفياً أتظنين أن لي قلباً من أسمنت ها؟!

ـ «حكروش» لم يكن رجل سرير عابر لقد أحببته، رفض الزواج مني أكثر من مرة لكني ظللت أحبه.

ـ الحب تضحية وليس مجرد كلام رومانسي مستهلك.

ـ أشعل النار في رأس من فعلها ولا أبالي، «قاسم» يقول أن شهود الحادثة لم يتعرفوا على السيارة.

ـ «قاسم» لا يعرف شيئاً، يعلف ويسكر على حساب الفندق لا يدري أصلاً بشيء، لولا خاطرك عندي لطردته.

ـ إذاً من يعرف؟!

ـ الكاميرات الأمنية للفندق هكذا أُعلمت من قسم الأمن وطلبت تقريراً عاجلاً عن الحادثة منذ عشر دقائق فقط.

ـ إلى الآن لم تكشف الفاعل لا تتلاعب بأعصابي.

الآن.. هذا هو صيد الملوك في ساحة الدهاء!!

تطلع إلى عصبيتها بين الحيرة والغضب، إنها الآن محاصرة بالشكل المطلوب وفي أضيق زاوية للهجوم.

أجل.. لتصطدم الأفعى مع نظيرتها، مسألة وقت ليس إلا، حتى لو ترتبت على هذا الاصطدام بعض الخسائر، المهم إحكام السيطرة على خيوط اللعبة، حتى تنتهي «علياء» من الوجود وينتهي كابوسها، كذبة تافهة تسحقها و.. ولنرَ ماذا ستفعلين يا «علياء»؟!

ـ المهم «مادي» لا نريد مشاكل، اسمعي كلامي فأنا أ..

ـ إن لم تتكلم سأبحث عن المجرم الذي فعلها بنفسي وسـ.. ماذا أفعل بهذه الورقة؟!

لم تكمل تدخين سيكارتها، أزاحت خصلات شعرها بعصبية وحدقت في مساحة المفاجأة بنظرات مستنكرة..

ـ «علياء» «أمي» أوتقصد تشوّش تفكيري ولكن..

....

تكلم أنت تفجر جروح الماضي تذكرني الآن بسيرة هذه المرأة الفاسقة وتسكت، ما علاقتها بـ «حكروش»؟!

ـ بالفعل امرأة زبالة خرّابة بيوت وتـ..

ـ لعنك الله، اسكت ولا تشتم أمي!!

ـ سامحك الله «مادي» أنا واسطة خير، هكذا تجازيني؟!

ـ وأنت يا عمي «حمدان» تفجّر في وجهي قنابلك وتريدني أن أضحك، ذكرتني بها، هربت عني وتركتني وحيدة وها هي كالشبح تظهر في حياتي من جديد، عساها تحترق بكاز ولا.. تكلم، تكلم.

ـ قبل ثلاثة أيام كنت مسافرة صح، أنا أعرف، حضرت إلى الفندق وهددت «حكروش».. لماذا؟؟

هناك قصة قديمة أنا أعرفها جيداً ستكشف لكِ كل شيء، وما على الرسول إلا البلاغ. «علياء» جاءتني في يوم من الأيام تبحث عن عمل، كانت مجرد فتاة قروية، الواحد يشفق عليها من أول نظرة، من جهتي قررت مساعدتها لوجه الله وهو تعالى أعلم بالنيات!

لا تملك إلا مؤهل الثانوية العامة ورغم هذا سلمتها وظيفة مكتبية براتب لا تحلم به وطلبت من «حكروش» هنا في هذا المكتب، كان هذا في عام.. والله تجعليني أرجع إلى الماضي وأندم على عمل خير قدمته لها.

المهم.. أنا حينها طلبت من «حكروش» متابعة إجراءات التوظيف وهي كانت تجلس هنا في مكانكِ تسترق النظرات لـ«حكروش».

أعطيتها ثقتي وسلمتها الشؤون المالية للفندق وكنت معجباً بجدها وإخلاصها في العمل ولكني أصبحت أشك في توددها المفضوح نحو «حكروش»، في ظرف ثلاثة أشهر أصبحا صديقين، تصوري!

لم أهتم حينها بالأمر، أنا لا أتدخل في مثل هذه الأمور الشخصية ما دام العمل يمشي حسب لوائح الانضباط في الفندق لكني بالصدفة اكتشفتها

في وضع.. أخذت الموضوع بهدوء وقمت بطردها من العمل.

«حكروش» يدير نصف عملي فاستبقيته، هذا ما حصل يومها وتصورت أني انتهيت من القصة لكن «علياء» انتفخت بطنها، رأيتها صدفة في أحد شوارع العاصمة فتبعتها خفية إلى حيث تسكن في حي فقير وهناك رأيت «حكروش» يخرج من البيت كيس قمامة، عرفت وقتها أنه يسكن معها.

بعد فترة تقارب السنة أو أكثر، ضغطت على «حكروش» حتى يعترف، وقد فعل وأخبرني بعلاقته مع «علياء» وأنها كانت تكرر عليه طلب الزواج ليستر فضيحتها، وقد كان يرفض لكونها امرأة لعوب حولت مسكنها لماخور ولا تستحق شرف الارتباط ولما سألته عن الحمل لم يعترف بشيء.

نهضت من مكانها وهي مستغرقة في تقليب ما سمعته وأشعلت سيكارة جديدة.

- تعرف كل هذه البلاوي وتسكت.. أنا على الأقل أعرف أني بلا أصل ولكن لم أكن أتوقع أن أدفع ثمن نزوات هذه الفاسقة قبل أو أولد و«حسين الحكروش» قد يكون «أبي»؟!

- لا جواب عندي لسؤالك، تاريخها أسود وحكمت عليك بالإعدام ومن الطبيعي أن تقدم على قتله، «حكروش» جنى على نفسه، يا ما نصحته بتسوية الموضوع لكنه ركب عناده ولم يسمعني، بصدق «مادي» يؤسفني أن أقول هذا الكلام وأؤذيك بلا قصد.

- تؤذيني هه نكأت جروحاً وزرعت أخرى يا لك من..

- أتفهّم غضبك وخيبتك أنتِ لا تلامين في شيء.

بامتعاض ضربت بيدها على طاولة المكتب..

- أنت لا تشعر بالنار المستعرة في جوفي، سكاكين تنهش جلدي، قدر بائس لا فرار لي منه هي من رماني في جحيمه، أنا.. من أنا؟! لا شيء!

ـ هوّني على نفسك، الدنيا خسارة وربح.

ضحكت ساخرةً وهي تحمل حقيبة يدها..

ـ عمي «حمدان» أضحكتني، أوراقك لا تعرف إلا الربح، أنت أفضل من يربح في الجمهورية، لو طُبعت باسمك بطاقات اليانصيب لأستربح من ورائها الشيطان!

ـ تعالي أين تذهبين؟!

ـ رأسي منتفخة أكاد أنفجر كنتُ متشائمة قبل أن آتيك، سوف أسوي حسابي معها.

لوح بإصبعه في الهواء..

ـ «علياء» أفعى سامة قرصتها والقبر!

ـ وفّر شفقتك ولا تتدخل بيني وبين أمي.

الفصل التاسع و الثلاثون

داعبت طراوة أوراقها وهي في الأصيص الفخاري تميل عليها شمس العصر توشوش لها سراً عن فصل الربيع الآتي، «كلثم» قطعت عليّ لحظات تأملي وصاحت مفزوعة:

- لا ، ابعد يدك، لا لا..

- هداكِ الله تسيئين الظن بي.

- توقعتك ستقطتفها وهرولت إليك لأمنعك.

- ازرعي البيت بالورود ، لا تتركي هذه الوردة وحيدة ، أظهري حبك للطبيعة.

بما أنك تشجعني خذ هذا الكيس.

- ماذا أفعل به؟!

- أحتاج إلى تربة خصبة كي أزرع المزيد ، هل أنت مستعد؟!

- مستعد لأجل أختي حبيبتي، ولكن من أين؟!

- من.. من خرابة منصور!

- وما لكِ تقولينها مترددة هكذا ، السمع والطاعة يا أختي غداً سـ..

- هيا إنها الرابعة عصراً لا تتكاسل ثم إنك أخذت ثلاثة أيام إجازة من العمل وها أنت بعافيتك.

تفقدت هذه النظرة الأخوية الراجية في عينيها ، انصاع إحساسي راضياً

حيث لا أجد حرجاً عندما تطلب مني خدمة، أصلاً كل هذه الأمور الصغيرة من الزراعة أو هواية القراءة إلى مشاهدة برامج التلفزيون تشغلها عن أي تفكير سلبي قد يتسرّب لنفسيتها المحبطة.

حصّنت نفسي من البرد، أخذت منها الكيس وقبل أن أغلق خلفي الباب:

ـ حلّ الشتاء ولم نتذوقْ بعد العصيدة، الواحد يحتاج إلى شيء يبعث فيه الدفء.

ـ فلتكن هذه مقايضة إن كنت تقصد، سأحضر العصيدة مع أمي هيا اذهب لا تضيع الوقت.

إلى خرابة منصور، لا شيء يمنعني من الذهاب إلى هناك، حتى أن كل تلك القصص والتهويلات التي انتشرت في الماضي، لم تعد تعني لي شيئاً ولا اكترث هذه اللحظة إلا برؤوس النخيل المحروقة اليابسة، آخر مرة مررت بالخرابة وهذه هيئتها اليابسة، ما أبشع أن تتحول الخضرة إلى رمادٍ مفجوع بقسوة الموت.

لكن الموت لم ينتصر على صاحب هذه الخرابة، الكثير من أهالي «حداحيد» خلّدوا اسم الحاج منصور وسموا أبناءهم باسمه وتيمناً بشجاعته. دخلت إلى الخرابة، قرأتُ الفاتحة على روح الحاج منصور، قطعت نصف قراءتي مع نباح كلب قفز من بين الأحراش وأخافني وهو يفرّ مذعوراً، أأنا الخائف أم هو؟!

تنفست ببطء وأنا أحدّق فيه وقد فر من المكان مصحوباً بلعناتي الغاضبة. تفقدت الخرابة مرة أخرى تحسباً لأي مفاجأةٍ تباغتني، الآن أشعر بالخوف وقد تساقطت أوراق خوفي في فخ المفاجأة ولم أعد مطمئناً لهذا المكان، قد أبدو متماسكاً لكن هذا غير صحيح، أريد مغادرة المكان بسرعة فاستعجلت في فتح الكيس ونبشت برؤوس أصابعي رطوبة التراب وملأت الكيس ونظراتي موزعة ما بين الأحراش وباب الخرابة تخربش في تفكيري تهيؤات قلقة عن جنّ أو عفاريت ستستيقظ بعد قليل وتهاجمني!

تعثرت وسقطت فوق هذه النباتات الشوكية الشرسة، تشرب من دمي، كفي مشوهة بالشوك والألم ورغم برودة الجو، جبيني ينضح بالعرق، يزداد يقيني أنها مزرعة مشؤومة، ثم.. يكفي أني أقتحم مكاناً ليس من حقي التواجد فيه ومن أعطاني الإذن حتى آخذ بعضاً من تراب المزرعة؟! الحاج منصور غاضب الآن، أرضه الحرام تصرخ في وجهي وتحذرني، الإشارات واضحة وكلها تحمل الوعيد والتحذير.. أعتقد أني لن أتمكن من مغادرة هذا المكان ما دام الكيس مليئاً بالتراب!

أفرغت الكيس، نزعت بعض الشوك المزروع بكفي ثم شخصت ببصري إلى رؤوس النخيل المحروقة المتفحمة لا تزال في وقوفها الصامد وكبريائها المعاند تتحدى كروح صاحبها الحاج منصور. انتصبتُ واقفاً أنوي مغادرة هذا المكان المخيف.

دخان يتصاعد من الطرف الشرقي للخرابة، متى وكيف؟!.. أنا لم ألحظ شيئاً عندما دخلت، هناك أحدٌ غيري. الدخان يغزو أنفي، أتقدم بخطوات وجلة، سكون الخرابة يستفز أعصابي، سكون من النوع الذي..

أفكاري تصل إلى نهايات مبتورة هذه اللحظة، تتهيج جيوبي الأنفية بفعل الدخان، تتفلت عطستي، تتفلت مفاجأة أخرى أمامي.

صوتها الناعم يغزو رعشة الخوف وهو يستكين مطمئناً، ها أنذا أراها ثانيةً، أهي طيفٌ أم خيالٌ يهرب من ذاكرتي المهلوسة فقدت اتزانها؟!

جالسةً في كامل زينتها بجانب هذه النار الأنيسة الدفء، خاطبتني وهي تحيك قطعةً من الصوف في جلستها المتربعة..

- تعال تدفأ قبل أن تمرض.

أبحلق فيها وقد عرفتها الآن.. «جنية النخيل.. أمّ الخَضَر والليف» ها هي في نشوة جمالها لم تغيرها السنين، ها هي هنا تفرش لي ابتسامتها المرحبة.

- أحمد تحدق فيَّ هكذا مستغرباً؟! تعال لا تخف.

- تكلميني..

ـ ما شاء الله، منكبان عريضان لرجل ناضج وصدر صلب يتحرق شوقاً لاحتضان أنثى. كبرت حقاً.

ـ كيف.. كيف تعرفين؟! ثم.. أين رحلتِ؟!

ـ لم أبتعد عن «حداحيد» وأنت فيها، لطالما كنت معك!

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، ماذا تعنين بالضبط؟!

لا أدري.. زلزال في ذاكرتي، أتذكر كم مررت بتلك الحالات الغريبة و الوحدة تأكلني في غرفتي، لا أستطيع النوم وجسدي يشتعل كالجمر، الدفء حريقٌ من لذةٍ خفية، شيءٌ ما أجهله تماماً يجعلني مستيقظاً، شيءٌ ما يحتوي جسدي ويتناوله لقمة بعد لقمة، فأجد نفسي مرتعشاً في فورة الشهوة ارمي بياض جوفي المشتعل شبقاً وجنوناً في ظلام الغرفة، حيث هناك أصواتٌ أخرى، إنه صوت واحد لكن ليس مثله شيء آخر!

نهضت من جلستها وأمسكت يدي، أجلستني قربها وجسدي يرتعد، شبق جنسي يهاجمني الآن، إنها هي من يداوم على زيارتي، تمتصني حتى الاستنزاف الأخير من ليل عذابها اللذيذ وتمضي لتعود ثانيةً محملة بعطشها الذي لا يرتوي له جنون!

ـ أحببتك «أحمد»، أنت أطهر شيء في «حداحيد» أنت رجلي الذي تمنيته ورزقت من خيره الكثير!

ـ هذا يؤكد أنكِ كنت تم... هذا لا يُعقل.

ـ الحبيبة لا تفارق حبيبها، أنت لي «أحمد» نعم كلك لي.

سكنت أنفاسي إلى دفئها، عالم آخر لا أعرفه يحتويني بكل هذا التدفق الجميل.. أي شيءٍ هذا؟!

تشابكت الأشياء أمامي، حقيقةً أم حلم؟؟

ها أنا أشعر بطراوة جسدها الفتي، تدفن رأسها في جفاف صدري المتصحر.

كيف أفسر هذا السحر الخارق؟!

مدّت كفها الرقيقة إلى أتون النار وأخذت قبضةً من الجمر وهي مرتاحة تبتسم.. ولاءاتي الخائفة ممَ ستفعل لا تسمعها.

- أنت لي يا «أحمد»، لي أنا فقط!

في الحال مدّت كفها المليئة بالجمر المفرقع ودفنته بوسط سروالي، أذهلتني بحقّ حينما ارتعد جسمي وتزلزلت حواسي ودارت رأسي وهي تبتسم، تعتصرني في صدرها، كنت مستسلماً وهذا جمرها يدفن (....) فأحترق ولا أحترق في هذا الهذيان الرائع.

لكنها أخذت القبضة الثالثة من الجمر الملتهب، فأصبحت أرى جلد عضوي يشوى والسكرة تصادر حواسي إلى اللامعقول حيث ضحكها غير مكترث بشيء!!

تضمني في قوة، أكاد أسحق من قوتها الجسمانية ولحظة اتحد ثغرانا في رقصةٍ واحدةٍ، تبخرت من أمامي.

فتشت عنها فلم أجد إلا سرابها!

كان الظلام قد سبق دهشتي، تحولت الخرابة إلى هدوء وظلال يكتنفها الغموض مثل النار التي أوقدتها، اختفت أيضاً لكني وجدتُ سروالي مبللاً بالشهوة ملوثاً بالدخان وهذا تكويني لم يطرأ عليه تغيير وحتى أطمئِن نفسي تعريت هنا!

لا شيء تغيّر، لكنما تساؤلاتي تفتك بصوابي الآن.. ماذا أفعل وكيف أرجع للبيت هكذا؟!

الفصل الأربعون

رفع الطبيب سماعته وأخذ جهاز قياس الضغط ولفه حول ذراع «حمدان» وساد بعض الهدوء حتى تنحنح الطبيب..

- لحد الآن وضعك طبيعي سيد «حمدان» لكن نسبة الكحول عندك مرتفعة، خفّف من الشرب.

- وضعي طبيعي.. فقدتُ وعيي في مكتب الفندق، ألم يخبرك أحد؟! جمع الطبيب أدواته في الحقيبة «السامسونايت» السوداء ولكنه فكر قليلاً..

- أعتقد أني.. «سيد حمدان» سآخذ عيّنة من دمك، ينبغي أن نتأكد للحيطة، أعطني ذراعك.

......

- لا تخف بعض الفحوصات الروتينية لا أكثر، وهذه مجموعة فيتامينات ومقويات، الزم الراحة وابتعد عن التوتر والكحول والقهوة لمدة أسبوعين، البلد تحتاجكم.

- تقصد بلاوي البلد تحتاجنا، شكراً شكراً.. متى ستزورني؟

- أستلم نتيجة الفحص وأزورك نهاية هذا الأسبوع.

غادر الطبيب الفيلا. ظلام «حداحيد» الهادئ يسرقه في غفوة، ينام «حمدان» وهو يقبض على وصفة العلاج بيده اليسرى وساعة الحجرة تشير إلى العاشرة مساءً.

لكنما هدوء المكان يتوقف!

كيف لهذا الخوف السيطرة عليه؟! و.. «محمد الأسمر» يمسك حبلاً وفي نظرة عينيه تربص وتحدٍّ وغضب و.. كل رجال الحراسة المخلصين لا أحد منهم، اللعنة عليهم أسيتركونه وحيداً مع هذا المعتوه، لقد فعلها بسرعة.

طوقه بالحبل من وسطه وشدد عليه الخناق.. هو مستسلم! لا يهرب من موته القادم وهذه «علياء» عند بركة السباحة لها وجه جامد كالأسمنت، تترك مقعدها وتتجه إليه، تضحك بسعادة، «محمد» يشاركها اللحظة ثم تبرز من بين أصابعه إبرة وبصرخة وحشية منفلتة تندفع إليه تغزو لحمه من جهة صدره و«علياء» تستقبله بدفعةٍ قويةٍ إلى البركة.. قبر الماء يحاصره من كل مكان يختنق، يغرق..!

***

ـ أهلاً.. صباح الخير سعادة الوزير، تفضل، تفضل عندنا في الفيلا.

ـ أنت من يجب أن تتفضل، جهّز نفسك غداً سترافقني بجولة سياحة إلى «موسكو» سفرة سريعة ألا ترى أننا مضغوطون هنا؟!

ـ كرمك واصل والله ماذا.. ماذا أقول؟!

ـ غداً يصلك سائقي الخاص في الثامنة مساءً، مع السلامة.

وصل «محمد الأسمر»، ظهر كالشبح وهو يحمل فوق عربةٍ مدولبة إفطار الصباح، تتدلى ابتسامته البلهاء، تغيرت ألوان وجه «حمدان» وسماعة الهاتف تتوقف في يده، حلم البارحة الكابوسي يصفعه الآن وينفجر..

ينفجر حانقاً في وجهه..

ـ لا أريد أن أرى وجهك يا كلب، غادر المكان يا فأل السوء.

حاول تدارك الموقف لكن «حمدان» حسم الأمر وما هي إلا لحظات و«محمد الأسمر» خارج بوابة الفيلا، خارج اللعبة وبعيداً عن حلمه الذي أراد، يقلب في كفيه رماد اللاشيء!

«رباب» تجلس بهدوء وتسكب الشاي، لم يظهر على وجهها أي تأثرٍ بما حصل، تبدو ساهمة أو غير مكترثة بشيء، هي هنا جسد بلا روح، مجرد تكوين شهي الطعم على مائدة النهار و الليل عليه تلبية أوامر الافتراس.

رفعت عينيها تنظر في غضبه واحتقان وجهه.. من يكون هذا الرجل؟! عالم من الغموض المتكاثف مثل سحبٍ ركامية كرماد فوديه الأشيبين تحتهما عينان صارمتان تمتلئان بالنشوة المعربدة ليلاً، نالت نصيبهما من الخمرة والنساء وسكونٍ وخشوعٍ فيه فقر المساكين وانقطاع الزاهدين إلى محراب التوبة في النهار.. ها هو، يبدأ طقسه الزائف ويقرأ القرآن.

أيمثل زيفه التعيس على الرب؟!

أحقاً يعتقد بشيء مقدس في حياته وهو غارق في مكبات الخطيئة والخيانة والدنس والتفاهة؟!

هراء.. هذا التسبيح ما هو إلا تبجح فارغ يتوجه إلى عشّ إبليس وحبات المسباح تسقط واحدة تلو الأخرى مثل ضحاياه وتلك التي تتأخر في قبضته تبقى منتظرةً خراب شره، يأتي دورها لاحقاً، مسألة انتظار فقط وينتهي دورها إلى السقوط بين براثنه.

لمَ هؤلاء الذين يتحالفون مع الشيطان يصبحون مردةً في كل شيء؟! لهم بطشٌ لا يلين وأعمار طويلة وأموال خرافية، يتمتعون في الغالب باللصوصية وشعارات الشرف وألقاب التعظيم التي ترفعهم إلى مصاف الآلهة!!

أخذت رشفة من فنجانها، بلا حماس تصفحت الجريدة، مسحت قطعة الخبز بالزبدة والمربى فأكلت بلا شهية نصف ما عندها.

نفضت من يدها كل شيء، تريد مغادرة جلستها المضجرة فسمعته يتحنح..

- السيدة «رباب» ولا حتى تشرفنا بتحيةٍ أو كلام؟!

......

- فقدتِ لسانكِ، تكلمي.

ـ فقدت الكلام منذ.. تناول إفطارك لا تهتم.

ـ وكيف لا أهتم وأمامي دابةً خرقاء صامتة.

ـ ها أنت قلتها، دابة اشتريتها لكي تشبع حيوانيتك النهمة الـ..

ـ نعم نعم أخيراً ها أنت تتكلمين، لهجتكِ نتنة حبيبتي!

....

ـ كراهيتك المعلنة هذه لن تنفعك إن كنت تريدين الطلاق، أنت ملكي، أمسح بك الأرض إن أردت.. هل تفهمين؟!

ـ نهضت عن كرسيها وأعطته الجريدة..

ـ كلام جرائد.. هاك خذ اقرأ ما كتبته صحافة النفاق والتبعية نصبت منك نصيراً للمرأة!

ـ وأتحداكِ أن تُثبتي العكس.

ـ لا أستطيع إثبات شيء، أنت رجل سلطوي والآلة الإعلامية تسبغ على مقامك هالات القداسة.

ـ واضح أنكِ تقرأين سفاهات المعارضة.

ـ وأؤيد خطابها الوطني النبيل وتضحياتها المقدسة و..

ـ يا زوجتي الحبيبة، منشورات المعارضة هراء.. كل هؤلاء سيسقطون في الامتحان لو وصلوا إلى السلطة، لغة المال تذيب القناعات الحديدية وتشتري الضمائر النظيفة و.. كل واحد له ثمن!

المحامي «فيصل المقادي» و«الشيخ» و«أبو جواد» وغيرهم من الرموز التي تحترمينها، لا يستطيعون المقاومة، الحكومة تملك مفاتيحهم كلهم، سيارة فاخرة، قطعة أرض ورصيد مالي أو توزير هنا أو.. سفير بالخارج وكل ضجيجهم المتباكي على المواطنة وحقوق الإنسان ينتهي في لحظة، استوعبي كلامي قبل أن تُصدمي فيهم.

ترك صدى ضحكاته ينفلت، المسافة الفاصلة ما بين جنونه وشره تضيق في زواياها المعتمة، ثم أخذ الجريدة وأخفى وجهه خلفها.

الفصل الحادي و الأربعون

لمعان الديكورات الجديدة ورائحة الورنيش لا تزال تشمل المكان والسكرتيرة ترش معطر الجو وتتفقد ترتيب طاولة المدير العام للشركة وتقوم بإزاحة اللافتة الرخامية ناحية اليمين قليلاً، تتفتح بقوسين من الخط الفارسي «علياء الدخاخيني».

تلبي ثرثرة الهاتف في الحال وتخرج من المكتب..

- آلو مرحباً مكتب المدير العام.

- يقولون مديرك العام تقاعد والآن سلطة الكرسي عند «علياء الدخاخيني».

- لا أدري بأي منطق تحصل هذه الترقيات، الأرجح أنها كسبت تعاطف المدير السابق بـ.. تعرف اليوم كيف يصنع العهر مسؤولات وسياسيات وفنانات ومثقفات يتصدرن أغلفة المجلات والجرائد والتلفزيونات.

- هنيئاً لكِ أنتِ أيضاً.

- على ماذا؟! زيادة غير مقنعة في الراتب ومسؤوليات أكبر ووجع رأس مع هذه العاهرة المتنمرة، لولا الماكياج لرأيت قبح وجهها كيف يكون لا أطيقها ولا.. مع السلامة ها هي وصلت وصلت.

تدخل متأنقةً كالارستقراطيات، نظراتها لا مبالية وباردة وقاسية يحتويها مقعد المدير، عرشٌ من البهاء الباذخ فوق صدر هذه الشركة، تجيل

نظرها في اللمسات الديكورية الأنيقة التي حرصت على اختيارها من الكتالوجات العالمية، كل شيء على ما يرام ولكن..

ـ نعم سيدة «علياء»، حاضر.

تدخل السكرتيرة إلى المكتب منتصبة القامة تنتظر معرفة ظرف الاستدعاء..

ـ «ناهد» ما رأيك بديكورات المكتب؟

ـ ولا أروع يا سيدة «علياء» تستحقين كل خير.

ـ لكن هذه الرائحة..

ـ كنتُ متأكدة أن ذوقي سيعجبك وأ..

ـ متأكدة هه.. أصلاً ما عندك ذوق، في المرة القادمة بخّري المكان، لا أريد هذه المعطرات الكيماوية الرخيصة ولا تتصرفي على هواكِ مفهوم؟!

ـ نعم.

ـ لمِ أنتِ واقفة هكذا؟!

تغادر المكتب وقد تقزمت وأضحت كحبة الفاصولياء، تحتقن أعصابها بفعل هذه التهزيئة المجانية التي أذاقتها طعم الذل وقبل أن تفرغ غضبها والكلمات تغصّ في حلقها فوجئت بصاحبة النظارة الشمسية تجلس مفتولة الساق تدخن سيكارتها بشيء من الغرور والثقة المتعالية، رائحة عطرها المثير تختلط بدخان التبغ المحترق يشتعل متوقداً كالأحمر الذي ترتديه، آخر موضة لشباب «هاي لايت» قالت:

ـ هنا مكتب المدير العام؟

ـ مكتب المدير العام، هل من خدمة؟

هزت رأسها تسرح بعض خصلاتها بحركةٍ سريعة وهي تطرد دخانها وعنقها يمتد للأعلى، فتحت حقيبتها وحدّقت بمرآة فضية صغيرة، أضافت بعض لمسات الماكياج، تركت سيكارتها نصفها يحترق في المنفضة وتوجهت إلى باب المكتب.

ـ لحظة لحظة يا آنسة أنت تدخلين على المدير العام وليس سوبر ماركت، هل عندك موعد مسبق؟!

ـ لا أحتاج إلى موعد سخيف حتى أرى أمي، لا تسدي طريقي يا قبيحة! أبعدتها بغلظة ودخلت.

تدحرج أمامها أثقال المفاجأة، تتفجر كل تراكمات الماضي، وكل الأشياء النائمة في جراح الأيام، محتقنة النزف في البدء ولكنها الآن تطغى خناجرها وجعاً يقتحم نسيان العمر هارباً، لا فرار متاح لغربته الجحيمية.

لا فرار الآن، ماضٍ كريه، أمومة مغتصبة بالفضيحة تتعرى بكامل خزيها وتتهتك برائحتها كصندوق زبالة لا مناص من قبوله كواقع، واقع وجودها الآن وهي تنظر إلى فخامة المكتب. إن الدم للدم يختزن بصمةً مكويةً بالنار لا تمحى، شعور من الغبطة يطفو فوق مساحة ظمأ الروح، تربتها ملوعة بالجفاء من.. من خمسةً وعشرين عاماً، امتشقت شباباً ملتهباً حلاوةً وتمرداً يُفرح قلبها بلا ميعاد فتترك مكانها وتمشي مسيّرةً بطاقةٍ غيبيةٍ لا تعرف سرها ولا متى اتقدت فيها خطواً سريعاً إلى فيءٍ أنيس فيه دموع وحب وخيبة وخيانة وأشياء مختلطة عصيبة التفسير الآن، يبرد جحيمها عناقٌ لا يحتمل التأجيل عناق، عناق..

ـ ماذا تفعلين.. لا تخربي ماكياجي، قلتِ لكِ ابتعدي، أنتِ يا مجنونة ابتعدي عني!

حدقت في قسمات وجهها الجميل، شعر يتناثر سواده الفجري مجنوناً يثرثر ببهائه مثل هاتين العينين المقدامتين والطول المعتدل برشاقة رياضية تضفي على تكوين الصدر أنوثةً مكتملة الاستواء والعافية وفي أحسن صوره، حتى عندما كانت طفلة، وسامة وجمال قسماتها واضحة وها تألقها حاضر بعنفوان فورة الشباب، آه يا عذاب العمر وشقاء الأيام ماذا أبقت من يباسٍ أحرقته، خداع الماكياج وحمامات «الساونا» لا تفلح في إخفاء فضائحه حيث كل شيء يذوي في مهب التلاشي.

ها شباب الأمس يتجدد في جسد هذه الصبية، احتضنتها ثانيةً..

- حبيبتي «مديحة» ابنتي الغالية.

- لست شيئاً يذكر، أنا نكرة.

- أنت ابنتي التي أ..

- التي هجرتها لتتحول إلى قطة شرسة محاصرةً بنجاسات الرجال.

- .....

- عاهرة مثلك لا تملك رداً ولا..

طارت كفها في لحظة الصدمة وخلفت.. صفعة!

الصمت سيد الموقف يقتات من نار الغضب مشتعلاً في عينيها المذهولتين..

- عيب.. احترمي أمك يا متمردة، بعد كل هذه السنوات تأتين لتقولي هذا الكلام يا قاسية القلب ثم.. كيف عرفت..

- أمي المحترمة، صورك تملأ الصحف بالتهاني والترقية إلى منصب مدير عام، أكيد لاتزالين تحسنين استثمار مواهبك القديمة، لا، لا إياك الكذب أنا مثلك أقتات منه الذهب والدولار، أنا زرعك الذي زرعته، خذيه شوكاً وحشياً، تلك غصة القلب مدفونة في الماضي ولا ترجع هل تفهمين يا عجوز النار؟!

- الحديث بهذه الطريقة لا يفيد لنؤجل..

- سنوات طويلة ولا أعرف لكِ خبراً، فجأة كالشبح تظهرين لتمدي خرابك إليّ، «حسين الحكروش» لماذا..

- تربى على حليب الخنازير ويستحق مصيره، أجئتني لتدافعي عنه؟!

- على الأقل منحني حبه واهتمامه.

- متأكدة من هذا؟! ومنحكِ أيضاً رائحة عرقه وكل خيرات النجاسة والمعصية، غبية سلمتيه جسدَك فضحك عليك يا مسكينة.

- أنا وأنت لقمةً واحدة، لا تعايريني بهذا الشرف، ألم تسلميه نفسك

قبلي وترميني في هذا الجحيم؟!

- أنا لم..

- أنت فاسقة أورثت ابنتها اللعنة قبل أن تولد، غداً حين تموتين تلوثيني للأبد، العار لا يلد إلا العار.

جدران روحها ترتجف، كأن ضلوعها تهتز وليس ثمة طبطبة اطمئنان تزيح هذا الجمر الآكل من كيانها، هي ذي هنا مصائد للتعاسة والسقوط ولا شيء من امتيازات المنصب تغير من حقيقة ما كان بالأمس. من هم في مثل عمرها فتيات لطيفات يتأنقن لأروقة الجامعة ويبحثن في رفوف الكتب عن النور والمستقبل أو يتزوجن وينجبن الأطفال والذكريات الحلوة.

سرداب عميق من العذاب المسلط والغربة حيث الهواء الفاسد يتوغل في الذاكرة، تشرب سمّها.. سم الخيبة ومصائب الرجال مستمرٌ عفنهم في الخيانة والمتعة الرخيصة يتكاثرون كالذباب على الجيفة المباحة رخوة وناعمة تقدم الدفء والسحر والوحل والرفقة لقاء أوراقٍ ملوثةٍ بحريق الشهوة وضريبة «السفلس» يأكل في جسدها كالنار تندلق كحامض الكبريتيك على قطن المناشف، صديداً نازفاً لا يرحمه نهم الرجال النظيفين نهار والوسخين ليلاً!!

سيل من الجنون ينصهر ما بين سيقانهم، طلاب ثانوية يبحثون عن المتعة والاكتشاف، موظفون عزاب متسكعون جنسياً، مطلقون تنفجر شهواتهم الجائعة للحفر وبأي شكل، لكنهم يرمونها كالخرقة البالية عندما تنقضي الحاجة.

ولا يستريح أنين الجسد وخجل الفضيحة حيث يتركها «حكروش» تنتظر في رواق المركز الصحي متواريةً في سواد عباءتها بملامح مفضوحة كأن كل المرضى يعرفون عهرها بما في ذلك الطبيبة.

أغلقت باب الحجرة، يدها المحاطة بقفاز البلاستيك تتجول من تحت بمصباح صغير يكشف الكثير من انفراج الساقين.

نظراتها المتقززة كالسهام النارية، لا تزال تتذكر هذا حينما قالت بعد انتهاء الكشف.. «علياء»، حتى أدويتنا لا تنفعك، كل من يأتي هنا رجل أو امرأة أحاول علاجه بأمانة ولكن أنتِ..

ملفك المرضي سيء، أنتِ تنتحرين ببطء ألا تحبين الحياة؟!

صوت الهاتف يرتفع في هدوء المكتب، أعادها إلى مرارة الحاضر ورماده، فرفعت السماعة بعصبية..

- لا أريد استقبال مكالمات الآن مفهوم (أغلقت السماعة)..

- ولا أنا أريد..

- «مديحة» اجلسي ولنتحدث بهدوء، أطلب لكِ عصيراً، قهوة أو.. عندي هنا في ثلاجة المكتب بيرة باردة.

- لم آتِ هنا لأتضيف، الحقيقة يا أمي الـ..

كالإيقاع الموسيقي العذب يخترق جدب الروح المصطلية بالألم، نزلت الكلمة برداً وسلاماً على تصدعاتها..

- ما أحلاها في شفتيك، زمن طويل محرومة من سماعها.

- لا أريد هذه العواطف الغبية الـ.. تكلمي الآن.

- حسناً هذا من حقك سأتكلم بكل شيء ولكن ليس هنا.

- أنا على سفر، عندي التزامات، سنكون على اتصال «أوكي».

- أين هو حماسكِ منذ قليل؟! عموماً أمد لكِ يدي لنتصالح، حتى لا يقلب «حمدان» الوضع لصالحه وأنا أشك أنه وراء هذه الفتنة يريد أن يتخلص منا الاثنتين افهمي ولا تتهوري.

تجولت في أرجاء المكتب وهي غارقةً في أفكارها وهواجسها لا تدري أي الضفاف أصدق وآمن للنجاة.

- مشوشة، مشوشة ولا أعرف شيئاً ولست متيقنةً من شيء، «حمدان» «حكروش» وأنت دوّامة لعينة، رأسي تنفجر.

- صدقيني، إنها لعبة قذرة، «حمدان» ماكر وخبيث، احذريه.

- جئتك اليوم لتصفية الحساب، لم أقتنع لحد الآن بكلمة مما قلتيه عندما أرجع من السفر سأشرب وأتضيف عندك.

انتصبت واقفة وفي نظرة عينيها حزن أو ربما سؤال حائر يغوص في ضياعها وشتاتها.. أخذت حقيبتها وغادرت محملةً ببالونات القلق تتفجر بالمزيد من الأسئلة والسرابات التي تظلل رؤيتها للأشياء.

صعدت سيارتها، انحنت برأسها على المقود، تركت دموعها تنزف الغربة والوجع وكأنها اللحظة ورقةً تطوّح بها الريح في الاتجاهات، لا مستقر لسفرها ولا راحة لعذاباتها ولا هدوء لعواصفها، شديدة البأس تذيقها المزيد من الألم والخسران.

يرقص الجوّال على أنغامه الموسيقية ويوقظها من حفرة الجحيم فتزيح أحطاب حزنها المشتعلة بالقهر، تحاول أن تتماسك بعض الشيء..

- أهلاً عمي «حمدان» لا تقلق لم أنسَ.

- لا.. النسيان هنا خسارة لا تعوّض، الموضوع تحت السيطرة، «حمدان» لا يلعب إلا في التوقيت الصحيح، خلاص "الهامور" في "القرقور"، كوني مستعدة، خلي الأمر عادياً وحسب الخطة.

- والموعد عمي «حمدان»؟!

- لم يتغير، العبي مع «حمدان» صح تربحي!

الفصل الثاني و الأربعون

الورقة بين أصابعه، سطران فقط، الكلمات لا تطيعه والوقت ثقيل في هذا المساء اللندني البارد، وحيداً هنا و.. قرّر أخيراً التخلي عن المحاولة، كتابة بيان سياسي وطني مهمة، مملة هذه اللحظات، فكل أفكاره جفت الآن.

«علي الخميسي» على أهبة الاستعداد وسيمد يد العون لو كان هنا، فكرة واحدة تقدم الشرارة اللازمة التي تشعل فتيل الكتابة ولكن..

أخذ يقلب فكرةً بعد فكرة، لا فائدة ترجى.

أراح تعبه، الأريكة المخملية تحتويه، يحدق في الفراغ، تراخت أصابعه عن الورقة فسقطت فوق أرضية البساط الاصطناعية ودبيب لذيذ يتجمع في عروقه الآن يأخذه بعيداً.

سلم نفسه لنمو الدبيب الزاحف.

نام من فوره ولم يشعر بشيء إلا هذه المسافات البعيدة التي وجد نفسه غارقاً في تصحّرها الوحشي وثمة شيخ كبير يقتاده من يده، كلما سأله عن وجهة السير، أشار بيده المرتجفة إلى الفضاء المجهول وطلب منه ألا يجزع ويواصل السير فوق تربةٍ صحراوية تشققت من القحط تتهشم أسفل الخطوات يسمع كل ذلك وهو منقاد، مخدر الحواس حتى بدت في الأفق جنةً خضراء.

حالما وصلها وتوغل في اخضرارها.. أشار الشيخ إلى ربوةٍ عالية قصداها معاً وهناك.. كانت واقفةً في ثوب حيائها الأبيض لا يعرفها ولم يسبق له أن رأى أنثى بجمالها الملائكي الهادئ، كصوتها تناديه.

يحاول الاستفهام من الشيخ لمعرفة الأمر وهذا الأخير يقول له:

انتهت مهمتي يا بني!

حين بلغها في وقوفها المنتظر، هبّ النسيم فلعب بشعرها الكستنائي الناعم وبدت كالغيمة توشك على غناء مطرها، موسيقى تنبثق من كونٍ آخر.

مدت يدها، عقدت حول معصمه الأيمن شريطاً قماشياً أخضر وقبل أن يكلمها انتهى كل شيء وذاب في متاهة المجهول، لا الجنة ولا الشيخ ولا هي، فقط سؤال الصحراء شاخصاً حيث لا يعرف معالم الطريق ويبحث عن الاتجاهات!

استيقظ «أبو جواد» من حلمه.

دخل دوامةً أخرى، جحيم واقعه هنا، لا يجد ملاذاً لنفسه وأشباحاً كثيرةً تصطاد اطمئنانه. فنجان قهوة بالحليب كفيل بتخليصه من وجع رأسه المنتفخة بسرابات المساء، يقرأ ساعته، الحادية عشرة تماماً.

دخل إلى المطبخ وبحث عن القهوة فلم يجد شيئاً، فكر في ترك الغلاية تعمل ريثما يجد القهوة، قد تكون تقلباته وهواجسه متشعبة تعيق تركيزه الآن وهو يتفقد هذه الخزائن الخشبية، صحون خزفية مع ملاعق وسكاكين، أشياء كثيرة لا يحتاجها الآن فيبحث ويبحث، بلا جدوى يحاصره وجع رأسه موشكاً على الانفجار، فيركل غاضباً باب الخزانة الملاصق للفرن.

فتحت الخزانة فمها وعرّت المفاجأة.. كيس ورقي غريب يشدّ فضوله الآن فلا يحتمل الدهشة حينما يفتح سره زجاجتي كحول إحداهما مشروب نصفها الذهبي والأخرى لم تُفتح بهجتها النارية بعد، تتفجر الدهشة أكبر

مع علبة صغيرة تستلقي على بياضها الورقي أنثى نصف عارية، مد يده فوجد فاتورة شراء تعود لثلاثة أيام مضت!

أخيراً.. وجد عبوة قهوة «ماكسويل» فارغة.

أقفل الكيس بأسراره، لم يعد راغباً في شيء، أطنان من الهراء الفارغ وشعارات وآراء واحترام ونضال، كل ما حوله الآن دخان يتنفسه وقد.. ثمة موجة «تسونامي» تُجهز على شواطئ طيبته وضياء روحه فتهدر بعنف، طنيناً يحرق، قناعاته تتزعزع وهذا وقتٌ للخراب..

خرابٌ يزحف من كل الأمكنة والجهات، ألم يعد هناك ثمة نقاء يحتضن بعضاً من شظاياه، هائماً لا يجد مدناً فاضلة، تمتلئ بالضحالة والنفاق والخيانة ولمعان الزيف، أقنعة تتسكع في الوحل، هنا مياهٌ آسنة ستجبره على الركوع، يجد نفسه غريباً تفرّ منه اللحظة كل ذكريات الأشهر الماضية، يصطدم بقسوة و.. ماذا بعد تخبئ من أسرار يا «علي الخميسي»؟!

***

- بماذا تتكلم وتهذي؟! الشعارات التي ترفعها والقيم وكل التحديات الورقية التي أوهمتني بها، عيب يا «علي».

- هكذا تقدر صداقتنا؟!

- لأني أقدرها أنصحك، نساء وخمرة، هل جننت؟!

.....

- أنت لا تـ..

- أنا أمارس حقي كرجل و«كرستين» تهتم بي، ثم لماذا ترفع صوتك، أليست هذه الحرية التي تُذبح عندها القرابين في الوطن؟!

- «علي الخميسي»، نظّر كما شئت، هذه لندن الحرية التي تريد ولكنك لم تعد كما كنت، لست ابن «حداحيد»!

ـ ينقصني الآن أن تصادر مني جواز سفري، هيا ماذا تنتظر؟!

ـ جواز السفر ليس دليلاً كافياً على تأكيد الهوية، ها هو نظامنا الحاكم في الوطن يوزع هدايا التجنيس المجاني ولكن.. الهوية انتماء مخلص للوطن وإيمان راسخ و..

ـ أتزايد على وطنيتي؟!

ـ مفاهيمك مقلوبة و.. لا أستطيع أن أصفق لهذا التحول.. تغيرت «علي».

ـ لا حق لك في هذه المحاكمة السخيفة، هل تفهم؟! دعني يا أخي أتنفس بدون أن يطاردني عسكري يحاسبني حتى على أحلامي!

ـ العسكري الذي تتكلم عنه، يطارد شباناً في الوطن آمنوا بك وانطلقوا في الأزقة والشوارع يعنونون الجدران بصورك يا حضرة المناضل.

ـ «أبو جواد» ممكن تهدئ أعصابك.

ـ لست مضطراً لسماع صوتي الغاضب، آسف على الإزعاج، أعتقد أنه عليّ أن أرجع إلى الوطن، لا معنى لوجودي هنا.

ـ هذا انتحار معلن، أقدّر مدى انفعالك، أعصابك متعبة أكيد لا تعني مطلقاً ما تقول، الوضع خطير هناك.

ـ سأرجع، قلت لك!

أمسك سماعة الهاتف وبحث في دفتره الصغير عن رقم ما ثم توقف لحظة كأنما يفكر، قرر أخيراً وطبع أول أرقام تذكرة جحيمه بعدها انتظر بملامح جامدة فقال:

ـ آلو «حمدان».

ـ أكيد عندك أخبار جديدة.. تعرف اتصالك المفاجئ يسعدني يا رفيق النضال.

ـ دعنا من هذه اللعبة «حمدان»، هل تدخل معي في صفقة؟

ـ إرهابي يريد أن يعقد صفقة.. ومن قال لك أن موقف الحكومة ضعيف لهذه الدرجة. أنت تهلوس أم..

أسلمكم نفسي وسـ..

تدخّل من الجهة الثانية صوت «علي الخميسي» مذهولاً من المفاجأة..

ـ أنت مجنون بلا شك أنت..

بحركةٍ حاسمة من يده، أسكته بلا أدنى تردد فاستطرد..

ـ أعتقد أن الأنوف التي تبوسها وتصلي لها يا «حمدان»، لن تفوّت صيداً سميناً مثلي يعني لها الكثير.

ـ هكذا بسهولة، أنت بيدق مهم عند «الشيخ» أتعرف مدى خطورة ما تعرض؟!

ـ لم تجاوبني، أتريد هذه الصفقة؟!

ـ بشدة، تعرفني لا أتردد في انتهاز الفرص وقنص رؤوس خصومي.

ـ ممتاز هذا ما أريد سماعه.

ـ والمقابل يا رفيق النضال الموشك على التقاعد!

ـ فك الإقامة الجبرية عن «الشيخ» وإطلاق سراح «عباس الصيري» مع توفير العناية الطبية له.

ـ إنه في حكم الميت سلفاً، علام تضحي لأجله و«الشيخ» أربعة وعشرون قيراطاً عندنا، هيا «أبو جواد» كن شجاعاً وقدّم عرضاً أفضل.

ـ ماذا تقصد؟!

تعالت ضحكاته الساخرة ثم قال:

ـ «أبو جواد» زمنك انتهى، شكراً على تسليتي و.. بالمناسبة بلغ سلامي إلى إخوة النضال العواجيز في لندن، ابحث لك عن مصحة نفسية!

أنهى المكالمة بشكل فظ.. «أبو جواد» يحدّق في فراغ المفاجأة، تلتبس عليه الأشياء في ذروة تخبطها، ضجيجٌ ما يتفاقم في رأسه ويطحن بلا توقف، فيشبك أصابعه على صفحة وجهه وانتابته موجة صراخ هستيري، ينفلت نحو الجدار ينطح يأسه وغضبه و«علي» يحاول إيقافه.

يجثو على ركبتيه بوجه مهتز و.. يبكي الآن مثل طفل!

الفصل الثالث و الأربعون

رغم كل شيء نحن نتعود حتى على تقبل طعم الحزن ومدارات أوجاعنا، صحيح أن الوضع السياسي الصعب الذي تمر به البلاد استهلك قرابة الثمان سنوات من أعمارنا، لكن الناس تعودت كل شيء فصارت حفلات الأعراس تقام في «حداحيد» بطقوسٍ صامتة حتى لا يزعج الجار جاره أو يجرح شعوره في ابنه المعتقل.

تسير الحياة بوتيرةٍ غريبة، لكن هكذا نلبس أثواباً جديدة لأعمارنا ونحن في حومة اليأس نكابد جهات الضياع والخراب، خراب وطن يذوب منه الفرح وتحترق كل أشيائه النبيلة.

هناك مساحة للفرح، نلج إلى ضوئها ونتلمس بعض الفرج.. صباح هذا اليوم خرجت إلى إحدى المزارع التي أقام فيها «أبو فخري» طقوس ختان أحد أحفاده، هناك حيث تجمعت الناس ورائحة دخان الخشب ينضج فوق سعيرها اللحم والرز.

«أبو فخري» أراد هذا الطقس الاحتفالي وأصرّ عليه.. الطفل بين يديه وهو.. تقدم من بين الصفوف، عجوز هرم، الآن تذكرت وجهه، مرّت سنوات طويلة وهو منسي.

تقدم إلى الطفل، يحمل حقيبةً قماشية رثّة المنظر بها بعض الثقوب التي أحدثتها أسنان الزمن، كحالة سحنته المتعبة الهامدة تنطق بحفر وأخاديد

العمر الذي ذاب من كومة الجسد.

تربع في جلسته بكل هدوء ووقار وسط الدائرة الخالية التي أفسحناها له وقد فتح حقيبته، أخرج منها علبة معدنية كالتي يُحفظ فيها البسكويت الدنماركي المستورد، لا أدري ما تخبئه تلك العلبة لكني رأيته ككل الحاضرين يلبس نظارة سميكة العدسات وقد جيء إليه بطاسة معدنية مليئة بالماء الساخن، وضع فيها مقصّاً وشفرتي حلاقة.

ثم رأيت رجلاً يخترق الدائرة، يحمل نارجيلة، جمرها فوق الرأس الخزفي يطقطق شرراً ويناولها الختّان العجوز، سحب منها قدر ما أرد إلى أن هزّ رأسه منتشياً والدخان يتفرق من منخريه وفمه، خلع النظارة ونظف عدستيها ولبسها ثانية والطفل أخذ في البكاء لحظة تمّت تعريته من سرواله. أما العجوز فقد أخذ يتفحص الطفل يتأكد من الزائدة اللحمية التي سيسلط عليها شفرة الموس.

بسمل وقرأ شيئاً من القرآن الكريم، تناول شفرة الحلاقة بأصابع ثابتة لا ترتجف ثم.. غاص حد الشفرة في اللحم وانطلق بكاء الطفل بوتيرةٍ أسرع، فابتعدت عن دائرة فضولهم.

لكني وعلى حين غفلةٍ من الزمن، رأيتها هنا أمامي هكذا بلا موعد، التقت أعيننا، «أمل».. هكذا همس قلبي قبل لساني في لحظة ارتعاشة زلزلت روحي، مفاجأة ولا أروع بعد كل السنين القاحلة التي مرّت وها كوكبها يضيء عوالمي المظلمة والريح تحمل عبق بستانها معطراً بالشباب لايزال كأول يومٍ التقيتها في الزقاق.

لحظات ونحن نتبادل النظرات الصامتة، أنا من يجب أن أبدأ الحديث أم أنه عليّ أن أتفوه بشيء، لأنه..

- «أحمد» كيف حالك؟

تنطق اسمي على شفتيها الصغيرتين، كلمات قليلة تنزل كالمطر على جدب روحي التي حاصرتها نايات الحزن، يتردد صداها في خرابي المعربد هنا.

- سنين طويلة يا «مريم» كيف حالكِ أنت؟
- اتركني اذهب.. لا يجب أن يرانا الناس هكذا ، مع السلامة.

كيف تتسلّ هكذا من أمامي لتتوارى في سواد عباءات النسوة اللاتي حضرن حفل الختان، تتوارى في انهزام وخوف! طبعاً.. «حداحيد» تراقب وتخفر كل شيء، لم نعد نثق ببعضنا البعض، ننهش لحوم إخواننا بالباطل لمجرد الشك والاحتياط، «مريم» كامرأة من هذا المجتمع لا رصيد عندها الآن سوى شرفها ، وأعين الناس مستعدة لإطلاق نظراتها الاتهامية باسم الدفاع عن الأخلاق والعادات والتقاليد.. لكني لست أخطئ تلك النظرة المتلهفة التي تسربت من بشاشة وجهها لحظة رأتني، هي لا تزال تكتنز شعورها الجميل تجاهي، شعور شفاف بالحب يريد أن يفصح عمّا في داخله من اختناق يحتجب خلف سواد العباءة الذي يضيق على حريتها كامرأة، تسلط عليها لفظة الطلاق مثل جنايةٍ لا تغتفر، تستحق عليها النبذ من جنة الواقع!

«مريم».. الحزن متراكم في سنينها وتنوء بحمله الثقيل.. أي تعيسٍ هذا دمر حياتكِ هكذا ، مثلك يا «مريم» يُشترى بالذهب، صفاؤك الداخلي وطيبتك.. أنت كالملاك الحالم تطلين على عالمي اليابس مثل ندى الصباح سرعان ما تبخره إشراقة الشمس.

أعرف بقية طقوس الختان ولا أجد هنا مبرراً لبقائي، أكاد أختنق و.. تنتابني أحاسيس غامضة وهناك عدة أصواتٍ تصرخ في داخلي أو هي تبكي لا أدري!

أخذت «أبو فخري» من بين الناس واستأذنته في العودة إلى البيت متذرعاً برأسي التي توشك على الانفجار، شكرني على الحضور وأعطاني حفنةً من الفول السوداني والحلاوة التي وزعت في الحفل..

عند باب المزرعة ودعني بابتسامته الطيبة وأنا.. تمشيت في المكان أحاول تصفية ذهني من الأفكار المشوشة التي تكاد تفقدني توازني.

ابتعدت عن المزرعة وهذه أهازيج الاحتفال لا أزال أسمعها وأشم رائحة دخان الخشب ورائحة البخور تختلطان معاً.

فجأة.. ظهر أمامي ملوثاً بالبراز وبراءته الشقية في عينيه يطالعني بفضول وإصبعه في فمه. لربما كان طفل إحدى الأمهات وقد تبعني من المزرعة لحظة خروجي، حاولت أن أفهم من لثغ طفولته كلمة ولم أفهم!

لا أدري عنه شيئاً، أمسكته من يده ومشيت به لحظات، حتى رأيت بوابة مزرعة.. تبينت لاحقاً أنها خرابة الحاج منصور و«قاسم» يتلفت باحثاً ثم لمحني وجاء مسرعاً وشكرني على العناية بالطفل الضائع ورأيته أنه لم يعرفني!

ببساطة هكذا لم يعرفني «قاسم» استوقفته بضع لحظات وأنا أكرر اسمه حتى استدار نحوي وهو يسألني:

- أنت تعرفني؟!

- واضح أنك نسيتني، أنا «أحمد» ما بالك تحدق هكذا؟!

- «أحمد».. أهلاً أهلاً.

وأخذني بالأحضان وهو غير مصدق، حتى أنا تسيطر عليّ المفاجأة، «قاسم» تغيّر، على الأقل هذا ما قاله لي وهو يتحدث عن تحولات حياته التعيسة، هكذا وصف حياته، بعدما طرده «حمدان» من العمل عنده، حيث لعنته الشوارع وتعرف على امرأة أجنبية عندها طفل لقيط جاء بها هنا إلى الخرابة ليعيش معها.. لم يبق معه شيء اضطر لبيع البيت في لعبة قمار مجنونة، ويتكسب من التسول في المدينة بالنهار!

دعاني إلى خرابته، حجرتين من الخشب والصفيح الملصق الصدئ وإبريق شاي تضعه زوجته ربما. تضعه فوق موقد غازي وتبرز من المكان طفلة لها من العمر عشر أو ثماني سنوات على الأرجح، شكرته على الدعوة وتعذرت له فلم أكن أريد دخول الخرابة، لكنه أصرّ وذكرني بتلك الأيام، فكل أطفال «حداحيد» كانوا يغامرون بدخول الخرابة ومزح قائلاً:

- حتى عفاريت الخرابة أصبحوا أصدقائي وقد أكلت معهم «برّياني»!

دخلت إلى المكان، تقريباً لا يوجد شيء يصح أن يُطلق عليه اسم أثاث، غير خزانةٍ خشبيةٍ قديمة، أخذ من جوفها علبة شاي ثم خرج وغاب للحظات، بينما الطفلة المشاكسة تطل عليّ من فتحة الباب تتفقدني كغريب. لها ملامح شبيهة جداً بسحنة «قاسم».

تناهشتني الشكوك، أعرف ماضي «قاسم» وأعتقد أنه على علاقة بهذه المرأة، تورّط بها وحملت منه وبقية القصة لا تحتاج إلى إيضاح أكثر مما هي واضحة.

وضع صينية الشاي أمامي وقال:

- المحامي «فيصل المقادي» تعرفه؟!

- ولماذا تسأل؟!

- كلامي هذا سرّ بيني وبينك، يجب أن أصل إلى المحامي.

- «قاسم» لا أعرف.. أنت أصلاً لا تهتم بالسياسة، فماذا تريد من المحامي؟!

- «قاسم» الذي تعرفه تغيّر، اترك عنك هذه التفاصيل الآن واسمعني.

كشف في تفاصيله ما لم أتوقع.. أيقنت الآن أن «قاسم» أصبح إنساناً آخر غير الذي كنتُ أعرفه.. إنه.. إنه يحمل قنبلة موقوتة، طبعاً.. فمجرد حصوله على مستندات خطيرة عن عمليات غسيل أموال متورط فيها «حمدان» وأطراف من الحكومة، يعد إنجازاً رائعاً.

حقاً.. لقد تغير، أصبح على قدرٍ من المسؤولية، ها هو مستعد للمجازفة من بعد أن قام بتصوير هذه المستندات التي يتحدث عنها، يقول أنه صورها وتكتم على الأمر، مستغلاً ثقة «حمدان» فيه، لم يعد بنفس القدر من الحيطة كما السابق.

- أنت متأكد أن «حمدان».. لا أصدق!

- أصبح مهموماً وعصبياً، طبعاً ومن يهدأ له بال والإيدز يعشعش

بجسمه، فلينفق أموال الدنيا، لن تنفعه في شيء، «حمدان» تذكرة منتهية الصلاحية، والمستندات.. الضربة القاضية، الفضيحة المدوية التي ستستفيد منها المعارضة ما رأيك «أحمد»؟

لحظات ثم مضيت من المكان بعد أن وعدت الرجل بالتصرف في أسرع وقت.. لكني أحاول لملمة ما حصل والصور تختلط في ذهني المشوش، ختان حفيد «أبو فخري» وصدفة اللقاء مع مهجة الروح «مريم» ثم «قاسم» وعالمه الغريب وامرأته التي يعيش معها بلا رباط شرعي وقصة «حمدان» لا أستطيع تفسير كل هذه المفاجآت دفعة واحدة، أريد أن أصل إلى البيت، أريد أن أنام.

الفصل الرابع و الأربعون

باب حجرتها نصفه مفتوح وشهقات مكتومة بالكاد أسمعها، حزن يتسرب من الباب، طرقته وما سمعت شيئاً غير صوتها يتردد في المكان، تقرفص باكية العينين، هكذا بدت لي وأنا.. أقلب دقائق الدهشة، كنت توقعت أن تكون بالفعل قد اكتشفت الرسائل البريدية التي خبأتها وكنت قد اشتركت في خدمة البريد الخاص حتى أضمن ألا يصل إليها ابن عمي «علي الخميسي» ويلهو بعقلها أو يعيّشها بأوهامه، بتلك الرسائل السخيفة التي يرسلها من لندن.

هي إذن لحظة مواجهة الحقيقة التي كنت أتوقعها، عليّ أن.. اللحظة صعبة، ما هو شكلي وأنا أقف عندها معترفاً بما فعلت؟! وهل تتقبل تبرير الأخوة الساعية إلى الدفاع؟! أحسب الآن وقوفي هذا سيطول وعذاب نفسي يتشكّل أكثر في محرقة الورطة، لا فرار منها.. حتى لو لم تسامحني، يجب أن أتكلم وأزيح هذه الصخور الجاثمة على صدري.

رأتني.. دفنت وجهها في ذراعيها وهي تقول:

- خلاص، كل شيء انتهى، كلمني على الهاتف وشرح أعذاره التافهة، غدر بي وتلاعب بمشاعري وتزوجها، تزوج تلك الأفعى الإنجليزية، ها قد حلّ بي الخراب!

- معقول.. «كلثم» أنتِ أقوى من هذا، «علي» لا يستأهل دمعة من

عينيك.

- انقطع عن مراسلتي وها هو.. فعلها وأحرق كل ما بنيته، آه ليتني أموت وأستريح ولا أشهد هذه الخيانة، هكذا يجازيني على صبري؟!

- هذا الكلام لا ينفع الآن، لا ينفع في شيء، هدئي أعصابك، الرجل طموحاته أعلى ممّا نعرف، النتيجة لا تفاجئني، توقعت ذلك، على أية حال، خففي عن نفسك.

- «أحمد».. قدمت ما فيه الكفاية من تضحية لأجلي، عليك أن تتزوج وأنا سأذهب إلى «مريم» لأخطبها بنفسي إليك.

- وأنت..؟!

- اتركني لوحدي.

امتثلت لرغبتها في الاختلاء بنفسها.

الأيام التالية لهذا الحدث الذي زلزلها وشوّه روحها، قد أثّر عليّ كذلك، اكتشفت نفسي ضعيفاً وغير قادر على تحمل مسؤولية ما فعلت ولكن.. هذا لا يغيّر شيئاً ولا حتى عندما قمت بحرق الرسائل، لا شيء يتغير الآن غيرها، تُبقي حجرتها مقفلة، تُكثر من الصلاة وتلاوة القرآن والتهجّد بالدعاء وسماع المحاضرات الدينية. توقفت عن تعليم صبية الحي قراءة القرآن، لم تعد تتجاذب أطراف الحديث بحسّها المرح، حديثها تغيّر تماماً، لا يتسرب من لسانها إلا التذكير بعذاب البرزخ وسؤال منكر ونكير وعذاب النار يوم القيامة.

فتنقبض روحي وأنا أراها تقع في هوّة حزنها، لم تعد حتى تتابع المسلسلات التي كانت تحبها وقد اعتزلت العالم متواريةً في صومعتها منشغلة بقراءة الكتب الدينية التي لا ترى في الدين إلا الحرام والتهديد والوعيد ونبذ حب الحياة بطرحها السوداوي المتشدد.

«كلثم» ذهبت بعيداً إلى مسافاتٍ موغلة.. لا أنا ولا أمي نجحنا في

إقناعها بشيء، انقطعت عن صديقاتها وباتت رهينة جدران حجرتها، فهي لا تريد زخرف الدنيا الفانية، هكذا كانت تردّ علينا.

***

فكرت كثيراً في الإقدام على الخطوة.. نعم «كلثم» محقة، قدمت ما فيه الكفاية من تضحية لأجلها ويجب عليّ أن أراعي مصلحتي.. «مريم» لا تزال في ريعان شبابها ولا يزال القلب يهواها متمنياً تفيوء ظلال جنتها الشهية. ها بعض الشعر الأبيض يشاكس لحيتي مذكراً إياي بمرور السنين، أعيشها بلا أنيس، أتقلب على سريرٍ من جمر تنتحر فيه أحلامي، الآن لا داعي للتذرع بأية أسبابٍ وهمية أختلقها لتأجيل الموضوع. لا أستطيع تحمل كوني وحيداً، أعيش انتظاراً عبثياً تتصدع من أسفل قدميّ أرض الحلم وتذوي شتلاته الخضراء.. أريد امرأة أسمع ثرثرتها ويشاكسني عطرها وأرقص، أرقص لصوتها وهي تناديني باسمي، تدعوني لجسدٍ مليء بالخيرات.. أبسمل في مستهل الحريق وأكون حطباً في تنورها واكتشف كل ما تخبئ من كنوزٍ تضوع برائحة المسك المباح.

مريم، مريم.. آخذها إلى سماواتي وأطير، أعجن معها كل الذكريات الحلوة التي ستأتي إلى عشنا المشترك في دفء هذا البيت، تنزاح عنه الكآبة ويغادره الحزن، يسكنه فرحاً معطراً ببهجةٍ مفتقدة، حان أوانها.

أتسمعين يا «مريم».. فرحنا آن أوانه وعلى القدر الانصياع هذه المرة مهما كانت العقبات، يجب أن ننتصر لهذا الحب ونعلن أنفاس حياته وننتشله من الغرق.. أنا حلمكِ القادم «مريم»، هيا افتحي الباب واستقبلي بشارة الخير مطراً يروينا، أنا قادم، افتحي الباب «مريم».

الفصل الخامس و الأربعون

جو المستشفى الخاص خانق ويضغط أعصابها، مرت ساعة على دخوله وهو محمول على سرير سيارة الإسعاف، تحيطه أعين الممرضين ويترقبه الآن خطر داهم.

خرج الطبيب من غرفة العناية المشددة واتجه إليها، حدق في وجهها ثم سألها:

ـ أنتِ ابنته؟

الخوف والارتباك وجحيم اللحظات القادمة تحاصرها الآن، ثمة دوامة تُطحن في داخلها.. ردت:

ـ أنا زوجته الثالثة، اسمي «رباب».

ـ أخت «رباب»، بائن أنكِ قلقة و.. يؤسفني أن أكلمك بالنتيجة، زوجك يحتضر.

بالكاد تلمست أصابعها أقرب مقعد والمفاجأة تشلّ حواسها.

فقالت بنبرةٍ مرتعشة:

ـ معقول.. ليس لديكم علاج؟!

ـ مرض الإيدز يشلّ النظام المناعي للجسم، نستطيع فقط تخفيف أعراض المرض ولكن.. لا علاج.

ـ وكم سيعيش..

- أسبوعاً على الأكثر أو ربما أقل، أنا آسف.

***

دخلتُ إلى مكتبها، إنها المرة الأولى، لا تدري ماذا تريد بالضبط؟! لم ترفع رأسها عن الأوراق التي تحدق فيها وسمعتها تقول:

- تفضل «أحمد» استريح.

بدت متعبة الوجه وهذه النظارة الطبية التي ترتديها تجعلها أكبر في السن، تغوص في فخامة الكرسي الجلدي، متأنقة وتفوح منها رائحة عطرية ثمينة وتتألق بأقراط ذهبية كبيرة وأساور وسلسال ذي تصميم أجنبي باذخ، فرفعت رأسها وقالت:

- مبروك «أحمد» على الخطبة.

- أنا بسملت فقط والموضوع على نار هادئة.

ضحكت في وجهي وهي تعطيني ملفاً بلاستيكياً رمادي اللون، قرأت نظرتي المتسائلة فقالت:

- قبل أن تسأل.. هذا ملفك في الشركة وعندك هنا.. ترقيتك الوظيفية، ما رأيك بمجوهراتي؟!

- واضح أنها غالية.

- وهي في يدك، خذها هدية مني إلى خطيبتك مع الترقية طبعاً أنت تستحق.

تخلّت عن مجوهراتها الثمينة، رأيت علبة مخملية فوق سطح المكتب لحظة دخولي، واضح أنها تعرف ما تريد وفكرت قبل كل شيء.. وضعت المجوهرات في العلبة، وضعتني في حرجٍ أكبر، لا أحتمل كرمها هذا في خطوة مفاجئة جعلتني أقف صامتاً عن أي تفكير.

- سيدة «علياء» تعطيني أكثر مما أستحق، أنا لا أعرف ما أقول وقد..

- وهذا شيك بسبعة آلاف دولار مهر العروس.

ـ تجعلـيني سـعيداً وتـريكين إحساسـي أكثـر ربمـا مـن سـعادة أهـل «حداحيد». فقامت عن كرسيها وقابلتني وجهاً لوجه وسألت:

ـ أهل «حداحيد» سعداء؟! إذاً الحكومة أفرجت عن مساجين القرية هه؟!

ـ «حمدان» المختار ينازع وفي رمقه الأخير، ابنـه الأكبر "أخذ الجمل بما حمل" والقرية تؤلف النكات وتشمت، ألا تدرين؟!

ضحكت ثم ضحكت أكثر ولم يعد فضاء حجرة المكتب قـادراً على محاصـرة ضحكها الهستيري المجنـون حيـث أنظـر إليهـا هـذه المـرة بشـكل مختلف وهي في حمى الضحك.

ولما هدأت قليلاً، فتحت درج مكتبها وقالت:

ـ شاب طيب والله، منذ دخولك إلى حياتي وأنا أتفاءل بك.. وهذا هو دفتر شيكاتي حرّر المبلغ الذي تريد «أحمد» لا تستحي.

.....

ـ حسنـاً، أنـت مرتبـك لا بـأس.. وأنـا أدفـع مقابـل هـذا الخبر الرائع وهـذا توقيعي، عندما تستعيد حواسك ضع الرقم الذي تتمناه شكراً، شـكراً ألـف شكر على الخبر.

ـ شـكراً علـى الترقيـة وعلـى كـل شـيء ولكـن لم تخـبريني عـن سـبب سعادتك بسماع خبر «حمدان»، أنت أيضاً طالكِ أذاه؟!

أغلقت ستارة النافذة وأشعلت سيكارة ودخنتها على مهل ثم ردت:

ـ كثيراً.. إنهـا قصـة طويلـة، حكايتهـا تفـتح جروحـاً كثيرة لا داعـي لأن تُفتح لأنها لا تزال تنزف!

ـ إذن ستزورينه في المستشفى؟!

ـ هذا واجب إنساني، الرجل في توقيت حرج و«علياء» تفهم في الأصول، ثم إن السيد المحترم «حمدان» ليس أي أحد.

فرح يتمـرد مـن نظراتهـا تـوحي بشماتة واضحة، فالسيد المطاع و المهـاب الذي تعرفه في قمة غطرسته وتعاليه، هـا هـو طريح ذُلّـه يـزدرد لقيمـات سمّهـا

القتّال، أخيراً تنهار قوته ويركع. كأنها نسيت وجودي مصلوباً على المقعد، كانت تتفقد زينتها وتعيد رسم شفاهها بقلم الروج المتوهج بالنار، عرفت بحدسي أنها تنوي المغادرة، آه وها هي تتناول حقيبتها، تبدو مرتاحةً الآن وتفرد شعرها وتتعطر، لا شك أنها تحتفل، هذه هي طقوس فرحها، تعلنها بلا خجل على خرابك يا «حمدان»، جبلاً تحت رحمة التصدع والانتهاء يتقيأ آخر لحظاته.

لا ضمانات هنا الآن، لا محطات للعودة، لا رهانات قابلة للربح، لا صفقات تبرم مع الشر والخيانة، النهاية التي لم ترسم لها حساباتك في التوقيت المناسب، أليس هذا مخجلاً؟!

ترى ماذا سيفعل الآن المحامي «فيصل المقادي» مع «قاسم» والمستندات الخطيرة التي يحملها؟!

يتشظى السؤال في رأسي ويستنسخ نفسه بتساؤلات أكثر تعقيداً في هذه المرحلة.

فقلت لها قبل أن تغادر المكان:

- لا شماتة في الموت إن كنت ذاهبةً لهذا الغرض.

- «حمدان» بالذات كحليف للشيطان والظلم، الشماتة فيه حلال وموته يجب أن يُسنّ في قانون البلد كعيد قومي عبرةً لكل أشباهه من المُنحطين والمُجرمين، أمثاله يجب.. يجب محاكمتهم دولياً.

في زمن الصبا وبمرحلتي الدراسة الأخيرة، أذكر هذا الآن.. استعرت كتاباً من مكتبة المدرسة عن تاريخ الثورة الفرنسية، يذكر مؤلف الكتاب أن الشعب الفرنسي لا يزال إلى اليوم يحتفل بسقوط حصن "الباستيل" وإعدام لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت كرمز للملكية المستبدة والفاسدة التي جلبت على شعبها الجوع والفقر والخراب، محتميةً بجحافل المرتزقة وسلطة القانون الفاقد للشرعية.. «أحمد» مثاليتك هذه لا تتناسب وزمننا الأسود المريض، انتبه لنفسك.

الفصل السادس و الأربعون

- تتصلين بي وتوجعين رأسي ماذا تريدين؟! تكلمي فأنا مشغول الآن ولا وقت عندي للمكالمات المزعجة.

ـ لعنكِ الله من بنت سليطة اللسان، «مديحة» أينكِ الآن.

ـ لستِ وصيةً عليّ ولا شأن لكِ بحضوري أو سفري وحتى موتي، أنا خارج البلد.

ـ للتو حصلت على إقرار موقع من «حمدان» يعترف بك ابنةً شرعية من صلبه، حاولي الحضور بسرعة، القي عليه النظرة الأخيرة قبل أن تطفر روحه و.. ما بكِ تضحكين؟!

ـ نصف طفولتي أسئلة معلقة بلا إجابات، سألتك كثيراً عن أبي، دائماً كنتِ تكذبين عليّ مدعيةً سفره، أنا تربيت على غيابه خلاص وهو بالنسبة إليّ ميّت، تركني بلا هوية، الآن.. لا فرق في المسألة.

ـ قلت لكِ.. أنت سكرانة أم ماذا؟ عندي إقرار..

ـ أمي، سأقبل بالإقرار المزعوم في حالة واحدة فقط..

ـ أنا مستعدة من أجلكِ يا جاحدة.

ـ إذا وقّع كل أولئك المجرمين السفلة الذين عجنوا دمي بالعار والدنس.

ـ غبية وعنيدة ولا.. ألو، ألو

اجتازت الرواق ووصلت المصعد، دعست زر الاستدعاء بعصبية، لحقتها الممرضة..

ـ سيدة «علياء» لحظة من فضلك.

- نعم.

- لا أحد من أقارب السيد «حمدان» في حجرته واليوم بالذات، رأيتك منذ قليل عنده، أنت قريبته؟

- زوجته.

- وقعي شهادة الوفاة رجاءً، آسفة.. مأجورة في الفقيد.

- فليذهب إلى الجحيم.

***

بالكاد يستطيع رؤية كف يده في الظلمة الدامسة التي تأكل البحر الشاسع، صاحب المركب أوقف المحرك، هدوء حذر مشوب بالترقب، تكلم قائلاً:

- دخلنا المياه الإقليمية، "أبو جواد"، ناحية الشرق تماماً.

- متأكد.

- أهنت خبرتي بسؤالك، شواطئ بلدكم أحفظها مثل كف يدي، انزل وأنت مطمئن، ساعة بالكثير وتصل إلى اليابسة.

- بقية المبلغ كما اتفقنا مع الإكرامية.

- نحن بالخدمة أخي العزيز، ثبّت بصرك على أقرب إشارة ضوئية وهذه ساعة مزودة ببوصلة ستحتاج إليها، لبست سترة النجاة، جيّد، في أمان الله، لحظة لحظة تحتاج إلى كيس بلاستيكي حتى لا تبتلّ حقيبتك.

- ثماني سنوات غربة تفقد المرء تركيزه.

- ركّز جيداً حتى تصل وإن كنت محظوظاً قد تصادف في طريقك أحد قوارب الصيادين مع السلامة.

واحتضنته لجة الموج العميق، ينهب بذراعيه مسافة الطريق إلى حضن الوطن، يركب ظهر المغامرة مستقبلاً وجهها المظلم وفي شغاف القلب حرية ونضال، الآن آن أوان اختبارها.. أنفاسه تتلاحق والبحر كائن خرافي يبتلعه مثل سمكة ضئيلة الحجم، صفر في بياض الصفحة يضيع وسط هدوء مخيف، الآن هو لقمة سهلة في فم الموت.

سمكة قرش جائعة أو ربما أي شيء.. أي شيء في هذا الخواء الموحش تحت سماء متلألئة بالنجوم ينظر إليها بتشاؤم لكن يحاول طرد الوساوس الانهزامية التي يرميها الشيطان في نفسه، تغشه الشجاعة، يتخلى عنه النجاح، تتضارب مشاعره وترتبك، الحياة أقصر مما يعتقد وبحر لا نهاية له يسبح، يسبح محارياً كل هواجسه، يذبح كل تخيلاتها المشوهة مبسملاً باسم العظيم القادر على كل شيء، سينجز المهمة الآن، سيقهر ليلة الجنون لتنقاد لإرادته مثل دابةٍ يمسك زمامها، لا لن يستسلم.

يغزو الماء المالح سقف حلقه، يفتح عينيه بصعوبة على مجهولٍ يخاطب قدرية المصير المحتوم، فيسبح ويسبح لكن إلى أي اتجاه؟! ضاعت الساعة، ضاعت الاتجاهات، صفعة شتات من جبروت البحر هل يربح الآن رهانه المتحدي؟!

لم يعد قادراً على السباحة، يشعر بجلده يهترئ في لقيمات متمهلة كعشاء عابر لهذا البحر منزوع القلب لا صديق له، فتنهار قواه وتتجمد عزيمته الآن، ها قبر النهاية آلاماً مبرحةً تأكل جسمه وهناك ثمة بصيص ضوء بخيل أو ربما طيف زائف من سراب الأمل يغزو عقله المهلوس، تُطبق عليه ظلمة أخرى.

كم مكث هنا يتأرجح ما بين الموت واللا موت؟! هذا الضوء الشحيح ما بين انسحاب الليل وقدوم الصباح خيال أم يقين؟! ألا يزال يتنفس هواء الحياة؟! شك أم يقين يتحول إلى صور لا تعني شيء...

حواسه تخذله ولا شيء واضح في غيمة الضباب غير وجه آدمي ملامحه مشوشة لا يعرف صدقها من وهمها و.. مساء يقتحم غيمة الضباب ويذيب الوهم المتكدس. حواسه تعيد إرسال إشاراتها الآن، تيار هوائي يلفح وجهه، قادر الآن على إبصارهما، رجلان يحدقان فيه بذهول وكأنه زائر من الفضاء الخارجي!

وهنا رمل، يابسة فتطرب نفسه وتهدأ، ثم أتاه صوت أحدهما:

- ربما الرجل أبكم؟!

ردّ زميله متبرماً:

ـ أبكم أو غيره ها نحن سمعنا كلامك، عدنا إلى الشاطئ كما أصرّيتَ حضرتك لأجل هذا الغريب، لم نصطد شيئاً وهدرنا وقود القارب بلا طائل في ليله زفت.

ـ أنت أول واحد أعرفه يندم على عمل خير لوجه الله، ما بك؟!

لقد رفعنا الرجل من عمق البحر فاقداً وعيه، حرام نتركه يموت.

ـ وحرام أرجع إلى أولادي وزوجتي بدون يوميتي، ماذا أطعمهم؟!

ـ هاك، هذه يوميتك وزيادة، أنت شريك صعب.

استيقظَ على جدالهما وسأل:

ـ أين أنا؟!

ـ في ضيافة صيادين تعيسين يسترزقان من بحر بلا سمك تبيعه الحكومة للدفان والاستثمار لصالح الاقتصاد الوطني!

نظر إليهما بحذر، خائر القوى ومنهكاً لا يقوى على شيء ولا يدري ماذا سيفعلان به، فقال صاحب القبعة:

ـ أنت في وطنك، لا تخف.

ـ جواز السفر، الحقيبة!

ـ أوف.. هذا الرجل ورطة، فلنسلمه إلى الشرطة، إنه متسلل.

صرخ "أبو جواد" مستجمعاً ما تبقى من صوته ينطلق مبحوحاً وراجياً العطف والرحمة.. فردّ عليه الآخر مطمئناً وهو يسلمه حقيبته:

ـ لا تخف، الشرطة والجيش والرئيس ناموا في العسل والانقلابيون أكلوا السلطة، بركات المرتزقة المخلصين للوطن!

الصدمة تجتاحه كالعاصفة، أيصدق ما يسمعه اللحظة، يشعر بالضعف ومرارة تستقر بحلقه، يطلب الماء ثم يشرب، ثم يسأل:

ـ انقلاب؟!

الفصل السابع و الأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ابن العم علي الخميسي.

تحية طيبة..

أعتقد انك الآن قد تطرح أكثر من سؤال لحظة تسلمك لخطابي البريدي هذا حيث أتمنى ان يصلك، فأنا أكتبه الآن ولست واثقة ممّا إذا كانت مكاتب البريد لحكومتنا السابقة لا تزال تعمل من بعد صدمة الانقلاب.

عموماً.. أنت تعرف الأخبار ومتابع لآخر التطورات الحاصلة في الوطن، أنا هنا أكتب خطابي هذا حتى أرتفع فوق مستوى الصدمة وأجتاز نفقها بأقل الخسائر ولو أني متأكدة أن المرء عندما يخسر شيئاً مهماً من حياته ولا يستطيع تعويضه فإنه رغم كل شيء قادر على التنفس ويجب أن يعيش، هكذا علمتني الحياة، فمن بعد الكبوة لابد من التحلي بالصبر والإرادة وابنة عمك كلثم بما قدمت من عمرها وشبابها من.. لا أستطيع التلفظ بالكلمة تصور؟! فهي الآن وبعد مرور شهرين على مكالمتك الهاتفية تحاول تطبيب الجرح.

علي.. أتعرف حقاً معنى التضحية هنا وكيف أننا حينما نصدم في كل ما قدّمنا ونجد أمامنا ركاماً من التلاشي.. أتعرف كيف يكون شعور المرء؟!

أنت جاوبني على سؤالي يا مثقف، يا جامعي..

صحيح.. أنا متفاجئة بما حصل منك وفي قرارة نفسي رفضت النتيجة النهائية التي قررتها لوحدك وخنت المواثيق التي تعاهدنا عليها حتى نؤسس لحلمٍ مشترك يجمعنا ولم يتم هذا ولكن....

صدقني.. أنا الآن أقوى مما كنت، أدوس على جرحي ولا أهتم بالماضي، أنت الآن بالنسبة لي ماضٍ مدفون في ذاكرتي وحسب، شيء من هذه الدنيا الفانية التي تخدع من يأمن لها.

قد تعتقد أنك تلعب في الوقت المناسب وعندك أوراق الفوز والظروف مواتية لتحقيق ما تريد، لكن عليك أن تحذر صفعات الزمن.. تعرف، أكيد قرأت في الصحافة اللندنية صدى فضيحة صفقات غسيل الأموال التي تورّط فيها المختار حمدان المرحوم وأطراف كبيرة من حكومتنا المقبورة، هل رأيت السيناريو العجيب؟!

لا تعتقد هنا أني أدعو عليك بسوء - لا سمح الله- حتى أبرّد نيراني، لا فليس هذا من أخلاقي، وللعلم.. تهانيّ لكما، أنت والمدعوة كرستين على الخطبة "مع الرسالة كارت تهنئة" وبالرفاء والبنين، في النهاية كل يختار طريقه في هذه الحياة.

حصلت على الجنسية البريطانية؟!.. مبروك، المهم أن لا تنس جلدك، أينما ذهبت تبقى "ابن حداحيد" حصولك على الجنسية لا يعني تحول دمك إلى اللون الأزرق!

بحكم العادة لطالما كنت أكتب إليك بحماس، أخبار حداحيد، حسناً والإنسان أسير عاداته.. اليوم قامت مجموعة من شباب حداحيد باقتحام فيلا المختار حمدان وعاثوا فيها الخراب، ولم يبق شيء فيها، سُرقت محتوياتها من الأثاث وخلافه ثم أصبحت طعاماً للنار من بعد أن كانت عامرة بأهلها، فروا من البلد بجلودهم طلباً للسلامة، أما لصوص حمدان فالبعض فرّ من القرية والبعض الآخر قُتل، الملفت في الأمر أن القرية تتحدث عن محمد الأسمر،

يقال أن هذا الشخص كان من تابعي المختار قبل أن يُطرد وهو من أشعل النار في الفيلا برفقة رجل آخر من أتباع "ابو جواد"، لكن هذا الآخر انقلب ضد محمد، دفعه إلى قلب الجحيم الملتهب وقضى نحبه متفحماً!

خبر آخر يا ابن عمي البريطاني الذي يعرف من أين تُؤكل الكتف..

قبل ثلاثة أيام من الانقلاب ألقت الشرطة القبض على امرأة تُدعى "مادي" اتضح أنها تتجسس لصالح وكالة مخابرات أجنبية وبحوزتها قنابل وأسلحة نارية ومبالغ مالية كبيرة ومن يدري قد تكون بريطانية، الطرف المستفيد في الموضوع، خصوصاً وأن قادة الانقلاب الأشاوس من مرتزقة نظامنا الحاكم سابقاً، قد اجتمعوا مع السفير البريطاني.. الأرجح أن الطغاة الجدد يبحثون عن مصداقية تشرعن وجودهم في هذه المعادلة السياسية القذرة.

لا بأس.. تحمّل معي سطور رسالتي الطويلة نسبياً، فلست مجبراً على الرد عليها من الناحية الأخلاقية.. إليك هذا الخبر أيضاً.. ابن عمك أحمد تقدم إلى خطبة فتاة مطلقة من حداحيد وتمّت الموافقة.. على فكرة والدتك الكريمة، امرأة عمي المصون لم تلبي الدعوة حينما دعوناها؟!

إذن.. سأصبح خالة عمّا قريب عندما يتزوج أخي أحمد وأنا يزحف الظلام إلى أيامي.. إن الله كريم ولطيف بعباده، كل يأخذ نصيبه، وعسى الله أن يجعل نصيبي أوفر يوم الدين و الفوز برضوانه تعالى.

والله يا ابن عمي، هذه الدنيا لا أمان لها، نلهث ونطحن في دروبها ونتباغض ونتقاتل، نجتمع، نفترق، كلٌ يحاول كسر الآخر وهزيمته وفي النهاية، مآلنا إلى حفرة.. حفرة بسيطة هي أكثر الحقائق مفارقةً وسخرية!

من المهم "علي".. في مثل هذه الظروف إنقاذ البلد.. أنت أدرى بذلك، انطلاقاً من موقعك كسياسي معارض ومغترب.. على الأقل خففوا من لهجة التنديد والاستنكار كأساليب للمواجهة، انتم وتيارات معارضة أخرى تكررون نفس الأخطاء، كنتم في الفترة الماضية تتبعون نفس الأسلوب مع نظامنا المقبور، وها أنتم الآن مرةً أخرى تكررون ذات الأسطوانة مع الانقلابيين.

سيدي الكريم.. تنتظر البلد فترة تاريخية مظلمة، معطياتها على كل الأصعدة تحفر عميقاً في مستقبل أمةٍ برمتها تستفيق من أزمة لتقع في وحل أزمة أخرى.

إنهم الآن يعملون على الهيمنة على هيئات ووزارات الدولة وهي مهمة يسيرة فالنظام السابق شرّع وجود هؤلاء الغرباء "كمتجنسين" وجمعهم من أشتات الصحارى العربية وفرضهم على الشعب كمواطنين متساوين في الواجبات والحقوق مع بقية الشعب، وكلنا يدرك المقاصد الحقيقية التي أرادتها السلطة وها أنت والعالم يشهد النتيجة الكارثية التي انفجرت على الجميع.. نتيجة ساخرة، "السحر انقلب على الساحر"!! وها نحن ندفع ثمن تدهور النظام وسياساته الرعناء الفاشلة.. هناك سلسلة حوادث تتصاعد اجتماعياً في البلد، صدامات طائفية آخذة في الاشتعال، تُنذر بتفجُّر حرب أهلية لا تُبقي على شيء.. إنها فاتورة باهظة وخطيرة لسقوط النظام ندفعها للأسف، فماذا أنتم فاعلون؟!

البلد يتجه أكثر فأكثر إلى الفوضى، بل هو الخراب في معناه الفادح فعليكم، عليكم تحمل مسؤولياتكم، أنتم يا حملة شعارات الحرية والعدالة والنضال، وطنكم يستغيث.

"علي".. لا أرتجل هنا خطبةً سياسية، بل أتحدث عن واقع صعب وشائك يتطلب التحرك السريع.. فحصولك على الجنسية لا يجب أن ينسيك وطنك، على الأغلب هؤلاء ذوو البشرة الحمراء لا يعطون جائزة الجنسية لأحد من مواطني دول العالم الثالث إلا حينما يحسبون مسبقاً مكاسبهم، والدليل.. أكثر من يحصلون على الجنسية هم من أصحاب التخصصات العليا ومن الكوادر الأكاديمية التي بهِجْرتها عن أوطانها الأصلية، تكون قد ساهمت في اتساع فجوة التخلف والفقر.. هذه الدول الكبرى "علي" تساهم في استنزاف العنصر البشري باستقطاب الكوادر المهمة.. الدول النامية تبذل الكثير من الأموال لتعليم وصناعة إنسان وفي نهاية المطاف.. تستثمره دولةً

أخرى. فلا عجب من انتشار إعلانات الهجرة وترويجها في الصحف العربية بغرض حرمان المجتمعات العربية من طاقات وإبداعات أبنائها. أنت تدرك كلامي طبعاً.. لستُ أتدخل في قناعاتك الشخصية ولكني أعتقد أن سعيك للحصول على جنسية أجنبية هو رغبتك في التحرر من خوفك "علي".. أنت تبحث عن الكرامة، تريد أن تكون إنساناً مقدراً يتمتع بحقوقه وتقدس إنسانيته ولا تنتهك باسم القانون، أنا أتفهم أسبابك "علي".

عموماً.. أتمنى لك حياة سعيدة، لا أحمل لك ضغينةً بسبب تفضيلك فتاة أجنبية عليّ، مرة أخرى.. "مبروك".

المهم أن تكون قد اخترت الشخص المناسب، فالزواج شراكة حياتية مهمة يترتب عليه أمور كثيرة لا شك أنت تعيها جيداً وتعرف معنى قرارك في النهاية.

أتذكر الآن نكتة طريفة تنتشر في البلد، لا أدري إن كنت سمعتها..

تقول الطرفة: الانقلابيون وصلوا إلى القصر الرئاسي بسهولة وحرّاس الرئيس لم يطلقوا طلقة واحدة، بل فتحوا بوابة القصر ورحبوا بالقادمين أتعرف لماذا؟!

لأن حراس الرئيس مجنسون!!

هناك أيضاً نكتة أخرى لاذعة يتداولها الناس على رئيسنا المُبَجَّل.. وهي أن حضرة الرئيس عندما زُجَّ به إلى السجن وقد خسر سلطته ونفوذه، خاطب احد المساجين ولايزال سكراناً وهو يسأل: أين أنا؟!

فردّ عليه.. في فندق خمس نجوم على حساب المرتزقة سيدي الرئيس!

"علي" بلا شك أنت على علم.. أن والدك صحته لم تعد كالسابق، لذلك ادعُ له في صلاتك بالفرج والعافية.. الدعاء سلاح المؤمن والله سبحانه وتعالى يحبّ سماع عبده يتضرع بالدعاء بنيةٍ قلبيةٍ خالصة.

أحدثك عن كل هذه الأمور.. فرغم الصدمة التي أدخلتني فيها بما اقدمت عليه.. إلا أني الآن نفسياً أفضل، على الأقل أستطيع أن أثرثر هنا

وأقول ما أشاء ولأكرر كلامي الذي قلته في بداية رسالتي.. أنا الآن أقوى مما كنت، أدوس على جرحي ولا أهتم بالماضي.

سأبحث لنفسي وحياتي عن أهداف جديدة، حالياً أفكر في الدراسة الجامعية، أعتقد أن لفظة الحب في هذا الزمن شيء رخيص مستهلك ومفرّغ من معانيه الحقيقية.. سأبحث عن معنى آخر لحياتي بدون ممارسة أحلام المراهقات الرومانسية الساذجة، سأرمّم جدراني الداخلية وأهزم كل مخاوفي التي كنت سابقاً أفكر فيها بمجرد خسارتك.. الحمد الله أنا راضية بقسمته ومشيئته، سأكون إنساناً آخر وأُثبت لك ولهذا الوطن أن المرأة قادرة على بلوغ قمم الإنجاز، قادرة على تجاوز الصعوبات والعثرات ومواجهة التحديات.

آسفة لإطالة الرسالة، كان لابد من ذلك.. أحس الآن براحة وأستطيع أن أتنفس بشكل أفضل، معنوياً لست نادمة على شيء، سِر في طريقك، كن بخير ولك أطيب تحياتي ومع السلامة.

ابنة عمك

كلثم

حداحيد 2000/5/22

(ملاحظة)

تاريخ اليوم عظيم جداً.. فقد انسحب الجيش الصهيوني من جنوب لبنان مدحوراً وملوثاً بعار الهزيمة وهذا بفضل رجال الله في المقاومة اللبنانية وبتأييده عزّ وجل.. انتصار غالٍ على قلوبنا يعيد بعض كرامتنا العربية المهدورة في زمن الهزائم ووحدة العمل العربي المشترك!!

أُوجّه انتباهك أيضاً إلى أنني نسيت أن أذكر لك.. أني قد جمعت خطاباتك السابقة التي وصلتني، جمعتها في حاوية زبالتي المعدنية وأشعلت فيها كل يأسي وخيبتي وما مضى من تلك الأيام، أحرقتها لكي لا أحنّ إليها

في لحظة استسلام أو أُوهم نفسي بالأمل الخادع.. ألم أقل لك أن كل شيء انتهى!!

أعتقد أنك تتفهم موقفي كأنثى، وإن لم تفعل فهذا شأنك، هناك شيء واحد لابد لي من الإقرار به وهو أنك لا تزال ابن عمي.. بيننا صلة دم متأصلةً فينا ولم تكن بخيارنا.

قد تجد أن خطابي هذا تحتشد سطوره بالتناقضات، لا أنكر هذا فأنا لا أزال أنظف ذاكرتي وأغسل فناءها الخلفي من الأحلام المحترقة.

الكلام عن الأحلام المحترقة يجعلني الآن أؤكد ثانيةً.. أن عليكم كتيار معارض بالخارج أن ترحموا الشعب المطحون وتحترموا آماله وطموحاته وأحلامه في خطاباتكم السياسية وتحرككم الخارجي، لا تخيبوا ثقته فيكم ولا تُحرقوا أحلامه.

الانقلاب مرفوض، مرفوض، مرفوض.. "علي" وطنك يستغيث، تيارات المعارضة عليها أن توحّد صفوفها في الظرف الدقيق الذي نمرّ به.. الوطن يحتاج إيماننا به وإخلاصنا لترابه وليس الانتفاع به ونكراننا له في وقت الشدة حيث نتاجر في قضاياه.

أثبتوا لنا أنكم بحجم هذا الموقف التاريخي، قادرون على احتواء آثار الانقلاب وإنقاذ مستقبل البلد من ظلمة المجهول القادم.

الفصل الثامن و الأربعون

كالهمس الهادئ، نغمات الموسيقى الخفيفة تتسرب من تحت أرجل الكراسي والطاولات وتغزو الآذان والأرواح، تغزو روحي الآن بخجل عينين أبصر فيها قصص الفرح وقصور السعادة التي تُشيد لي ويسكب فيها نبيذ هذا الحب، يستيقظ من كبوته ويجدد أنفاسه أكبر وأقوى من السابق.

برفق سحبت يدها من يدي وهي تشتتّ بنظرها عني ثم نظرت إليّ وقالت:

- يعني تظل ساكتاً وتحدق بي هكذا أحمد.

- أتزود من جمال الحورية الجالسة على عرش قلبي.

- شاعر، فيلسوف، سياسي، عاشق، مجنون، من تكون؟!

- حبيبتي "مريم".. هي التي تحدد.. مسألة سياسي فيها: نظر.. أعتقد أني مهتم بالسياسة فقط.

- بالأمس كنت تنظّر وتحلل مجريات أحداث الانقلاب ونتائجه المرتقبة وآثاره على مستقبل البلد، إلخ.. والآن تحاول إقناعي بهذا الجواب المتواضع، أنت عالم غريب.

- أرجوك مريم.. لا تفسدي هذه الأمسية الرائعة والله أنا محبط من هذه الانتكاسات التي يترنح في هوتها الوطن، حالي كحال أي مواطن عربي لا يستغني عن تناول السياسية كالخبز على مائدته، ماذا تتوقعين؟! هيا هيا لنأكل يا عمري فالطعام شهي لا يبرد.

صمتت وكانت تحدّق في صحنها والشوكة حائرة في بخار "السباغتي"

أمامها ثم قالت:

ـ قلت لي أنه لا مشكلة بالنسبة لوضع "سمير" ثم..

ـ ولدكِ "سمير" أمانةً في عنقي وسأربيه مثل ولدي.. تثيرين الموضوع بخوف، هذه الأمور واضحة عندي وعندما نتزوج نكون قد عرفنا بعضنا البعض، لا تخافي مريم، نعم تسعدني هذه الابتسامة.

فتحت حقيبتها وردّت على الهاتف الجوال..

ـ أهلاً سامية، أخيراً تذكرتينا، لا أنا عاتبة وبشدة.

على الطرف الآخر :

ـ انشغلت ولم أتمكن من حضور الخطوبة، مبروك ألف مبروك مريم، أتمنى لكما حياة سعيدة، مع السلامة.

ـ شكراً على الاتصال والتهنئة مع السلامة.

قرأتُ ثانية على صفحة وجهها الأنيس إمارات السعادة والرضا.. هذه مريم التي اشتهيتها حلماً وسط ركام أيامي ورتابتها، ها هي قربي تسقي عطش العمر المشحون بلعنة التأجيلات ومآزق فواتيرها المزعجة.

ـ مريم.

لحظتني بفتنتها المستريحة فوق غمامة الأزرق الراقد فوق جفنيها تمازجه تكحيلة عربية أصيلة الحسن والفن.

ـ شيء بسيط مني، خذيه بعيداً في أعماق روحك..

ها صبحي..
فتنةً من قناديل عند بابكِ
يا منية القلب
صبي لنا قهوة المحبين

غناء طائرٍ
مرّ من نافذة الوجع
الذي تعرفين

حاملاً إليك أوراقي

خذي حبرها عطراً وتأرجحي
في استراحة الظلّ
مراعي القلب تنتظرك الآن

ها صبحي..
عسلٌ وسكر
وأنا الآن بعض الذي ذاب
في فنجانكِ
مجنوناً وأكثر

يا أنتِ...
فوق صدر الغيم
علّمي أشرعتي كيف يكون الجوى
لا نؤجل غوايته تصدح
أغنياتٍ فوق وسائد الحلم تشتعل

ها صبحي..
قبلاتٌ على كفّ الريح
أرسلها شوقاً لتحفري نبضيَ في
صحوته يتبرعم منها
هذا الحبّ الذي نأكل خيره الآن
خبزاً ونحتسيه نبيذاً

ها صبحي..
اهزوجة جبلية هنا

تحلق كما الفراشات
ولكني أريد موسيقى ليلكِ
يتراقص حين يحلّ عليه الضياء

انثريه شظايا
اتركيه لقمةً للمرايا
وكذا التاريخ يمرّ من ها هنا
خلّدكِ..
أيقونةً للحكايا

تتكئين نذر شموعي
حينما لا يهادنني اليتم
وأنا..
تضيّعني العواصم
فأرتكس على شوكِ آهة تعبي
لا أعرف ما بي
لا أعرف إلاكِ

ـ هه ما رأيك مريم؟

ـ تحفر الكلمات حفراً بهذا الجمال أنت.. أنت رائع، حقاً ما سمعت. كل يوم أكتشف فيك شيئاً جديداً، عمري معك يحلو حبيبي شكراً لك.

ـ لا تستعجلي شكري، فاتورة العشاء على حسابك.

ضحكت، بفرح وهي تتهاطل ثلجاً فوق هضابي، ألملم الآن أشياء نفسي، جنةً أسكن نعيمها، أنقب في الغد الآتي، بقيت هكذا أقرأ براءتها، إنسانةً أستريح على أريكة حضورها الجميل محملاً بالعطر يسيطر على إحساسي بفوضاه الممتعة.

الفصل التاسع و الأربعون

انعطفت نحو قهوة "أبو فخري" على ظني أنها كالعادة مفتوحة وتحتشد بروادها من أبناء "حداحيد" يتصفحون الجرائد ويشربون الشاي ويثرثرون ولكن.. لا أحد غير "أبو فخري" يحمل أكياساً ورقية من سيارته ويفتح باب القهوة، يتوارى في جوفها لحظات ثم يخرج ويغلق الباب بالمفتاح.

ـ السلام عليكم "أبو فخري".

ـ وعليكم السلام ورحمة الله

لاحظني أتفقد خلو المكان، دسّ مفاتيحه بجيبه وقال:

ـ الشيخ أمر بتنفيذ إضراب عام وهذا ما اتفقت عليه المعارضة لمواجهة ورفض الانقلاب، ما تدري؟!

.....

ـ سمعتني، أقول لك إضراب، يعني القهوة مقفلة اليوم، والله خسائر هذه القوة أكثر من أرباحها وصحتي لم تعد كالسابق.

ـ حولها لمحل انترنت نحن في العام /2000/ يا رجل، أو تدري حولها لمطعم مشويات، الناس تحب ملء بطونها.

ـ اليوم لا يمكن أن نضمن شيء، من ديكتاتورية إلى انقلاب، لعنة أصاب البلد "اللهم أجرنا وآمنا في أوطاننا"، عرفت الخبر عن "أبو جواد".

ـ أبو جواد

ـ يمكن إشاعة ولكن سمعنا أنه غادر لندن وحاول دخول البلد عن طريق البحر وقيل أنه غرق مع قارب التهريب.

ـ ماذا تقول؟! أبو.. أبو جواد!

ـ إشاعة أخرى تتحدث عن أحد الصيادين انتشله من البحر وعلى اليابسة سرقه وقتله ولا ندري أصل الحكاية.

تكاد تشل تفكيري المفاجأة لكن "أبو فخري" قال متهكماً:

ـ هذه نهاية مناضلينا الأبطال الذين يفرّون من ساحات الحق، لا طاقة لهم على الصبر والتحمل، أنصاف رجال، لقد انتهى "أبو جواد"!

ـ الرجل ضحى بنصف عمره في معتقلات النظام، حرام عليك تقول هذا الكلام، هل جننت؟!

ـ دافع عنه، أعرفك مسحوراً به، استيقظ، أنت مخدوع بهذا الـ.. ذهب إلى لندن ثماني سنوات، ماذا فعل؟! أولادنا هنا يعتقلون وهو يرسل فاكسات التنديد والصمود والنتيجة معارضة البلد تتخبط من بعد الانقلاب.

ـ أحسنت "أبو فخري" ها أنت أعلنت كفرك بالمعارضة ولكنك تستجيب لبيانات الشيخ تناقضك عجيب والله.

انصرفت وأنا محبط من الموقف، هذا الرجل استنتاجاته دائماً مستعجلة، تمنيت هذه اللحظة أن يظهر "أبو جواد" ليخرس ألسنتهم، تمارس فُحش ظنونها العمياء ولكن.. تأملت ما قاله "أبو فخري"، ماذا لو..

نعم "حداحيد" دفعت الكثير من الأثمان وقدمت تضحيات جسيمة، أما "أبو جواد" فسافر وتغرّب ثم عاد، فلا المعارضة نجحت في مساعيها ولا السجناء تم إطلاق سراحهم ولا قمع الحكومة توقف حتى اللحظات الأخيرة ما قبل الانقلاب الذي لم يكلف هؤلاء المرتزقة غير سقوط أعداد صغيرة منهم في المواجهة، كون النظام السابق نشر وباءهم في جميع الدوائر الحكومية بقراراته الغبية، فسهّل عليهم تحقيق السيطرة على البلد، "أبو جواد"..

ماذا سيغير الآن بعد كل هذه الفوضى؟!

الشرخ اتسعت شقته.. "أبو جواد" الآن فاقد لمصداقيته النضالية، حتى وإن كُتبت له الحياة فلا أحد من أهل "حداحيد" سيستقبله استقبال الأبطال وينثر الزهور في طريقه.. شهادة وفاته السياسية شعبياً قد كُتبت منذ رحيله والصدمة التي خلفها في أحاسيس الناس هنا لا تزال قوية.

جيّش شباب "حداحيد" هكذا بكل حماس تلك الأيام ولكن ما هو المكسب المتحقق في المعادلة؟! تبدو مقلوبة الآن ومجنونة..

عودته الآن لا تشكل فارقاً في المحنة التي تطحن البلد ولا هو يملك تلك القوة الخرافية التي تغير الموازين. كما قال أبو فخري.. انتهى "أبو جواد"!

مشيت بضع خطوات، أدخل دوامة رهيبة من الأفكار يتصاعد حريقها الآن في رأسي وإذ بصوت أحدهم يهتف باسمي.

كان قاسم مقبلاً ولا أدري سبباً لظهوره هكذا لاهثاً ومنكوش الشعر توقف وهو يقول:

- ذهبت.. ذهبت إلى البيت فقيل لي أنك خرجت، توقعت أن تكون هنا في قهوة "أبو فخري" تعال.

***

تبقى ضوء شحيح من عصر اليوم، وأنا خلف قاسم نتوغل في منطقة المزارع متجهين إلى خرابة منصور، دوامة الأفكار تعصف برأسي، تستمر في تصاعدها ولست أدري ماذا يعني قاسم بتكراره جملته التأجيلية كلما سألته عن سبب الذهاب إلى الخرابة.. يقول: ستعرف عندما نصل.

نمشي في الطريق وإذا بقاسم يأمرني بالاختباء، يقول بأنه يشعر بخطرٍ ما. مضت دقائق معدودة وإذ بسيارة "بيك آب" تستقلها مجموعة من شباب "حداحيد" مسلحة بالعصي والمناجل والغضب. أحدهم سأل قاسم: "أبو جواد" هل رأيته هنا؟!

فـرد قاسـم: لا "أبـو جـواد" ولا أبـو بطـيخ أنـا واحـد يتسـكع في شـوارع المدينة ويسكر ومن أنا حتى يعرفني "أبو جواد" المناضل.

فصرخ الرجل: لا تقل "مناضل"، بل "جبان" و"خائن"، هيا شباب نحن نضيع الوقت مع هذا الأهبل.

ابتعدت السيارة عن مكانه، خرجت من مخبئي أُقلب ما حصل وأفكر صامتاً وقاسم يقول: بسرعة يا أخي الرجل ينتظر، لا حاجة لك بعد أن تسألني، أعتقد أنك عرفت الموضوع.

عرفت، عرفت خياله على ضوء مصباح "الكاز" في العشة الخشبية، بابها مفتوح كما تساؤلاتي وهواجسي وخوفي يكبر.

هو هنا، يبحث عن الأمان، أم جاء يبحث عني؟! عمن يثق به في الأوقات العصيبة؟! جاء لكي يعيد ترتيب أوراقه أم محاولاً صنع معجزات من دخان وضباب؟!

جاء يريد الدفاع عن الحق أم يداوي جروح عزلته؟!.. جاء يبحث عن سرابات الماضي بعد ذوبان بريق الأسطورة واحتشاد القبضات الغاضبة تبحث عن جلده كي تمزقه.. لِمَ جاء الآن متعكزاً على صدر الوهم؟! لا أحد سينجده الآن وهو في العراء يصرخ بلا طائل!

لا جهةً تؤويه في هذا اللهيب الضاري، وكما توقعت.. ضعيفاً من شكل جلسته المقرفصة ينوء بحمله الرهيب، أيقظته من انتظاره بتحية المساء، فهب صوبي يعانقني بحرارة.

- لماذا عدت يا "أبو جواد"؟!

نظر في وجهي مذهولاً ثم نظر إلى قاسم وعاد لجلسته، قال:

- الغريب مردّهُ إلى وطنه.

- خائن.

.....

- يتهمونك بالجبن والخيانة ويسعون إلى قتلك.

- أعرف.

- تتوقع مني المستحيل، تريدني أن أنقذك الآن.. "حداحيد" كلها ضدك الآن، كلها تغلي.

- أنا..

- أنت سقطت وانتهيت في أعينهم، أنت نكرة ولا أحد يعترف بك، الخراب يسيطر على كل شيء، تدري؟!

- الانقلابيون يجب أن..

- إنهم الآن نظامنا الحاكم... أسيادنا الجدد، استيقظ "أبو جواد" ما لي أراك هكذا أين حماسك البطولي هه؟!

تدخل قاسم وقال بلهجةٍ محتجة:

- أحمد.. "أبو جواد" أكبر منك وعليك أن تحت..

- لا باس لا بأس قاسم، اتركه يتكلم.

....

- ثماني سنوات، أكيد ثقيلة و "حداحيد" واضح أنها.. سبحان مغيّر الأحوال، حتى أنت أحمد!!.

- أي تبريرات تقولها لن تغيّر شيئاً، ارحل من "حداحيد".

- اسمعني ثم حاكمني.

- ليس من حقي محاكمتك ولا تبرئتك حتى، ادعو الله أن يحميك، هذا كل ما أستطيع تقديمه لك.

- خائف أحمد منهم، شجاعتك تحولت لورق نايلون!

- التخوين تهمة كافية في "حداحيد" ليحرق بيت أحدهم، هل ترضى لأخيك هذا المصير؟! تكلم.

لحظة صمت وأشعر بدقات قلبي مشحونةً بالتوتر تكاد تخترق قفصي الصدري لا يستطيع الآن احتواء غربة "أبو جواد" ومحنته الصعبة في التوقيت الضائع من رعونة هذا الزمن الرمادي المخاتل.

أشعر بالعجز معتقلاً في ظلمته لا حول لي ولا قوة، أتألم لأجله من داخلي وأنا أراه كبرت به السنين والأوجاع والانكسارات والتمزقات التي تمرّغ كبرياؤه في وحل الخذلان.

حمل حقيبته ونفض بعض التراب عن سترته يستعد للمغادرة، فمنعه قاسم حينما سدّ الباب..

- حياتك في خطر "أبو جواد"، لا، لا أتركك تغادر، أحمد قل كلمة..

- وجودي هنا يعرضك وزوجتك والأطفال للخطر، اتركني قاسم لأبحث لنفسي عن قبر أو منفى، فأنا الآن مجرد عربة مكسرة لا يمكن أن تحمل قضية واحدة ولا نصف قضية صح أحمد.؟!

لكن تعرف.. جئت إلى هنا، صارعت الموت في بحرٍ مظلم وهائج، لأني أؤمن بهذا الوطن حتى وإن لم تسامحوني، نعم أنا.. أنا غلطان وإن كانت "حداحيد" برجالها ونسائها قد حكمت عليّ بالإعدام وكمّمت فمي فأنا جاهز للتضحية، خلاص حياتي لم يعد لها معنى، اتركني قاسم أذهب.

- إلى أين تذهب يا مجنون إنهم يبحثون عنك كالذئاب المسعورة.

- اتركني قلت لك، اتركني لمصيري، لا أنت ولا غيرك سيكون أرحم من الله عليّ.

- "أبو جواد" أرجوك دعني أساعدك، أعطني فرصة واحدة لأكون رجلاً لمرة واحدة في حياتي.

أبديت أسفي له وغادرت بهدوء من الخرابة، لا أدري كيف فعلتها وجمّدت أحاسيسي وكنت صلداً كالإسمنت لا يهزني شيء من يتمه ووحدته القاسية ولكني..

يعتصرني ندمٌ غريب لا أفقه له تفسير ولا أستطيع "مَنْطَقَةَ" أو "فلسفة" شيء مما حصل، شيءٌ ما يشوش تفكيري أو.. لا أدري.

ندمت.. كان بإمكاني أن أعطيه مبلغاً من المال يستعين به أو.. وهكذا حتى الفجر، بقيت مستيقظاً ما رحمتني ليلة الأرق، حاصرتني مرارة أسفي

ولست قادراً على فعل شيء يخلصني من لسع ضميري، حرائق تأكل زوايا نفسي فلا أستريح. على مضض بقيت منتظراً دوران الوقت، قلقي يتوزع في غاباتٍ موحشة ومستنقعات عميقة تبتلعني، كأني مشلول الحركة وصراخ بداخلي لا يتوقف، هذيانات أقع في أفخاخها.. أراه هناك في العشّة يستريح بهدوء غريب، هدوء لا يشبه سكينة النائم ولكنه هدوء فاجع يتسرّب من جرح غائر، أحدثته سكين الانتحار في لحظة جنون ويأس توقف بمحطة الخراب!

يدفع بنفسه إلى فم الهاوية وينتهي من عذاباته.. لا "أبو جواد" لا يفعلها!

ولكنه.. لا وقت لهذه الافتراضات الغبية، إنها السادسة والنصف، ربما أستطيع رؤيته الآن، سآخذه خارج "حداحيد" أو إلى أي مكانٍ يكون فيه آمناً.

بسرعة شغلت محرك السيارة ثم انطلقت وأنا أراقب الوقت، أراقب ما هو أكبر، ينتفخ في ذهني كفقاعات الألم تتفجر وتعيق توازني.

وصلت إلى خرابة منصور.

كلاب تنبح في الجوار، ندى الصباح مختلط ببقايا دخان سعف النخيل، تهمد آخر نيرانه وأجد "قاسم" قد خرج من عشته الخشبية في فمه فرشاة أسنان وتنام على كاهله منشفة مخططه، "يُخاخي" من حلقه ويرمي أوساخه عند حنفية الماء حيث فوجئ بقدومي، طمأنته أني جئت من أجل "أبو جواد" والسؤال عنه.

امتلأ فمه برغوة المعجون، أجابني بلا اكتراث.. أنه رحل ليلاً أثناء ما كان نائماً ولا يدري عنه شيئاً.

وقبل أن أتحرك بالسيارة، لحقني وهو يهتف ساخطاً موجهاً إصبع اتهام نحو وجهي..

- إن حدث للرجل مكروه فدمه في رقبتك هل تفهم!

ابتعدت وابتعدت، مسافات وعيي تضيع مني وكلمات قاسم كالمسامير

النارية تخترق نسيج روحي، تتشنج وتتقبض منتفضة تُذبح ببطء ونباح الكلاب يتردد في سمعي لا يفارقني، شيء يسحقني مثل الكابوس لا فكاك منه.. بحثت في المكان ولم أجد له أثراً حتى وصلت إلى الشاطئ.

وهل يغسل الشاطئ قلقي؟!

عقارب الساعة لا ترجع للوراء، "أبو جواد" سامحني، رأسي يتفكك من شدة الألم، أخذت قرصي "إسبرين" ثم سبحت في غمامة من بياض خدرتني، هدأت من.. نمت ولا أدري بما حولي.

إنما أدري الآن به هنا يقف عند سيارتي، يحمل تعب وجهه المفزوع، ينقر زجاج السيارة الأمامي ويشير إلى البحر.. فأستجيب لخوفه وأحتضنه لا أكاد أصدّق طيفه الحاضر.. أناديه عباس.. عباس، لا يلتفت إليّ ويصرخ بعصبية.. "أبو جواد" لا يموت، إلحق الرجل لا تتركه يموت، كان أمامي مجرد كتلة من اللحم الناتئ بعظام الضعف، سكين مزروعة في بطنه، يجثو على ركبتيه، أنظر إليه ينزف فأبصق بوجهه وأعطيه ظهري!!

وصراخ عباس يتعالى وما من أحد ينتشل نجدته أو يتبناها، ببساطة دخلت إلى سيارتي وتجاهلت محنة الاثنين، بالرغم من أنني كنت أحدّق إلى عباس بوجه ثلجي ميّت الإحساس وهو يضرب زجاج سيارتي بكفه، ملطخةً بدم "أبو جواد"، جسده يرتعش عند شاطئ البحر، يشرب من دمه المغدور بصمت وحشي.

أهي كفّ عباس تضرب زجاج سيارتي تحاول إيقاظ قلبي الميت؟!

الحلم يزحف ثانية و...

وجدت البحر ونوارس تحلق في الأجواء وهذا الغريب ذو الملابس المتسخة يضرب بكفه العجوز المجعدة كوجهه ويطلب حسنة.

تفقدت الشاطئ ولم أجد الاثنين، لا شيء غير هذا العجوز يتسولني، فأعطيته وانصرف من عندي يعرج في مشيته مبتعداً.

خرجت من سيارتي، أكاد أختنق من دخان الحلم، خرجت لكي

أتنفس بعض هدوء الشاطئ.. ياه، ها أنا هنا عند الصخرة التي تعودنا الجلوس عليها أنا وأنت يا عباس في تلك السنوات. تعودتك تجيب تساؤلاتي بذكائك المعهود.. أنا متأكد أن لديك الكثير من إجابات تساؤلاتنا المستعصية، أنت تستطيع إذابة كل هذا الضباب المتراكم في اللحظة التي تخلع ثوب غيبوبتك.

استيقظ أنت فقط منها فيستيقظ الوطن، فأنت تعرف حُفر الألم التي شوّهتنا، نبحث عن ملاذ، عن فرح، عن نكهة الأشياء التي تضيع منا وحينما تعود، تكون السنين شوهتها فلا نعرف ملامحها الحقيقية.

استيقظ، فكل أعدائك أحرقهم الدهر فأنت تعرف.. تعرف رياح الشر السوداء لا تزال تسيطر على الوطن، جنودها رؤوس كبيرة تأكل الجمر وتشرب أنخاب الدم وتتكلم لغة الدولار وتسكر لحن العولمة والتطبيع الصهيوني، تلبس أثواب الطهارة الزائفة، أنت تعرفها وما استسلمت لها.

استيقظ الآن.. ها أنا عند شاطئنا الأزرق، تعال وأشعل ثانية حلم الجزيرة التي كنت تريد، جزيرة العدالة والحرية والخير، الوطن يستغيث من نكباته وأنت.. انفضْ عنك غبار غيبوبتك، ألم تملّ هذه الرقدة الطويلة؟!

(تمّت في 2008/12/22م)

المؤلف في سطور

- أحمد محمد محسن حسن المؤذن – قاص من البحرين وصحافي متعاون يكتب في صحيفة (أخبار الخليج) – مواليد المحرق 1973م – خريج ثانوية عامة – القسم الأدبي.. من المحافظة الشمالية، قرية كرزكان.
- يكتب في الصحافة المحلية وله العديد من المساهمات في الدوريات الخليجية والعربية.
- ألّف ونشر مجموعة من قصص الأطفال في مجلة (وسام) الأردنية.
- عضو مؤسس في (مسرح الريف) – البحرين.
- عضو مؤسس في صفحة (ملتقى الشباب الثقافي) في صحيفة (أخبار الخليج).
- عضو هيئة تحرير الكتاب الدوري (الملتقى)، الصادر عن الملتقى الأهلي الثقافي – البحرين.
- عضو في أسرة تحرير – ملف الطاهرة – المملكة العربية السعودية
- عضو في مركز كرزكان الثقافي والرياضي – اللجنة الثقافية.
- عضو في أسرة الأدباء والكتاب – البحرين.
- حائز على جائزة المقال السياحي من إذاعة الصين الدولية – مارس 1998م.
- حائز على المركز الثالث في مسابقة (نادي العروبة) للقصة القصيرة 2001م – البحرين.
- حائز على المركز الرابع، جائزة مجلة الصدى الإماراتية – المبدعون / الدورة الرابعة 2006/2005م عن مخطوطة (رجل للبيع) – قصص.
- حائز على جائزة التميز للكتاب، وزارة الإعلام – إدارة الثقافة والفنون، عن كتاب (من غابات الإسمنت) قصص، المركز الثالث / 2 يوليو 2007م / البحرين.
- أقيمت له العديد من الأمسيات القصصية داخل وخارج البحرين – وهو محكم مشارك في مسابقات القصة القصيرة من قبل وزارة التربية والتعليم.

وقـــت
للخراب القـادم

رغم اللغة الخطابية الإنفعالية يبدو أحمد المؤذن في عمله الروائي الأول يتحسس مصير الإنسانية بمنظار عميق لأول مرة يتم تناوله في الأدب الروائي العربي بهذا الوضوح وهذه المباشرة وبهذه الجرأة.

كالإيقاع الموسيقي العذب يحرك المؤذن أحجاره بطواعية وثقة على رخامه الروحي وأمنياته الكونية بالحق والعدالة والخير ممتداً بذلك بإدانة كل من يساهم في خراب هذا العالم واستنزاف عنصره البشري والبيئي بشكل عبثي ومجاني .

محولاً كل مجاسه الروحية والإنسانية في هيكلة الرؤى لكشف الزيف وترتيب أحلامه كما يرى بلغة واضحة وقوية وقاسية ينسج أحمد المؤذن عمله الأول بحرفة عالية وهو رائد القصة القصيرة.

ومن هنا تميل رؤيته الى الإتساع والتنوع في بناء شخصياته وعناصره وترتيب أفكاره

الناشر


ISBN 978-9933-407-39-1

